سلسلة تاريخ الأغواط دراسات و ترجمات الاصدار الثالث

تاريخ عين ماضي



ترجمة و دراسة الأستاذ : كزواي الحاج العرابي

سلسلة تاريخ الأغواط دراسات و ترجمات الاصدار الثالث:

تاريخ عين ماضي

ترجمة و دراسة الأستاذ : كزواي الحاج العرابي

مطبعة دالي الأغواط ـ الأغواط

2020 ـ 2021



أمي مدرستي في السرد والرواية كنزي في الحكمة والحكاية مثلي في الصبر والدراية جنتي في الأرض، وذخري في السماء، يوم العرض واللقاء.

الفهرس

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ والصلاة والسلام على أشرف المرسلين و آله وصحبه أجمعين
اللهم لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض، ولك الحمد أنت قيوم السماوات والأرض، ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، وقولك الحق، ووعدك الحق ولقاؤك حق، هناك مقدمات أساسية رغم تنافرها وتناقضها، تمكننا من فهم الحدث التاريخي الذي نريد تناوله نذكرها كالآتي:

1 ـ مدينة الجزائر تنتصر على أربعة دول أوروبية مجتمعة هي اسبانيا، مالطا، إيطاليا ألمانيا سنة 1541 ميلادية، هذا الانتصار غير تاريخ شمال إفريقيا، سبب الحرب أن ممالك أوروبا، قررت تنصير الشمال الافريقي، ضمن مشروع عام هو تنصير إفريقيا وآسيا واعادة التجربة الأمريكية الناجحة، مع إبادة وتنصير الهنود الحمر.

2 ـ الإمبراطورية الرومانية المقدسة قادمة لتحل بالجزائر، عدد المدافعين عن الجزائر 2600 جندي، عدد المهاجمين 36000 جندي، النسبة تسعة مقابل واحد، قائد الحملة شارل الاسباني، حقق النجاح في ابادة الهنود وتنصيرهم، وأراد أن يكرره في الشمال الافريقي إلا أنه هُزم، ولما رجع قافلا لوطنه من شده غيظه، رمى تاج عرشه في الماء ذكر هذا الحدث العظيم المؤرخون ومنهم المؤرخ التركي ألماز أوزتونا، كتاب تاريخ الدولة العثمانية ذكر حوادث الانتصار تحت عنوان انتصار الجزائر 1541 ميلادية[1].

3 ـ العدد 25 شهر جانفي 1816 ميلادية، كاتب فرنسي اسمه A Berbregger يكتب في المجلة الافريقية بحثا عنوانه، الجزائريون يطالبون ملكا فرنسيا سنة 1572 ميلادية.

4 ـ قبل كتابة التاريخ المحلي الميكرو تاريخ لتأسيس نظرية كتابة التاريخ الكلي الماكرو تاريخ نحتاج، أن نؤرخ قبل ذلك للطوائف والملل، التي تغلغلت في النسيج الاجتماعي للأمة وفتكت به، وأخص بالذكر طوائف الشيعة، وفرق الصوفية المنحرفة عن منهاج النبوة.

---

[1] ألماز أوزتونا تاريخ الدولة العثمانية ترجمة عدنان محمود سلمان مراجعة وتنقيح الدكتور مُحَمَّد الأنصاري منشورات مؤسسة فيصل للتمويل تركيا استانبول 1988 ميلادية.

الجيش الفرنسي سنة 1830 ميلادية بقضه وقضيضه لم يكن بإمكانه، أن يحوز شارع من شوارع العاصمة، و ليكن الحراش، لفهم هذه المعادلة نحتاج لنؤرخ للماسونية بمشاربها وطبقاتها، هذا الفعل لا يقوم به المؤرخون، يقوم به فلاسفة التاريخ.

ـ فلسفة التاريخ لا تنظر للحدث، بل تنظر لدلالة الحدث، الفيلسوف المؤرخ لا يقف عند الأفراد هذا كم مهل، بل يقف عند الحدث هو ثابت لا متغير، التاريخ يعيد نفسه لما تجتمع أسبابه، لا فرق بين سقوط عاصمة الجزائر سنة 1830 ميلادية، وسقوط عاصمة العراق سنة 2003 ميلادية، ولا فرق بين اقتحام مدينة الأغواط، ومدينة الموصل من قبل جحافل الحشد الشيعي، الحدث نفسه يتكرر بتفاصيله.

ـ لما تمسك بالفيروس وتعزله في المختبر، هذا عمل باهر من يأتي بعدك، يحلل ويستكشف ويبحث عن الدواء، ويطمح أن يركب المصل، وينقذ الملايين من موت محقق. عمل عادي يندرج ضمن مجريات البحث، يقوم به الأستاذ والطالب في آن واحد إن لم تقم به أنت يقوم به آخرون سيأتون بعدك، وهم مدركون لأهمية الحدث.

ـ دخول المحتل الفرنسي للجزائر هو فيروس تسلل لجسم مريض، معتل منهك بالأمراض المزمنة، يحاول جهاز المناعة، ويستبسل في الدفاع، ويبتكر الأدوات والوسائط المساعدة يتكيف مع المقتضيات، يهاجم يختبئ يتسلل يراهن يقامر، يفعل أي شيء، ليبقي نفسه حيا، لأن انهيار جهاز المناعة، هو انهيار للجسم، وفقدان للحياة، العدو لما يغزو ويستوطن، نظريته السياسية الفائقة، هي نظرية محو الذاكرة، والبدء في عملية الهدم.

ـ التاريخ هو الساعة والجغرافية هي البوصلة في مثل هذا الحدث، ترك الأسباب فسوق وخروج عن الجادة، مآله الوقوع في التيه المكاني وكذلك التيه الزماني، يقول عز من قائل في محكم التنزيل: ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ المائدة الآية: 24 25 26.

الأغواط يوم الأحد: 27 رمضان 1442 هجرية / 09 ماي 2021 ميلادية.

قصر الأغواط من القصور القديمة في الصحراء، يعود للحقب البربرية، قبل الاحتلال الفرنسي كان مستقلا عن حكم سلطان المغرب، وكذلك الحكم العثماني المباشر، سكانه عرفوا استقلالية خاصة حتى يجلبوا الحبوب من التل، كانوا يدفعون ضريبة لداي الجزائر سبعا من العبيد، مشكلة القصر هو الانقسام الداخلي الذي عرفه، فجعل صوته غير مسموع عند الحكام.

قبيلة الأرباع من أكبر قبائل الصحراء، يضعون الخيم حول مدينة الأغواط، ينقسمون إلى ثلاث فرق كبيرة هم:

1. المعامرة وينقسمون إلى فرقتين هما:

أ- السكاسكة

ب - أولاد سيدي عيسى

2. الحجاج وينقسمون إلى فرقتين وهما:

أ - أولاد أونيس

ب - أولاد ورقلة

3. أولاد صالح ينقسمون إلى ثلاث فرق هم:

أ - أولاد داود

ب - أولاد عطية

ج - العبابدة[1]

أيام الحاج العربي خليفة الأمير عبد القادر، ظهرت بينهم الانقسامات، إلا أن عودة عائلة بن سالم، وحاكمها أحمد سالم، أعاد قبيلة الأرباع لوحدتها وقوتها الأولى.

مدينة الأغواط تنقسم إلى حيين الحي الغربي، يسكنه أولاد سيرغين، الحي الشرقي يسكنه الأحلاف، كل حي له شيوخه وقادته، ونظامه السياسي، والاقتصادي، وكل

[1] Le SAHARA ALGÉRIEN Page: 45.

حي له مصالحه، كل حي له قايد والقايد في الحيين لا يتكلم باسمه، بل يتكلم باسم الجماعة التي فوضته، الجماعة في الحي الواحد، تتكون من أعيان الأحياء، والقصور التابعة للحي الواحد، هذا الانقسام كان السبب في الشجار المفضي للفتن، حتى أن الأمر وصل أحيانا أن الحي الواحد، يفرض على الحي الآخر الضريبة.

واد الخير يقتحم مدينة الأغواط، ويغذي بالمياه إلى جانب الآبار الكثيرة المنتشرة، هو ينبع من منطقة رملية غير بعيدة عن المدينة، إلا أن مواسم الجفاف تقل مياه الآبار، وتجف السواقي، هذا هو سبب الفتن والتنازع. واد الخير يأخذ مساره بداية، لما يمر بحي الأحلاف، ثم ينتقل للجهة الأخرى، هذه أفضلية للأحلاف، لأن آبارهم تبقى عامرة بالمياه على خلاف الآبار في الحي الآخر، أين يعرف السكان شجارا كبيرا سببه المياه هذه الأفضلية، جعلت حي الأحلاف في المرتبة الأولى، اقتصاديا وسياسيا.

عرف قصر الأغواط نهاية سنة 1828 ميلادية حدثا مهما، استطاع أحمد بن سالم أن يسحق خصمه سي لخضر، قايد حي أولاد سيرغين، وأضحى هو السيد الأول، لا ينازعه في السلطة أحد.

السلطان الجديد حاكم المدينة المُهاب، أخضع المدينة لسلطته ونفوذه، إذا وقف أعلى قصبته، يرى ويشاهد حدائق النخل والبساتين الممتدة حوله، مسكنه محاط بمساحة خضراء مفعمة بالخصوبة والعطاء، تمتد حوالي ثلاثة آلاف متر، أي امتداد البصر، لا ترى إلا النخل وأشجار الفاكهة، تختزل منتوج العالم من حيث التعدد. كل الفاكهة دون استثناء لها مكان في هذه الجنة المعطاءة، ما تراه وتبصره الحمضيات وأشجار التفاح والمشمش، وحتى تكمل القائمة عليك أن تستعين بقاموس الفاكهة العالمية على خلاف ما ينتج العالم، الحدائق هنا أشجارها ملتفة مع بعضها البعض متداخلة، لا تنفصل هو عالم لا غير ومكان منفصل عن الأمكنة الأخرى، الأغصان تفسح لنفسها الطريق، تزحف أرضا وتتسلق المكان العالي المرتفع، هنا الفلاحون يتركون أشجار العنب دون تقليم، تكثر وتكبر حتى تكون كشجر السدر، حيث تكون شجرة الكروم أحيانا واحة صغيرة ضمن الواحة الكبرى. كذلك الأمر لأشجار التين هي حرة، تنتقل وتزحف أين تحب وتشاء تترك هكذا حرة في الطبيعة هي كذلك، تشكل ظلالها، وترتفع أغصانها أحيانا، وتنزل

وتزحف أحيانا أخرى، القانون الذي ينظم الحياة النباتية هنا، هو قانون الفوضى والطفرة الطبيعية، هذا هو الفرق بين الحياة في التل والصحراء، قانون التل هو النظام والانتظام، وقانون الصحراء هو العبثية، لا الفوضوية، بل عبثية التحرر والانفلات من القانون الطبيعي. هكذا هي حياة بساتين الأغواط، وكذلك حياة أصحابها، أنظر حواليك هو العبث، وتأمل قليلا، ستعرف أنه عبث الحركة، والاطراد، والتسارع من ينظر لحدائق الأغواط، كمن ينظر للسماء. الجاهل يرى فوضى النجوم والأقمار والكواكب، لأن بصره محدود، كذا الأمر هنا العالم لا يحسب بلغة الأرقام، يل يحسب بلغة النفوس والأرواح والمهج، لو قُدر لك وارتفعت قليلا، كما ترتفع الطيور، ونظرت من عل، سترى منظرا مفارقا داخل هذه العبثية النباتية هناك مربعات منظمة ومنتظمة مشكلة تشكيلا هندسيا فارقا، ستنبهر هي حدائق بابل المعلقة هذا المربع غرس قمحا وذاك غرس بطيخا والآخر هناك بعيدا غرس ذرة لو أعطاك الله تبارك وتعالى قدرة أكبر وارتفعت سترى سيدة الحقل وعروسه النخلة، بأنواعها، وأشكالها وأحجامها، هي وحدها منفردة، تعانق أعنان السماء هي حياة الناس، وقدرهم منذ الأزل.

كل شجرة وكل نبتة وكل حقل صغيرا كان أم كبيرا، يصله الماء، أنظر هناك نهر ينساب في كل مكان، لا ينقطع، يبعث الحياة، ويغذي هو سواقي تندفع فيها المياه، من لا يعرفه هو واد الخير، لا يترك مكان في المدينة إلا ويزره، ويكرمه، هذا النهر المعطاء الكريم ينظمه الشرع والعرف، هو ينساب بين الحدائق والبساتين، وفق قوانين فقهية صارمة كل فرد كان من كان له الحق في الماء في يوم وساعة، ومقدار معلوم. يقوم على هذا العمل رجل يعرف بالوقاف، يحتكم في توزيعه لساعته الرملية، ومسبحته وخيط، يضع فيه عقد هو خارطته التي تعرفه، متى وكيف يمنح كل حي حصته من الماء، كل ساكن يعلم ما حظه ونصيبه، وزمن وصول الماء إليه.

تبنى مساكن المدينة بهندسة بناء بسيطة جدا، لا تعقيد فيها، لأن حياة الناس هنا في بساتينهم وحدائقهم، وليست في بيوتهم، البيوت جعلت لحفظ المؤن، وطهي الطعام ومع ذلك البيوت فسيحة، ومفتوحة على حدائق صغيرة تكملها، مادة الجير تدخل في البناء كمادة مكملة، لأن مادة البناء هي الطين، يعرفه العرب هو اللبن، يشكل كقوالب

مستطيلة، يرصف إلى بعضه رصفا، مادته الماسكة هي الطين نفسه، البيوت تطلى بمادة الجير، داخل وخارج المنازل اللون الغالب هنا الأبيض والأزرق، وأحيانا الأخضر.
كل حي له سوقه، سوق أولاد سيرغين يسمى سوف كخة، وسوق الأحلاف يسمى سوق الخير، وسبب التسمية أنه واقع بمحاذاة واد الخير، المدينة تعرف حركة تجارية كبيرة نسجل هنا أهم القبائل، التي تجد حاجتها في السوقين: الأرباع، جبل العمور، أولاد خليف، أولاد الشايب، المخاليف، أولاد نايل، رحمان، بني ميزاب، الحرازلية، أولاد المختار، أولاد سيدي عطا الله، أولاد سعيد، و الشعانبة، وغيرهم كثير.
لما شعر الأمير عبد القادر بالقوة، وهو يحاصر عين ماضي، طلب من أحمد بن سالم أن يعود لمدينة الأغواط، ويخضع للحكام الجدد الذين عينهم، وطلب من الخليفة التجاني أن يترك قصره، ويبحث له عن ملجأ يأوي إليه. هذه القرارات المرتجلة، وحدت أهل الصحراء ضده، وظهر تحالف جديد بين الزعيمين أحمد بن سالم والخليفة التجاني من نتائجه الأولى، طرد خليفة الأمير الحاج العربي، وفراره إلى قصر العسافية، الأمير تدارك الأمر وعين قائدا جديدا حاكما لمدينة الأغواط، هو سيدي قدور بن عبد الباقي من قبيلة أولاد خليف.
تحرك عبد الباقي مع قوة قوامها ثماني كتائب مشاة، وبعض قطع المدفعية، وعسكر في قصر تاجموت، فهم أحمد بن سالم، أن هذا يعني تسليم مدينة الأغواط، وهذا في حد ذاته نقض و خيانة أهل المدينة لحليفهم الخليفة التجاني، وحتى لا يظهر نفسه عدوا للأمير، بن سالم ترك المدينة، وانسحب إلى قصور بني ميزاب. لما ترك عبد الباقي تاجموت، وأخذ طريقه ناحية مدينة الأغواط، لم تظهر له عائلة بن سالم العداء، ودخل المدينة دون مقاومة، ونشر عساكره بين الأحياء، وكتب ليخبر الأمير خبره. جاء الرد من الأمير: « أقتل قادتهم، حطم مدينتهم، قم بقطع أشجارهم»[1] سي عبد الباقي انتظر أياما ليشرع في تطبيق أمر الأمير، ودون سابق إنذار قام عبد الباقي بالهجوم على أفراد من عائلة بن سالم وقام بأسرهم، عبد الباقي راهن على انقسام السكان، والعداء الواقع بين

[1] Le SAHARA ALGÉRIEN Page: 45.

الحيين إلا أن الذي وقع، هو أن السكان كلهم انتفضوا دفعة واحدة، ولا حقوا جند عبد الباقي وما هو إلا زمن، وجند عبد الباقي بين قتيل وأسير، وكنز الأمير وما كان يفتخر به، وهما قطعتان من المدفعية، وقعتا بين أيادي سكان المدينة مع مستلزماتهما، عبد الباقي نجا بصعوبة، وما أطلق سراحه إلا بعد أن تعهد، أن لا يطأ بأقدامه المدينة مستقبلا.

بدأ العداء يظهر جليا من قبل سكان الصحراء، ضد الأمير بعد أعماله المرتجلة في مدينة الأغواط وعين ماضي، وجد نفسه مرغما على الانسحاب، إلا أن حلم غزو الصحراء والسيطرة عليها، بقي هاجسه الأكبر، ولتحقيق هذه الغاية، طلب من خليفته السابق على مدينة الأغواط الحاج العربي، أن يلتحق به عاجلا.

انخرطت قبيلة الأرباع الكبيرة في الانقسام والاقتتال، وانقسموا قسم وقف مع أحمد بن سالم، وقسم وقف مع خليفة الأمير الحاج العربي، إلا أن أحمد بن سالم حسم المعركة لصالحه منذ البداية، والسبب أن الحاج العربي دخل قصر الحيران، إلا أن أنصاره تفرقوا على خلاف خصومه، حيث اجتمعت كلمتهم. اجتمع حول ابن سالم أكثر من ألف فارس واستعانوا بقطعتي المدفعية التي غنموها، وبقي الحاج العربي وحيدا، مما سهل القضاء عليه وعلى فتنته، ووقع أسيرا، وطلب أخ أحمد بن سالم وهو يحيى بن معمر أحد خدمه أن ينهي حياة الحاج العربي، وبرر ذلك أنه لا يلطخ يداه بدم رجل خائن.

ما سمع الأمير ما وقع لخليفته استشاط غضبا ثم أقسم: « أقسم بالله، أن أقلع عيون بني لغواط الذين يقعون بين يدي، وأعذبهم عذابا شديدا، وأنزع جلودهم، وأجعلها طبولا تقرع» وحتى يصدق الأمير في قسمه نفذ وعيده، وفقأ عيون سجناء من الأغواط بواسطة مهماز خيل صناعة عربية.[1]

لما حاصر الأمير عبد القادر عين ماضي، كانت فرصة ليسترسل مع أحلامه، ويوسع ملكه راسل بني ميزاب، يطلب منهم الطاعة والدخول في دولته، وأرسل رسالة وعد ووعيد

[1] Le SAHARA ALGÉRIEN Page 25 26

جاء في الرسالة: « الله هو ناصري، وهو من اختارني من أجل ذلك، كل مسلم أن يتبعني، ويدخل في طاعتي ثم توعد قائلا: أن رفضتم وأبيتهم، فأعلموا أن كل ميزابي يقع في يدي، أنا قاطع رقبته لا محالة».
جاءه الجواب من بني ميزاب:
« نحن لا نترك طريق الأجداد والآباء، من أراد السفر منا والتجارة، يحكمه العرف المعروف، ندفع ضريبة المرور لكل قبيلة، التي تجمعها وتعطيها للحاكم التركي، ونعلمك أننا لا نسلم مدننا، وإن فكرت في يوما ما أن تأتينا لتهد أسوارنا بمدافعك وجنودك، نقسم لك أن صدورنا ستلتحم بصدور جنودك، وسيعلم يومها الذين ظلموا أي منقلب سينقلبون وإن منعتنا تحصيل الحبوب من التل، نعلمك أننا نخزن كفاية مائة عام من الحبوب والبارود وإننا نزرع، ونحصد ما يكفينا من القمح، ويسد حاجتنا. تهددنا بقتل بني ميزاب الذين يسكنون مدنك، افعل ذلك وأقتلهم، لأن العرف عندنا من ترك قصورنا، هو ليس منا وننصحك، أن تقوم بأكثر من ذلك، من وقع عندك من بني ميزاب، انزع جلودهم وأسرع في دباغتها، وإن لم يكفك الملح سنرسل لك كفايتك منه ونقول لك أخيرا ما تقدر يدك أن تفعله، لا تتوانى وافعله مسرعا.»

أزعج الجواب الأمير، وأفقده صوابه، إلا أنه كتم أمره لمقتضيات حاله، وقرر أن لا يرد حتى ينهي مهمته في عين ماضي، ويعود لعاصمته في تاقدامت. أول ما عاد لعاصمته جمع رجال دولته، طالب بطرد بني ميزاب من المدن التي هي تحت سيطرته، وعددها: المدية مليانة، بوغار، معسكر، تاقدامت، ثم قال كل المدن. لما سأله الحاضرون عن السبب قال لهم: بني ميزاب ساعدوا التجاني في حربه علينا، ولم يفهم الناس ذكاء الأمير عبد القادر في تعامله مع المسيحيين، وكيف أظهر لهم الرفق والمعاملة الحسنة على خلاف معاملته للمسلمين، ولما اشتد عليه الأمر، واتهمه الناس بالإفراط في قتل المسلمين قرر أن يغير القتل بغرامات باهظة، يفرضها على معارضيه[1].

---

[1] Le SAHARA ALGÉRIEN Page 69 70 71

نقرأ في أطلس الصحراء، أن عين ماضي تقع على مسافة 66 كيلومتر من مدينة الأغواط غربا، موقعها الجغرافي هي واقعة على سهل أسفل جبال العمور، وتكاد تتفق المصادر العربية والفرنسية، أن القصر لم يظهر إلا في القرن السابع العشر الميلادي، وأن أول ذكر له عرف في رحلة العياشي.

قصر عين ماضي يرتفع على قمة صغيرة غرب مدينة الأغواط، تمتد في تناسق عل سفح القمة مساكنها فسيساء متناسقة ومتلاصقة محاطة بجدار، تعلو الجدار قبعات ثلاثية تستمر ولا تنقطع تساير مسار الجدار، وتذهب معه أين ذهب، المساكن محاكاة لتناغم البناء، هي وحدة في كثرة وجمع في بعثرة، لو قدر وارتفعت قليلا، ستشاهد نصف بيضة نعام، قطعت قطعتين، بالطول لا بالعرض.

هذه الفسيفساء المتلاحمة لها بابان، الباب الأول يسمى الباب الكبير، هذا يقع شرقا باب الساقية يقع جنوبا، باب الكبير مضاعف الأول، يدخل على درب ينتهي بوجود قلعتين كبيرتين مربعتين، تدخل بعدها ستجد ساحة، لا تحتاج جهد حتى تعرف أنها ساحة محضرة ومهيأة، لتكون ساحة حرب وقتال، مساحتها بالتقدير الطول أربعون قدما أما العرض فهو ثلاثون قدما. أنت لم تدخل المدينة، أنت تحتاج باب آخر يوصلك هذا البناء، هذا التخطيط، لم يوضع هكذا بشكل عبثي، وضع ليمتص ضربات القذائف إن أصابت القذيفة الجدار الأول، لا تصيب الثاني وهكذا، كما يقال في اللغة العسكرية احتياط أمن، الجدران قوية هي متران عرض، ثمانية أمتار ارتفاع، الجدر صلدة و قوية بنيت بالصخر رصت رصا، يصدق فيها قول المصطفى عليه الصلاة والسلام: « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا» رواه البخاري.

خارج الأسواق تجد نفسك أمام حدائق، تمتد أمامك مباشرة بمسافة تقدر 150 مترا الحدائق محاطة بجدر تسترها ولا تحميها في كل الأحوال، هذه الحدائق وجدرها الضعيفة لا تنفع أيام الحروب والحصار، يل قد تسعف الغزاة والمحاصرين، وتمنحهم مأوى وحماية ما بقي من الأشجار إلا شجرة وحيدة، واقفة في استحياء، لأن باقي الشجر قلعه وأتلفه جيش الأمير عبد القادر، لما حاصر القصر، وأمر بهد القصر وقلع حجارته، وتشريد أهله حاول السكان، أن يصلحوا فأعادوا رفع الأسوار، ورصف الحجارة، هذا لا يحتاج وقتا طويلا، أما إعادة الشجر والثمر، هذا يحتاج زمنا أطولا.
تطوع الأهالي وغرسوا أشجارا جديدة، الشجيرات صغيرة بالكاد ترى، القصر تغذيه عين ماء واقعة جنوبا، هي خارج الأسوار عند موقع قدم جبل يسمى المركب، جبل متصل بسلسلة جبال العمور، المياه تحملها ساقية، مجراها يمر بباب الساقية، الماء يجمع في حوض ثم يتفرع فرعين، ليأخذ طريقه لسقي البساتين. رجل كبير طاعن في السن مهاب، وضع ليصرف الماء بالعدل، يضبط مسارات الماء بساعة رملية، بين الحين والآخر يتفقدها المزارعون، وينظرون إن كانت تعمل بدقة، لأن عملها غاية العدل، هو الترتيب وتوزيع المياه على الجميع بالعدل والإنصاف، داخل القصر نجد آبارا عددها أربعة، تعرف قيمتها أيام الحروب والفتن والحصار، آبار القصر في كل الأحوال هي تفي بحاجة السكان الضرورية للماء، عدد المساكن داخل القصر لا تقل عن 150 سكن، ولا تزيد عن 200 سكن، مساكن بسيطة تبنى بالطين، وهناك بيوت بنيت بالصخر.
البيت الوحيد المخالف لغيره في الشكل والهندسة، هو بيت الخليفة التجاني، البيوت عادة من طابق واحد، ولا يوجد بيت دون فناء، قلة قليلة من البيوت، تجد لها طابق أول، إلا أنه يأتي دوما منخفضا، ما يميز بيت الخليفة رغم بساطته، أنه طلي بالجير، نجد في القصر مسجد لا منارة له، هندسته بسيطة، إذا دخلته تشعر وكأنك في المسجد النبوي في أيامه الأولى، منتهى البساطة، مسارات الشوارع ضيقة بالكاد يتخطاها الحصان، أهل عين ماضي بسطاء لهم صفة تميزهم عن غيرهم، يصبرون على البلاء صبرا لا مثيل له.

أهل عين ماضي يحسنون الجيرة والمعاشرة مع إخوانهم وأعدائهم، بالرغم من الفعل الذي فعله معهم الأمير عبد القادر، لا يحملون له كرها ولا ضغينة، ولا يذكرونه في مجالسهم بسب ولا شتيمة، ويفوضون أمره لخالقه، لما جاءتهم بعثة فرنسية سنة 1844 ميلادية تزرهم، هذه سنتكلم عنها بالتفصيل في مسار الأحداث[1]. في قصره أبي الخليفة استقبال البعثة استقبال الراضي، إنما قبل دخولهم القصر، لأنه لا يملك قوة تردهم، وما احتجوا بما فعل الأمير عبد القادر فيهم، واعتبروا ما وقع من الفتن التي تقع بين المسلمين، والقضاء لا يرده الحذر.

هذا القصر ليست عظمته في مبانيه ولا أسواره، عظمته أنه أنجب شخصية عالمية تتفق معها في الفكر أو تختلف، شخصية فرضت نفسها بالقوة المعنوية، هو السيد الحاج مُحَمَّد بن أحمد التجاني، لا يختلف اثنان على تقواه وإيمانه قادحيه ومادحيه، غالى فيه مادحيه ونسبوا له الخوارق والكرامات، ظنا منهم أن هذا يرفعه، والرجل كان في مراتب الإيمان والإحسان، وهو لا يحتاج كل ذلك، قادحيه احتجوا عليه بفعل الجهلة، وصنيعة الأشرار من قومه، وهو منها براء. هذا العهد الذي نتكلم عته طُبع بطابع الصوفية وتياراتها ومساراتها المختلفة، والصوفية كأي فكر فيه الغث والسمين الجيد والرديء، الصوفية مع الفترات الأخيرة من أيام الدولة العثمانية، كانت في أتعس مراحلها، لأنا كانت من واقع التخلف والانحطاط الذي عرفته الدولة الإسلامية.

لكي نفهم معادلة الصراع نقف عند شخصيات ثلاث : أولا شخصية مُحَمَّد بن عبد الوهاب2 وقوله في الصوفية وفعله، نجد أن حياته بين زمنيين ولد سنة 1703 توفي رحمه الله سنة 1791، ثانيا شخصية السيد أحمد التجاني ولد سنة 1737 توفي رحمه الله سنة 1815 ميلادية، ثالثا شخصية الأمير عبد القادر ولد سنة 1808 توفي رحمه الله سنة 1886 اقرأ تاريخ الميلاد والوفاة ستجد التوافق في التواجد في عصر واحد، تجد شخصيتان متوافقتان في المنهج مختلفتان في الفكر شخصية مُحَمَّد بن عبد الوهاب وشخصية الأمير عبد القادر، كلاهما أعلن الحرب على المسلمين بغض النظر عن الحجة والسبب، وكلاهما

---

[1] راجع بعثة الأغواط ماري مونج ترجمة المؤلف.

[2] راجع كتاب ابن غنام تاريخ نجد طبعة سنة 1949.

أوغل في الدماء دماء اهل الاسلام. الاستثناء هو السيد أحمد التجاني، لم يكن صوفيا بمفهوم متصوفة زمانه، بل أُريد له أن يكون صوفيا على طراز صوفية الوهم والخرافة في حياته، رفض ذلك، وأراد أن يكون عبدا من عباد الله وكذلك كان حتى لقي ربه1. الاستعمار الفرنسي وأذنابه خربوا ميراث السيد أحمد التجاني، تتبعوا رسائله وحرفوها ما تركوا لنا شيء من ميراثه سليما نثق فيه، ونحكم به على الرجل، هذا بحث واسع لا يتسع له المقام، هي أفكار تراودني دائما أتمنى أن يمنحنا الله بقية من العمر، نفتح هذا الملف ونعالجه معالجة علمية، لأن هذا الملف إذا فتح بمفاتيح العلم المجردة، يومها يمكننا أن ندعي أننا امتلكنا القراءة العلمية للحدث.[2]

[1] راجع فصل السيد أحمد التجاني.

1. Le Sahara algérien : études géographiques, statistiques et historiques sur la région au sud des établissements français en Algérie De Eugène Daumas Hachette BNF

أبلى الأخوين عروج وخير الدين في الوقوف أمام غزو الاسبان للسواحل الجزائرية ولردع القوة الغازية، التحقت الجزائر بالدولة العثمانية سنة 1518 ميلادية، لتصبح إيالة خاضعة للسلطان العثماني. استعان العثمانيون بالعلماء وشيوخ الطرق الصوفية والمرابطين للوقوف أمام الزحف الصليبي من سنة 1518 ميلادية، إلى غاية القرن الثامن عشر كانت العلاقة بين العثمانيين والجزائريين حميمية، وبدأ التغير وخاصة بعد تحرير ميناء وهران سنة 1792 ميلادية، لا يعرف الكثير أن إسبانيا، احتلت مدينة وهران ثلاثة قرون كاملة، سبقت الاحتلال الفرنسي للجزائر. بدأ هذا الغزو شهر ماي 1509 ميلادية، هذه الفترة كانت كافية لبناء نواة صلبة، لعملاء وجواسيس من طراز رفيع هؤلاء هم مهندسو الاحتلال الفرنسي، لأن اسبانيا وضعت علمها وخبرتها الطويلة مع المسلمين في خدمة المشروع الصليبي، اسبانيا يومها كانت تصول وتجول في العالم الجديد أمريكا، تم تشكيل حلف ما يعرف بالحلف الماسوني الصليبي، لذلك تجد الدجل والدجالون وثقافة الخرافة في الغرب الجزائري، لها حيز أكبر مقارنة مع المناطق الأخرى.

كانت رحلة مُحَمَّد الكبير رحمه الله، جس نبض لفعل هذه القوة المخيفة، بدسائسها ومعرفة مكمن قوتها، ألا وهي الحرب النفسية ضد المسلمين، انتشر الدجالون تحت مسمى المرابط في كل زاوية وركن، يحطمون نفوس المؤمنين، بزرع الخرافة والدجل، وثقافة الخوارق، يومها لم تكن هناك وسائل إعلام مبتكرة، إلا أنهم ابتكروا حروبا نفسية جديدة، المبلغ فيها هم الشعراء، ينشرون الشعر الشعبي، يبشرون بنهاية الاسلام وقدوم الصلبيين، ويحطمون المجتمع من الداخل بنشر الرذائل، وأكبرها رذيلة الزنا، نشروا المواخير في كل مدينة وقرية وبادية.

ما دخل القرن الجديد 1800 ميلادية، حتى ظهر دعاة ومحرضون، يعلنون العداء للحكم العثماني، هذا أحدث التوجس لدى السلطة الحاكمة، مصدر الكراهية وبث الفتن والمختبر لصناعة نجوم هذا الحلف، هو سلطان المغرب وقصره وحاشيته، لأن مشروعه الأبدي، هو إخضاع وحيازة الجزائر، هو يعرف حدود قوته، وأنه لا قدرة عليه لإخضاع الجزائريين، فاعتمد نظرية الاختراق الفكري، بتصدير نظرية الشريف والوضيع، لذلك لا تستغرب أن الأضرحة المشيدة، تكاد تكون بالمطلق تخضع لنظرية جاء من المغرب أو ذهب إليه. لما أعلنت بعض الطرق الصوفية التمرد، بل وتدعو صراحة لضرورة الخضوع للسلطان المغربي، الحاكم العثماني جاءه الشك، وراوده الريب بعد ظهور المؤسس للطريقة التجانية السيد أحمد التجاني، ولد سنة 1150 هجرية 1737 ميلادية بعين ماضي، جده الرابع مُحَمَّد بن سالم رحمه الله، انتقل من قبيلة عبدة بنواحي آسفي مع أسرته إلى بني توجين - تجانة - بعين ماضي بنواحي الأغواط، وتزوج منهم ولقب التجاني يعود إلى أخواله[1].

حتى نفهم الحياة الثقافية التي عرفها المسلمون أيام الباي مُحَمَّد الكبير، نأخذ على السريع مقاطع من أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الشعر الشعبي عنوانها: الجفر[2] في الشعر الجزائري - وجمع ودراسة لنماذج من شمال الغرب الجزائري - .

---

[1] الصفحة 41 عبد الحفيظ حيمي آفاق فكرية.

[2] الجفر من علوم الشيعة المجوس السرية، يَدَعون أنه يُعرفهم بالغيب، وما يحصل في قادم الأيام، ويكثرون بالتبشير بخروج مهدي الشيعة الذي سيقتل النواصب، وهم أهل السنة والجماعة، لذلك هؤلاء يعتبرون قتل المسلم واستباحة عرضه، والاستعانة عليه باليهود والنصارى مما يقرب لله، لذلك يجدون نشوة كبرى وهم يستبيحون دماء المسلمين، ولا يظهرون ذلك، يستعينون بالتقية وهي من عقائد الشيعة المجوس، وهي

نقرأ في الرسالة:

« ولكم من هذا النفح قصائد جفرية للشيخ عيسى لغواطي، والشيخ لحبيب ولد دحو وللشيخ بالوهراني، والشيخ مبارك بولطباق، والشيخ الزناقي، والشيخ مُحَمَّد بن عودة رحمهم الله رغم تباين الزمن، إلاّ لانفرادهم بهذا الغرض في الأدب الشعبي الجزائري منذ القرن التاسع الهجري حسب علمنا.»

نقرأ في الرسالة: الفصل الأول الشيخ سيدي عيسى الأغواطي ـ من الأغواط وذو أصول من سعيدة ـ

« وهو يعد شاعر الجزائر في النصف الأول من القرن الثامن عشر دون منازع وحلقة وصل بين الشاعر الكبير سيدي لخضر بن خلوف وبو الأطباق وبين ابن مسايب وابن سهلة، فكان لا بد أن تكتمل الحلقة بين الفحول الذين ملأوا سماء الجزائر بأجمل المدائح. ». الصفحة: 64.

« وأما سنة وفاته فيذكر الرواة أنه توفي قبل أسبوع من مولد القطب الرباني سيدي أحمد التجاني أي في سنة 1150 هجرية 1737 ميلادية، ولم أجد من يخالف هذا التاريخ، ودفن بمقبرة بني هلال أول الأمر، ثم بعد قرن ونيف نقل إلى ربوة باب الربط أين يعلو ضريحه[1].» الصفحة: 66.

يشير الحاج عيسى إلى القرن الذي عاشه، وكيف أن المسلمين يكرهونهم قائلا: الصفحة 73 و 74.

ذا القرن الذي تراجعت فيه الأشيا وقيل ما فيه حج ولا صيـــــام

وا يولوا عديانهم الأولياء هذا شاو المكر يبدوه الظُـــــــــــــلام

عدم إظهار حقيقة الاعتقاد المجوسي الوثني، ويتخفون عادة وراء الفلاسفة، وأقطاب الصوفية.

[1] رفع ضريحه بعد دخول فرنسا و قبل اقتحام مدينة الأغواط، سنة 1848 ميلادية.

والأولياء عندهم سم الحية ويطلقوها ثم تسري فالعـــــــــــــلام

ما تبقى زوجة مستقرة سنية والدنيل متخلطة ما كان امـــــــــلام

ما تعرف شي من أصل الذرية هاذا شاو الكشف يدخل فالاسلام

يتنبأ بسقوط الأتراك ونهاية حكمهم ويبشر بنهاية دين الاسلام **الصفحة: 82.**

بركاهم الأتراك من صولة الأيام في مزغنة اللي كانت ما مثلها مدينة

نتكلم أنا ونسمع في الأرحام بالسر الغايب وتفصيل المــــــــــعنى

ياحسراه عليك يا مزغنه[1] سيرة عام مملكتك للروم وليت ســـــكنه

ويقول في قصيدة الشهيرة التي يتوعد فيها سكان الأغواط بالهلاك وسبي نسائهم: الصفحة: 77.

مَا يَحْلَى لِلْتُرْكْ فِيهَا نُومْ يَنْهَزْمُوا وَزَمَانْهُمْ مَهْـــــــــــــــــــــــــرُومْ

بَرْكَاهُمْ مِنْ ظُلْمْهُمْ وَالْشُومْ قُدْرَةْ رَبِي تَهْزَمْ الْمَلْمُـــــــــــــــــــــــــومْ

كَانَتْ مَزْغَنَة مَلَانَة بِصَنَادِيدْ الأَتْرَاكْ اِلْلِي مُلْكْهُمْ مْقَبَحْ طَبْعُــــــــــــــهْ

لُوطْ وخَمَرْ وفُسَاقْ وَأمْفَاسِيدْ حَاشَا فِيهُمْ مَنْ خْشَى الله وَطَاعَـــــــــــه

هَا هُوَ جَاهُمْ عَسْكَرْ لاَ يَرْحَمْ سِيدْ رَومْ الْنَصَارَى يَصُدْعُوا مَا يَنْصَدْعُــوا

يِذُلُوهُمْ وَالْهَنَا يَشْيَانْ يَرْخَسْ ذَاكْ الْجَاهْ بَقْبَحْ الْقُـــــــــــــــــــــومْ

يِسِيبْ حَرِيمْ الْتُرُكْ فِي الأَوْطَانْ يَشْمَخْ دِينْ فْرَنْسَا وَيَـــــــــــــــدُومْ

نجد كذلك من شعراء الجفر والدجل، الشاعر الشيخ سيدي لحبيب ولد دحو ـ من منطقة سيدي بلعباس، هو يتكلم عن القرن الثالث عشر الهجري الذي يطابق ما بين السنوات من 1785 إلى 1881 للميلاد، يتنبأ بهزيمة الأتراك وقدوم الروم:

في القرن الثالث عشر من القسمه التاليه خمسين عام يروها غير هموم

ثمه يجي النصر من مصر مداويه يرجع حتى لوطنه سلطـــــــان الرّوم

[1] مزغنه هو اسم العاصمة الجزائرية.

ثلاثين عام كامل و الناس مشاويه سته و زيد العشره للتّرك حـــكوم

من بعدها يفيض بعساكر قاويه شرق و غرب يمـــــــلكوها في يوم

نجد كذلك الشاعر الشيخ سيدي بالوهراني - شاعر الدجل والجفر من معسكر - يتنبأ بنهاية الأتراك وقدوم الروم، ويفعل كما فعل سابقيه يذكر بسبي النساء المسلمات في مدينة وهران:

يَا شـِـيخِي يَا شِيــخْ دَنــّقْ وَاشْ ايْـصِيرْ يَا شـِـيخِي يَا شـِـيخْ فــي جِيــل الْمُهْمَـل

انْخَـــبَّرْكُمْ وَاشْ جَـــايْ وْ اقـــبْضُوا ذا الــرَّايْ مَـــا يَبْقَـــى لا بَـــايْ لا بَاشَـــا يَعْدَلْ

سُلْطانْ الإسْـــلامْ مَا عَنْدَهْ مْقَامْ اعْطَاوَهْ أَيَّـــامْ يَحْكَمْ اقْـلَّـيْلْ

رَاهُمْ ايْـجُو الرُّومْ وْ يَمَّلْكُوا هَـاذْ الْـقَوْمْ مَنْ هُوَ مَحْـرُومْ يْعُودْ مْبَهْدَلْ

يُـــدُّخْلُوا شِي نَاسْ يَمْشُـــوا بَالتَّرْبَـــاصْ مَـــنْ هُـــوَ خَسَّـــاسْ نْـــدْهُمْ يَضْـــحَى وَاصَـلْ

يَمَّلْكُو ذ ْ الْبَرّْ الهَوَا وْالـبْحَرْ وَالِّلي يَلْحَقْ هَـــاذْ الْخَبَرْ عُمْرَهْ طَايْلْ

الحُكْمْ يْـدُّوهْ لَلْعْرَبْ بْالتّْشَبُّوهْ رَاهُـمْ ايْطـَوْعُـوهْ مَنْظُومَـــةْ كَامْـــلْ

تْطَّـوَّعْ لـَجْبَالْ بْوْعَارْهَا وْ سْهَـلْ وْالخَلْقَـــــةْ كَيَّالْ فَـالْكَاغَطْ تَاكُلْ

مْنْ الخَضْرَة لْسُوسْ تَتْهَوَّلْ الـرُّؤُوسْ تَضْحَى مَخْصُوصْ عِيشْتْهَا تُوحْلْ

يَضْـــحُوا مْخْتَلْطِيــــنْ لا سُـــنَّة لا دِيـــنْ لَحْبَـــابْ الطَّيْبــــِينْ دَرْقُـــوا فَـالْحَنْظَـلْ

النَّـــاسْ التَّاقْيــــِينْ يَضْـــحُوا مَـكْرُوهِيـــنْ وْ النَّـــاسْ الفَـــاجْرِينْ هَـــدْرَتْهُمْ عْسَـلْ

حِزْبْ الشَّـيْطَانْ يُـنْصْرُوهْ الْعُرْبَـانْ العِلْمْ مْعَ القرآن جَمْعَهْ قـْلَيـلْ

ايبُوحْ المكْرُوهْ وْ الحْرَامْ يْشْرُوهْ الصَّافِي مْنْ بُوهْ يَزْعْفْ وْ يَنْعَـلْ

ايلَـجُّوا بْالحْرَامْ في كُـلّْ مْـقَامْ تْتْحَزَّبْ الاسْلامْ وْ الخَصْلَة تْسْفَلْ

ايْهِيمُوا لـبَـنَاتْ يَضْحُوا مْتْفَرْقَـاتْ مَا تَبْقَى شَابَّاتْ كُلّْ مْرَا هَاجْلْ[1]

لَــبْنَاتْ الِّــلِي اعْــزَازْ مَــا ايْصِيبــُوا لــزَّاز بَعْــدْ النَّفْخَــة تَنْحَــازْ وْ تُــتْرُكْ الرَّاجْـلْ.[2]

حملة المجاهد الباي محمد الكبير 1198 هجرية 1784 ميلادية والتصدي للدجاجلة:

هو محمد بن عثمان الكردي.

يكنى: أبو عثمان، أبو علي، أبو محمد، أبو أحمد، أبو الفتوحات، أبو النصر، أبو المواهب أبو الربيع.

لقبه: الكبير عندما فتح وهران، لكحل لشدة سمرته، قتل على يد أولاد نايل في حوادث عصيان وتمرد على الحكم العثماني[3].

سنة 1189 هجرية تحرك الاسبان لغزو الجزائر، شارك محمد الكبير في الدفاع بجيشه الكبير، وأذاق الاسبان صنوف الهزائم.

---

[1] هؤلاء هم أئمة الماسونية لهم حقد على المسلمات يفرحون لسبي المسلمة ويهللون وهذا من عقيدتهم لم يتركوا عرض النبي عليه الصلاة والسلام فهل يتركوا هكذا أعراض المسلمات.

[2] راجع قصائد كثيرة المرجع: الطالب بومداني مصطفى الجفر في الشعر الشعبي الجزائري.

[3] يقول فورنوس إنه قتل على يد أولاد نايل في غزوة قام بها ضدهم عندما خرجوا من طاعة الأتراك وهناك من يخالفه الرأي: أنظر المجلة الافريقية السنة 1857 الصفحة: 405 أنظر هامش كتاب رحلة محمد الكبير تحقيق محمد بن عبد الكريم الصفحة: 15.

سنة 1192 هجرية اجتمعت الطائفة الدرقاوية من جديد بموضع عين الحوت قرب تيموشنت، وقررت الخروج والعصيان، فخرج إليهم الحاج خليل باي الإيالة الغربية في طريق حدثت عاصفة شديدة، فرقت الجيش ومات الباي في ظروف غامضة، استجاب الداي للرعية، وعين خليفة له مُحَمَّد الكبير، فقضى على فتنة الدرقاوية.

أول أعماله إصلاح حال الرعية، وبدأ بإخضاع القبائل المتمردة: أولاد علي بن طلحة الحشم، فليتة، حميان، وقبائل جبل راشد ـ جبل عمور حاليا ـ وبعض القبائل الواقفة عند الحدود المغربية الجزائرية، تمارس السرقة وقطع الطريق، أخضع الجميع وأخذ منهم الضريبة المستحقة، وأدخل بعضهم المخزن كجنود ومقاتلين، من أعظم أعماله غزوة الجنوب الصحراوي الجزائري، جهز لها جيشا عظيما، خرج من معسكر مر على جبل راشد، دخل مدينة البيضاء، وأفلو، والطويلة، حتى وصل مدينة الأغواط، وبعد نجاحه رضي به المسلمون بما في ذلك قصور ميزاب. هذه الغزوة العظيمة الجليلة واقعة سنة 1199 هجرية، جمع المسلمين على كلمة سواء، وكل الكتبة الفرنسيين يجمعون أن الضرائب التي فرضت على الناس أيام الحكم العثماني، زهيدة لا تذكر.

فاتح من شهر صفر 1205 هجرية، أراد تحرير مدينة وهران من الاسبان، أعلن النفير ورفع صوت حي على الجهاد، أذن له الداي، فاجتمع المسلمون حوله، وجمع حوله العلماء والحفاظ كعادته، وبعد ملحمة عظيمة وبعد انهزام الاسبان، وافقوا على أن تسلم مدينة وهران إلى الدولة التركية الجزائرية، بجميع ما فيها من سلاح وما عليها من بناء، مثلما كانت عليه يوم خروج مصطفى أبي شلاغم سنة 1143 هجرية.

انتقل الباي مُحَمَّد الكبير لمدينة وهران هو وأهله وحاشيته، حيث اتخذها سكنا حتى وافاه الأجل ببلدة صبيح سنة 1213 هجرية، وهو في طريقه لمدينة الجزائر، دام حكمه عشرين

سنة كباي مستقل، وسبعة أعوام خليفة مفوضا، رحمه الله رحمة واسعة تليق بمقامه العلي الرفيع[1].

نقرأ ابن هطال رحلة مُحَمَّد الكبير الصفحة 51 وما بعدها:

« وقد كان ورد عليه أهل تاجموت، وأهل عين ماضي بعلمائهم وكبرائهم، يريدون خدمته كأحد الرعية، ويلزمون أنفسهم بشيء يرتضاه، حتى تأتي على جميعهم المنية، فقسط لكل واحدة منهما قسطا معتبرا يعطونه في كل عام إلى آخر الدهر، وجعل لهم شيئا معلوما ـ غير الذي التزموا على الأبد ـ يؤدونه إليه في هذه السنة خاصة فقبلوا ذلك كله، وشرعوا من حينهم في دفعه، فكانوا يدفعون الدراهم، والصياغة، والثياب، والخيل، ثم ارتحل من الدبداب[2] ونزل الحواجب قبالة تاجموت، ومسافة هذه الرحلة ثلاث ساعات وبهذه الدار عيون كبيرة، وماؤها عذب سائغ للشاربين، وتحته مزارع تسقى منه، وبينه وبين تاجموت ثلاث أميال، وفي هذه الدار دفع أهل تاجموت جميع قطيعتهم التي تحملوها، وشرع أهل عين ماضي في الدفع، ثم ارتحل ونزل أم الضلوع على ثلاث ساعات من الحواجب. وعندما وصل المنزل قدمت مشايخ بني الأغواط وعلماؤهم وبأيديهم كتاب صحيح البخاري[3] ـ رضي الله عنه ـ طالبين الأمان على أنفسهم وأهليهم، وهم مذعنون بالطاعة قابلون أن يكونوا رعية على أن يعطوا مائة خادم وخمسة آلاف سلطاني، ومائة ثوب وأربعة أفراس. فلما رأى حرصهم على هذا الأمر وتحملهم ورضاهم بذلك القدر قال لهم:

---

[1] راجع المجلة الافريقية السنة 1857 ميلادية: Notice sur le Bey d'Oran, Mohammed el Kebir. Gorguos.

[2] الدبداب هي المنطقة التي وقعت فيها معركة عين ماضي العظيمة هذا ما فهمته من الأحداث والحواجب أظن أنها منطقة الحاجب الآن.

[3] رفع كتاب صحيح البخاري يجددون عقيدتهم عقيدة أهل السنة والجماعة ويرفضون المشروع الماسوني الشيعي المجوسي.

أن أتيتم بما ذكرتم، ووفيتم بما وعدتم فلكم مني الأمان ـ وأي أمان ـ ثم كساهم كلهم، كما كانت عادته مع غيرهم، وزاد لكبيرهم منطقة[1] فائقة وحلة رائعة، وطلبوا منه أن يقيم في هذا الموضع حتى يدفعوا له جميع ما التزموه وانصرفوا.»

نقرأ ابن هطال رحلة محمد الكبير الصفحة 68 وما بعدها:

« ثم مضى حتى نزل الرشاق[2] وهو أسفل الوادي الذي ينزل من أم الضلوع وغاية سيره من بني الأغواط إلى الرشاق ثلاث ساعات، قاصدا عين ماضي. ولما نزل أتوه أهل تاجموت واستشاروه: هل يأتون له بالعطف في هذه الدار، أو حتى ينزل عليهم. فقال لهم: لا ننزل عليكم لأني أن نزلت عليكم أخف أن يضركم الجيش، فإن أردتم أن تدفعوا على أنفسكم هذه الكلفة فدلونا على منزل بعيد عنكم. وأما العلف فلا تحملوا أنفسكم بشيء. فقالوا: لا بد من ذلك. فحيث رأى حرصهم وعزمهم على ما أرادوا، أذن لهم في أن يأتوا بثلاثين جملا فقط، ولا يزيدون عليه شيئا، وأعطاهم الابل التي يحملونها عليها وأوصاهم أن يأتوا بذلك في المنزل الذي تعرفونه بعيدا عنكم فدعوا له وشكروا فضله وفعله، ونعتوا له منزلا يليق به قريبا من عين ماضي. وانصرفوا بالابل، وتركوا منه واحدا يكون دليلا على المنزل الذي نعتوه وعينوه. وبالغد ارتحل ونزل على أربع سوانح في موضع متوسط بين عين ماضي وأمسناج إلا أنه إلى تاجموت أقرب: يقال له أمسناج، وهو موضع منبسط، ذو مياه وعشب، إلا أن ماءه بعضه أفضل من بعض. ولما نزلت المحلة أهرعت الناس إلى تاجموت، منهم بائع ومنهم مشتر. ومنح معهم شواشه[3] يمنعون الناس ظلم أهل المدينة. ولقد حصل لأهل البلد ربح كبير، وفائدة عظيمة، حتى أنهم لوجدوا لنزل عليهم كل سنة بل كل شهر ولا يضرهم ما يدفعونه له بجبران ذلك بالربح، الذي

---

[1] ما يشد به الرجل وسطه.

[2] منطقة تسمى اليوم الرشق.

[3] رجال مكلفون بالأمن.

حصل لهم. فكانوا يشترون من المخازنية: الغنم ثمانية رؤوس بريال بوجه[1]، والبقر أربعة رؤوس بريال بوجه. ومع ذلك لم يدفعوا لهم دينارا ولا درهما، وإنما يدفعون لهم البرانيس والحياك، وربما دفعوا لهم من التمر، حتى أن الرجل منهم يأتي بالبرنوس الرديء، والحياك فيأخذ عدة رؤوس من البقر والغنم. وحيث رأى الناس لم تزل في قضاء حوائجها، ولم تستتم من مآربها أصبح مقيما ليقضوا غرضهم ويكملوا مرادهم، وركب هو يتصيد كما كانت عادته في كل يوم منذ وصل أماكن الصيد، وخصوصا الحبارى، التي هي أعظم مصيده وأفضل مرغوبه وتفضيل هذا الصنف من الصيد بلغ أعنان السماء، وأكثر من حديثه العلماء والأدباء.»

نقرأ ابن هطال رحلة محمد الكبير الصفحة 72 وما بعدها:

« ثم أصبح مرتحلا قاصدا عين ماضي، فوصلها في ثلاث ساعات، فلما رأوا أهلها خيله قد طلعت، وبنوده قد أقبلت، فزعت قلوبهم، وطاشت عقولهم، وغلقوا الديار، وعلوا الأسوار وهم مصرخون[2]، وبالطاعة وبطلب الشريعة معلنون. فنزلت المحلة بقرب السور وبنحو المائة ذراع. وكان ماؤها الذي ينزل من صدر الجبل ويدخل المدينة شاقا المحلة داخلا من طرفها مما يلي الجبل، وجاوزه إلى المدينة على عادته. ثم أن أهل المدينة مكثوا ساعة، لا يرى شخصهم ولا يتبين خبرهم وتحير بعض الناس في أمرهم، حيث رآهم لم يخرجوا خوفا أن يتغير السلطان عليهم، فيوقع بهم، وبعضهم فارح لتأخرهم، يريد أن يكون لهم نصيب في غنيمتهم كاللواتي قبلهم. فبينما الناس مترددون في أمرهم، شاكون في قدومهم، وإذا بهم خرجوا بنسائهم وعلمائهم، مقدمون النساء أمامهم، وتلك كانت عادتهم. فلما دخلوا إلى المحلة أمر السلطان من أوقف النساء بمكان بعيد من فسطاطه مستنكبين عن بساطه. وأذن للعلماء في التقدم، فتقدموا وسلموا عليه، وسألوه أن يرفق بهم ويشفق

[1] عملة جزائرية قديمة تسمى البوجو يساوي فرنكا وستين سنتيم.

[2] تركنا ألفاظ الكاتب كما هي رغم مخالفتها قواعد اللغة والنحو أحيانا.

من حالهم وأن يعفيهم من القطيعة الأولى التي فرضها عليهم، فإنهم لم يقدرون عليها ولا طاقة لهم بدفعها. فلما سمع كلامهم واستقصى خبرهم أدركته الحنانة والشفقة عليهم، وجعل لهم لزمة[1] أقل من الأولى، وأعطى لنسائهم سوار فضة لكل امرأة منهن. ورجعوا فدخلوا مدينتهم فرحين مستبشرين بما أنعم عليهم السلطان واقتضاء فضله من تخفيف اللزمة عنهم والأمان. ويوم نزوله على عين ماضي قدم أولاد يعقوب القبالة بإبلهم وخيلهم التي اشترطها عليهم، فقبلها منهم. وبالند أصبحت أهل عين ماضي يدفعون قطيعتهم من الخيل والخدام والدراهم، فدفعوا جزءا وكملوا الباقي في اليوم الذي بعده. وتعذر عليهم طرف منها. فتفضل عليهم بترك خادم وفرس.

وحيث رأوا المحلة مقيمة بساحتهم، قالوا: فهؤلاء لقد قصرنا في ضيافتهم، فأخرجوا مائة حمل من الشعير علف للمحلة[2] ثم أقام بها يوم الجمعة منتظرا لقدوم بني الأغواط باللزمة. فقدموا في ذلك اليوم، وقد أتوا ببعضها، فدفعوه. وذلك خمسة آلاف ريال بوجه وأربعون خادما. ورجعوا لإكمال الستين خادما الباقية من المائة، والمائتين جملا وخمسين جملا. وأوعدوه بأنهم سيبعثون أربعة من الخيل التي سرقها المخاليف تصله في منزله هذا، وما بقي من اللزمة، فلم يقدروا على لحوقه في الطريق بها، وإنما يحملونها جملة إلى معسكر وإن قدرنا اللحوق فتبارك الله.

فهم كذلك وإذا بخيل بني ميزاب، قد لحقوا إلى المحلة وتركوا عسكرهم نازلا على بني الأغواط طامعين أن ينقض سيدنا عهده مع بني الأغواط، ويخرجهم من بلادهم ويسلمها لبني ميزاب[3] فلم يلتفت لكلامهم، ولم يسمع لمقالهم. فلما يئسوا منه وتحققوا أنه غير منقض

---

[1] من الضرائب المعروفة في العهد العثماني اللزمة والخدمة.

[2] المحلة إقامة الباي في معسكره ويقصد هنا دواب المحلة من خيول وجمال.

[3] سنة 1752 ميلادية يقع تحالف بين أولاد يعقوب وبني ميزاب من أجل الهجوم على مدينة الأغواط واحتلالها وقعت معركة مَقْدَرْ الْدَّهِيمْ حسمها فرسان النويرات من

عهد بني الأغواط، سألوا منه أن يجعل بينهم وبينهم صلحا، ويأمرهم أن يطلقوا من كان محبوسا عندهم من بني ميزاب فكتب لبني الأغواط كتابا: « أن أطلقوا بني ميزاب الذين حبستم ولا نسرح أحدا من أولادكم، إلا إذا أتاني كتاب من قبل بني ميزاب: وأنكم سرحتم أولادهم. وأما الصلح فلا أحملكم عليه فأنتم أعلم بما يصلح بكم والسلام. »

وفي هذه الأيام التي كان مقيما على عين ماضي، شرع في إعطاء الدراهم والدنانير لوجوه قومه وقواد عسكره ومقدمي قبائله، فلم يبق منهم أحدا إلا أعطاه، ولا صاحب خدمة إلا واساه، ولا ذو نجدة إلا حاباه. ولما فرغ من العطاء الذي لا رجع إليه، ولا منفعة له فيه سوى الثناء عليه، أخذ يعطي للقبائل على وجه الغرض المرجو ثوابه ـ إن شاء الله ـ يوم الجزاء والعرض. فأعطى لكل قبيلة بقدر حاجتها، ولكل طائفة على حسب أهلها فأوصلهم معروفه، جملة وتفصيلا، وعمهم فضله، حقيرا وجليلا، فأوجب تخليد ذكره بذلك ثناء جميلا.»

زادت الأمور تعقيدا داخل مدينة الأغواط، وظهرت طبقة من المرابطين، تعلن العداء وتحرض على الفتن ضد الحكم العثماني، وأول فتنة وقعت بين الحيين الأحلاف وأولاد سيرغين حول قسمة الماء، كسبب ظاهر. الأحلاف وقفوا مع السايح بن زعنون الرجل الذي عينه الباي حاكما على المدينة أولاد سيرغين، ناصبوه العداء من أجل ذلك الباي مُحَمَّد الكبير يعود أدراجه، ويزحف على مدينة الأغواط من جديد، وجد من ولاه المدينة قد قام بالواجب وأكثر، وجده أخضع الأحلاف لسلطته، وهدَّ مساكن أولاد سيرغين وشردهم ورحلهم إلى تاجموت عقابا لهم، انسحب الباي وجيشه، أولاد سيرغين لم يطل

رحمان وانهزم التحالف والشاهد على المعركة ليومنا هذا بئر يسميه السكان حاسي الميزابي.

مكوثهم بناحية تاجموت، انتظروا ستة أشهر بعد مغادرة الباي للمدينة، وتسللوا راجعين لبيوتهم التي تركوها هذه الأحداث، تقع سنة 1786 ميلادية.

العودة الثانية للأغواط الباي لم يستثني قصر عين ماضي، ما وصله وجد السيد أحمد التجاني قد تحصن بالقصر، ورفع أسواره الباي، حاصر القصر لمدة شهرين كاملين وكعقاب أمر بتجريف الحقول وعاد راجعا. الباي عثمان ابنه أخذ الدرس من الحصار الأول وصل قصر عين ماضي زمن الحصاد وحاصره، ومنع ساكنيه من جني حصادهم عرف سيد القصر السيد أحمد التجاني، وهو رجل حكيم وصاحب رأي، أن الدخول في المعركة انتحار، فقرر التفاوض مع الباي عثمان على دفع الضريبة والدخول في السلم تبين للسيد أن بقاؤه غير مجدي، فقرر أن يترك القصر، أخذ طريقه إلى مدينة بوسمغون ومنها انتقل إلى مدينة فاس المغربية، مكث بها حتى لقي ربه سنة 1814 ميلادية، فقط لأهمية الموضوع وبالرغم مما سبق ذكره، نقول ونفصل أن هذه السنين التي حوصر فيها قصر عين ماضي، من بايات الدولة العثمانية، أجج الصراع وأوصله لحالة شبه عداء مستمر بين سكان عين ماضي والدولة العثمانية، لأن سكان عين ماضي قلوبهم مع السيد أحمد التجاني، وعيونهم على سلطان المغرب.

تقع حوادث مرعبة في مدينة الأغواط، ويقع الاقتتال الداخلي للأسباب التي ذكرناها ويُقتل السايح بن زعنون، بعد تفاقم الحرب النفسية التي قادها الدجالون، بعد هذا الهرج والمرج، وجد الأحلاف أنفسهم بلا قائد ولا رئيس، السايح بن زعنون لا عقب له أخوه معمر له ولدان صغيران قاصران، هما من سيصنع تاريخ الأغواط والصحراء مستقبلا بالتشاور، تم الاتفاق بعد زمن على أن يكون أحمد بن سالم خليفة، يعهد له بالعمل السياسي، وأخوه يحي يعهد إليه بالتحضير، واعلان الجهاد. هذا ما قامت به عائلة بن سالم، لأن الجميع عرف أن قدوم الصليبين مسألة وقت، بعد ظهور حليفهم الماسوني قويا وقدرته على إدارة الحرب النفسية، ضد المسلمين تحطيم الارادة والعزيمة والتبشير بقدوم

المحتل، مختبر الاسبان في وهران وقصر الدسائس في قصر السلطان المغربي، بدأت تؤتي أكلها والثمار هي ناضجة، تنتظر الفرنسي ليقبل ويقطفها.

وحتى نحترم السياق التاريخي نذكر بأهم الحملات التي قادها الحكم العثماني على قصر عين ماضي، مع التنبيه أن هذه الحملات لا تخص عين ماضي فقط، لأن مشكلة الحكم العثماني في الجزائر هو عدم بسط سيطرته على مناطق الجنوب الجزائري، وما وقع لعين ماضي وقع لكل المناطق المتمردة على السلطة العثمانية.

حملة عثمان باي ابن محمد الكبير 1201 هجرية ـ 1787 ميلادية: طالب عثمان باي بالوفاء بالعهد الذي أعطوه لوالده ودفع الضريبة المستحقة، وهي زهيدة التي توافق عليها والده محمد الكبير مع سكان القصر، تم التوافق على معاودة الصلح، ونبذ الاختلاف.

هاجر السيد أحمد التجاني هو طلبته لقصر بوسمغون ليس هربا من العثمانيين كما يدعي البعض، بل لأن الوضع داخل الأغواط وخارجها ووقوع الفتن بأثر الدجاجلة، جعل البقاء مستحيلا ثم هاجر إلى فاس المغربية، فرحب به السلطان مولاي سليمان، وأسكنه قصرا مرتبا[1].

حملة الباي حسن 1236 هجرية ـ 1820 ميلادية: واجه قصر عين ماضي لمدة شهر كامل ولم يقاومه السكان، وتم التوافق على أن يقدم له السكان مبلغا ماليا قدره 350 ألف فرنك، ما قبض المال حتى قصف القصر، ولم يستطع اقتحامه، وعاد راجعا إلى وهران.

حملة باي التيطري مصطفى بومرزاق 1238 هجرية ـ 1822 ميلادية: شعرت السلطة العثمانية بالخطر المحدق الذي يتهدد الجزائر، وخاصة بعد ظهور الحلف الماسوني الصليبي قويا، وخروجه من مرحلة الحرب النفسية، التي قادها المرجفون والشعراء إلى العمل الميداني الحاسم الذي بدأ يهيئ الظروف، لقدوم النصارى الذين بشروا بهم، وأهم المؤشرات، ما يعرف بالحرب التي أعلنها الدرقاوي.

---

[1] يظهر لي والله أعلم أن الذهاب إلى المغرب وجعل الشيخ نفسه طرفا في معادلة سياسية غير محسوبة العواقب من الأخطاء وكل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون.

حملة الباي حسن الثانية 1241 هجرية ـ 1825 ميلادية: عاود الباي حصار عين ماضي للمرة الثانية، حاصر القصر لمدة شهر، وانتهى الأمر بالتفاوض وتوافق على دفع ضريبة سنوية تقدر بمائتين ريال، وأن يدفعوا للباي ألفي ريال لفك الحصار. سنة 1825 ميلادية فارقة في حياة أهل عين ماضي، التمرد على ضريبة مقدارها 200 ريال مبلغ زهيد، وبعد سنوات معدودة الحلف الماسوني يدخل فرنسا، كلها أيام ويأتيهم الأمير عبد القادر، يومها سيعرفون ما هو الحصار ؟ وما هي الضريبة ؟ ويشاهدون قتل أبنائهم في كل الأحوال، الحكم العثماني كان رحمة ورغم أن الدولة العثمانية عاشت أصعب مراحلها التاريخية، عاملت الجميع باللطف والاحسان في حدود ما تسمح به السياسة الشرعية بين الراعي والرعية، يقول مولانا في محكم تنزيله: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾ الاسراء الآية: 16.

الثقافة المجوسية الشعوبية أنشأت ميراثا خرافيا من نتائجه تشكل عقد نفسية لدى المسلم، غيرت نظرته للعالم فأضحى كائن غير متجانس مع القوانين الأولية المتحكمة في العالم، فقد قدرته على الرؤية الشمولية التي تتجانس مع السنن الكونية، هذا المسلم المتلقي توهم أن الأصل في الأشياء الخوارق، وخرق نظام الطبيعة، هو ينبهر لما يشاهد مشعوذا يخرج من فمه سكينا، ولا ينبهر بشخص جعل حياته معلما يعلم الناس.

يصاب بالذهول لما يشاهد حركة هنا وهناك، لا يذهل وهو يشاهد الشمس تشرق وتغرب في نظام وانتظام كوني باهر، عقل مريض ومرضه وباء مزمن وراثي، ينتقل بالثقافة من جيل إلى جيل، لا يشاهد في الشخص علمه وانسجامه مع الحياة، يشاهد فيه العمل الخارق المبهم غير المنسجم مع القوانين الكلية للكون. الحديث عن الخوارق والكشوف في جل الأحوال لا يخرج عن قول الإشاعة، واجه الرسول ﷺ الإشاعة التي راجت في المدينة يوم أن انكسفت الشمس، توافق كسوفها مع موت إبراهيم ابن الرسول ﷺ، وقد كانوا في الجاهلية يعتقدون أنها تنكسف لموت عظيم أو ولادة عظيم، عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ : خَسَفَتِ الشَّمْسُ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالنَّاسِ فَقَامَ فَأَطَالَ القِيَامَ، ثُمَّ رَكَعَ فَأَطَالَ الرُّكُوعَ، ثُمَّ قَامَ فَأَطَالَ القِيَامَ وَهُوَ دُونَ القِيَامِ الأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ فَأَطَالَ الرُّكُوعَ وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الأَوَّلِ، ثُمَّ سَجَدَ فَأَطَالَ السُّجُودَ، ثُمَّ فَعَلَ فِي الرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ مِثْلَ مَا فَعَلَ فِي الأُولَى، ثُمَّ انْصَرَفَ وَقَدْ انْجَلَتِ الشَّمْسُ، فَخَطَبَ النَّاسَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ : إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، لاَ يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ، فَادْعُوا اللَّهَ، وَكَبِّرُوا وَصَلُّوا وَتَصَدَّقُوا صحيح البخاري. بين حياته ومماته عاش السيد أحمد التجاني معلما يعلم الناس دينهم، لم يزد على ذلك ولم ينقص هذه هي المعجزة التي ساد بها في زمانه وبعد مماته.

السيد أحمد[1] ولد سنة 1150 هجرية 1737 ميلادية في قصر عين ماضي، والده السيد مُحَمَّد بن المختار عرف في زمانه بشدة ذكائه ونباهته وكثرة علمه، من عرفه شهد بتقواه ومخافته لله، كان على عادة بعض العرب في زمانه يغطي وجهه ولا يظهر إلا عيناه، هذا الفعل عادة يفعله من يغلبه حياؤه، ويكون الحياء عنده فطرة. لا يرفع اللثام عن وجهه إلا لما يستقبل القبلة ليؤدي صلاته، هذا السلوك لا يميزه عن عباد الله، هو نفسه كان من عباد الله الواقفين عند حدوده وفرائضه، إذا رأيته في مجلس أو خارجه، إذا كنت لا تعرفه لا تستطيع أن تميزه، هو خلق من خلق الله.

نقرأ في كتاب سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول لمؤلفه سيدي علي حشلاف:

« قطب دائرة الأولياء وخاتم المحققين الأتقياء أبو العباس أحمد بن مُحَمَّد المكنى التجاني صاحب عين ماضي ودفين محروسة فاس كان رضي الله عنه ولد بعين ماضي في سنة 1150 هجرية وتوفي بمحروسة سنة 1230 هجرية ودفن بها وقد أرخت ازدياده ووفاته ببيتين وهما:

قد برزت طلعة التجاني في العالم هبت نسماته في تاريخ نشــق

وقد حباه مولاه للعلا ارتفعا لحضرة القدس في التاريخ كم عشق»[2]

السيد أحمد لحقه اسم التجاني كما لحق من سبقه من الآباء والأجداد، وهو ليس لقب عائلي خاص، هو اسم تعود أهل القصر على إطلاقه على فئة داخل القصر لها صفات ومكانة خاصة في العلم ومراتبه، في هذا العهد كان الناس يتمايزون بالعلم والصلاح. عائلة السيد أحمد من أولاد الشيخ سيدي مُحَمَّد، عاش السيد أحمد بداية حياته في عين

[1] شخصية فارقة في التاريخ تعرض لتشويه منهج، هذه السيرة العطرة مصدرها الكناش وهو كتاب أملاه أو كتبه في نهاية حياته، لما علم أن هناك مؤامرة تحاك ضده في المغرب وأن هناك أيادي تريد أن تحوله لرجل خوارق، هذا الكناش ترجمه ونشره في المجلة الإفريقية L ـ Arnaud قمت بترجمته ترجمة علمية ونقلته للغة العربية وأودعته هذا الفصل.

[2] راجع كتاب سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول الصفحة: 128.

ماضي، طفل هادئ بسيط سعيد بين أهله مثله مثل أطفال المسلمين، بدأ بحفظ القرآن الكريم علمه والده مخافة الله، تولى تعليمه شيوخ علم وأدب جم وخلق رفيع.
قبل أن ينهل من علمهم نهل من مناقبهم وحسن خلقهم تخلق بآدابهم، السيد أحمد جلس تلميذا أمام الشيخ سيدي مُحَمَّد بن حمو التجاني توفي سنة 1126 هجرية 1749 ميلادية، هي سنوات قليلة معدودة عاشها معه السيد أحمد، سيدي مُحَمَّد بن حمو التجاني هو تلميذ الشيخ سيدي عيسى بوعكاز التجاني، في زمانه كان قمة سامقة في العلوم والمعارف. ما وصل السيد أحمد السبع سنوات حفظ كتاب الله وشرع في حفظ أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام، بدأت معارفه تتسع وتتنوع، السيد أحمد يجد له معلما صاحب كفاءة وعلم ورسوخ في العلوم وفروعها، هو الشيخ سيدي المبروك بن بوعافية التجاني، السيد أحمد ولم يتخطى مرحلة الطفولة، علم علوم الدين وحاز رتبة القاضي، يقضي للناس ويفتيهم في الحلال والحرام، إلى غاية الآن السيد أحمد متعلم مقلد يتبع شيوخ العلم ويأخذ من علمهم كغيره من طلبة العلم.
ما أنهى هذه المرحلة حتى دخل في المرحلة الثانية، هذه عند المتعلمين لها مقدمة ونتيجة، مقدمتها علم التوحيد معرفة الله ونتيجتها علم التصوف، ما ميز السيد أحمد عن غيره من طلبة العلم أنه كان لا يكتفي بمعرفة العلم، بل يجريه في سلوكه ويتعبد به الله تبارك وتعالى.
أعلن خضوعه وطاعته لخالقه ولم يخضع لأحد غيره، تخلق بخلق النبي عليه الصلاة والسلام، في كل شيء في التواضع والرحمة والشفقة على الآخرين هكذا كان ولم يتغير علامة فارقة في سلوكه إذا تعلم شيء عمل به ولا يغادره، ما بلغ سن البلوغ زوجه والده ليعصمه من الوقوع في الخطأ.
لما بلغ السيد أحمد واحد وعشرين سنة، توفي والده عام الطاعون متأثرا بهذا الوباء سنة 1166 هجرية 1753 ميلادية، والدة السيد أحمد السيدة عائشة بنت سيدي مُحَمَّد بن السنوسي التجاني، توفيت يوم وفاة زوجها جرفتها سيول.
السيد أحمد في يوم واحد يفقد أعز ما يملك الإنسان والديه، بعد وفاة والده بقي زمنا في عين ماضي يتمم دراسته، سنة 1171 هجرية 1758 ميلادية، يترك قصر عين ماضي

ويأخذ طريقه نحو مدينة فاس المغربية، يومها كانت مدينة علم وعلماء، قضى أيامه ولياليه معهم يعرض عليهم المسائل العالقة في ذهنه، والمستعصية على فهمه.

نستطيع أن نقول أنه في هذه المرحلة بلغ مراتب العلماء، لم يمكث طويلا في مدينة فاس، إلا أنها كانت أياما عظيمة في حياته، السيد أحمد يعود لعين ماضي، ما وصلها حتى أخذ طريقه لزيارة سيدي الشيخ بن الدين من أحفاد أولاد سيدي الشيخ في مدينته لبيض سيدي الشيخ، بقي في لبيض سيدي الشيخ خمس سنوات عالما ومتعلما وناشرا لعلمه وفقهه، عاد لقصر عين ماضي، زمن قليل وأخذ طريقه نحو تلمسان هذا يقع سنة 1181 هجرية 1768 ميلادية، بقي خمس سنوات في تلمسان عرف الناس علمه وقدره ومقداره، بدأ الناس يتوافدون لسماع كلامه، أضحى ظاهرة تشد إليه الرحال الناس يطلبون علمه علم عميق أصيل ثابت بسيط قريب من الأفهام، لا يجد المتلقي صعوبة في فهمه وحذقه، سنة 1186 هجرية 1773 ميلادية عزم الحج والسفر لبيت الله الحرام، كان يبتغي معرفة الله الخالصة، وصل مكة اجتمع حوله الناس انبهروا لعلمه وحكمته، علم صاف بسيط يلج القلب يحركه، سأله علماء الحجاز ومن أتاها من علماء الأمصار والأقطار من العرب والعجم : من علمك هذا العلم ومن هو شيخك ؟ أجابهم : ما أعرفه لا يأتيني من شيخ واحد هو علم أنتقيه من كل شيخ ألقاه.

رفض أن يكون مقلدا أراد أن يكون مجددا، ويأتيه التجديد من الانتقاء علمه منقى جمع الجيد وسحب الرديء جعل نفس ناقدا منتقدا، لا يرضى بما حصله حتى ينقحه ويمحصه أخذ منهج نبي الله إبراهيم عليه السلام ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام الآية 78 وقوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ البقرة الآية 260 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾. هذا علم لا يعرفه إلا العارفون الراسخون في العلم، تابع الطرق الصوفية المعهودة في زمانه، تعرف على الطريقة القادرية

يومها كانت سيدة، تركها ولم ينضوي في سياقاتها التعبدية، لأنها تقادمت ودخلت عليها مشارب مختلفة ومتنوعة، تحولت من طريق كشف وهداية إلى مسالك وطرائق قددا، ينطبق عليها قوله عز وجل : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴾ وجاءها التغيير من الفكر الشيعي المجوسي، فأضحى لا فرق في المعجزات والخوارق بين الشيخ عبد القادر الجيلاني، وبين أسطورة مهدي الشيعة المنتظر صاحب الزمان المغيب في سرداب سامراء.

السيد أحمد تعرف على مقدم الطريقة القادرية سيدي أحمد بن حسن ، ثم تعرف على مقدم الطريقة الناصرية سيدي مُحَّد بن عبد الله، ثم تعرف على شيوخ سيدي أحمد القمري، سيدي أحمد التاواشي هؤلاء من تازة من المملكة المغربية. تعرف على سيدي محمود الكردي من القاهرة، وكذلك ابن عبد الله الهندي من مكة كل هؤلاء عرفهم في مكة، جعل سبعة أيام خالصة للعبادة ثم ارتحل إلى المدينة المنورة، تعرف على شيخ ذائع الصيت هو سيدي مُحَّد بن عبد الكريم، يعرف بالشيخ الصمام، طلب من السيد أحمد أن يتعبد ثلاث أيام كاملة، وينزوي عن الناس.

دخول السيد أحمد للمدينة كان مختلفا عن دخوله لمكة، حضي باحترام وتقدير عظيم ما انتهى الحجاج من زيارة المدينة المنورة أخذوا طريق العودة، وكان عليهم المرور بالقاهرة السيد أحمد كان معهم، قرر علماء زمانه امتحانه وهذه عادة عند علماء الإسلام، هي تتكرر لما يبرز رجل بصفات غير معهودة، كما حصل مع سيدنا البخاري وامتحانه.

قرر العلماء أن يمتحن السيد أحمد في القاهرة، يومها هي عاصمة العلم، اجتمع عليه علماء العلم كلهم وأمتحن في كل المسائل، قدر الله أن يظهر فيه آية من آيات خلقه، بهر من حضر بعلمه وكلامه وحكمته وحسن أدبه، ما انتهى الامتحان حتى قام كبراء العلماء كبروا ورفعوا الصوت مدحا وشكرا لله، أن جعل في أمة مُحَّد مثل هذا الرجل.

لما أراد أن يأخذ طريق الغرب ليصل أهله، تقدم منه الشيخ الجليل المهاب الشيخ الكردي، طلب منه أن يستقل بنفسه، ويجعل له مدرسة مستقلة ينتفع بها المسلمون في هذا الزمن كانت الطرق الصوفية مدارس فكرية، لا تخرج عن نسق الإسلام والثوابت

مدارس تخدم المسلمين، وتعنى بحياتهم الدينية والاجتماعية، وتعبر عن نفسها بذكر يجمعها ويظهر منهجها، ويجلي مقاصدها.

السيد أحمد ترك مصر مر بتونس ثم ذهب لتلمسان، توقف بمدينة فاس ليلقى مولاي إدريس، هذا جده إدريس بن عبد الله الهاشمي القُرشي، ولد سنة 127 هجرية 743 ميلادية، توفي 177 هجرية 793 ميلادية هو إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، أول من دخل المغرب من الطالبيين، أسس في المغرب عام 172 هجرية الدولة الإدريسية، تعتبر ثاني دولة إسلامية مستقلة عن الخلافة الإسلامية في المغرب الأقصى، بعد دولة الأمويين في الأندلس.

هذا اللقاء يقع بتاريخ 1191 هجرية 1777 ميلادية، في هذه المرحلة كان السيد أحمد أقرب ما يكون للعبادة والذكر، ترك فاس وعاد لمدينة تلمسان 1196 هجرية 1782 ميلادية، زار بلدان الصحراء، زار مدينة بوسمغون ومنطقة توات ثم عاد لمدينة بوسمغون. هنا بدأ الرجل يعرف ويأتيه الناس من كل مكان يتزاحمون على مجلسه يطلبون منه أن يكون شيخا عليهم، يهتدون بعلمه وورعه، اختار منهم من يستحق صحبة العلم ورفقته، بدأ يشيد صرحا عظيما دعائمه أعز وأطول، بدأ السيد أحمد يعرض مدرسته بأدب وخلق جم، لم يجعل نفسه منافسا لأحد، يبحث عن الحق وأين وجده يأخذ به، جعل عنوان وباب مدرسته كيف تستقم مع الله ؟ أجاب عن هذا السؤال : يكون ذلك بإتباع الكتاب والسنة إجابة بسيطة واضحة لا لبس فيها ولا تعقيد، هذه الدعوة والاستقامة جهر بها سنة 1196 هجرية، بقي في بوسمغون حتى سنة 1200 هجرية 1786 ميلادية، هذه السنوات الأربع جعلها لتنظيم المدرسة وتثبيت قواعدها وإرساء معالمها.

سنة 1213 ترك الصحراء ومدنها، واتجه إلى مدينة فاس يوم 6 ربيع الثاني 1213 الموافق 17 سبتمبر 1798 ميلادية، هذه المرة هو أب يحمل معه ابنه مُحَّمد الكبير، في مكوثه هذا وجد فرصة ليملي سيرة حياته، يكتبها عنه مباشرة شخص يسمى سيدي علي الحرازيمي الفاسي، السيد أحمد عنونه الكناش، هذا اللفظ في زمن السيد أحمد يعني

عند المتعلمين الدفتر، كما نقول نحن الآن دفتر الذكريات، انتهى من إملائه في العشرية الثانية من شهر ذي القعدة 1214 هجرية 10 أفريل 1799 ميلادية.
الكناش ترجم للغة الفرنسية من قبل L . Arnaud ونشره في المجلة الإفريقية في السنوات الأولى لاحتلال الجزائر غير بعيد عن وفاة السيد أحمد سنة 1815 هو مصدري في هذا البحث، وأنا لا أمتلك النسخة الأصلية العربية، السيد أحمد التجاني رجل عربي قوي شديد البنية، ما تقترب منه حتى ترى سمرة مزجت بتقاطعات ذهبية بالكاد تراه، متوسط القامة ملتحي، شعره كث و مرسل إذا تكلم أسمع، بليغ اللسان يخفض عيناه إذا كلم غيره من شدة حيائه، إذا مشى يميل بجسمه للأمام وكأنه ينوي الركوع.
يصرح ناقله للفرنسية و من ترجمه[1] L. Arnaud أن هذا الكناش وجده بمدينة الأغواط، وأنه قضي يومين في كتابته، ويتأسف لأنه لم يوثقه كتابة وتصويرا، ويصرح أن

[1] مدرستان أرخت لحياة السيد أحمد التجاني: المدرسة الأولى هي المغربية ممثلة ليست في أتباع ومريدين بل في كتبة ومؤلفين، نظريتهم تخدم سياستهم يقولون أن مؤسس الطريقة التجانية لقي العداء من الأتراك، وهو هرب إليهم، ومات عندهم، ولتسويق هذه البضاعة يجعلون حياة المؤسس والأبناء من بعده حياة كرامات وخوارق، ولما يُسألوا: يقولون الابن الأكبر للمؤسس قتله الأتراك، والأصل الذي لا يختلف عليه عاقلان، أنه قاتل الأتراك ومنطق الدولة، أن من يخرج عنها تقاتله، ولوكان سيدنا الحسين رضي الله عنه، وأنه حادث واقع في التاريخ لا غير. المدرسة الثانية الماسونية العالمية تعتبر وجود المؤسس لا حدث، بالكاد يعرفون به، ولما يعرفوه يختزلونه في طقوس، وحركات يقوم بها أتباع، وما تكتب اسم المؤسس على المواقع تظهر لك مواقع تجزم بكفر وضلال المؤسس وأتباعه، ويزورن التاريخ ويقولون هم عملاء فرنسا وهذا كذب، لأن السياسة والحرب مد وجزر لا يعرفه إلا من فقه فلسفة التاريخ، هؤلاء يعرضون عليك البديل هو الأمير عبد القادر، الرمز والبطل والمجاهد المقدس. المدرسة التي نريدها هي العلمية، تظهر أن

مالكه هو سي الشيخ بن الدين، رئيس مجلس المدينة، المترجم يذكر السيد M. Ricot لمساعدته وإعطائه معلومات تضاف للبحث، ثم ينقل شهادات موثقة من رجال كبار السن، عرفوا أبناء السيد التجاني، وسمعوا منهم مشافهة بعض من سيرة السيد أحمد غير موجودة في الكناش ننقل هذه الروايات:

في مدينة بوسمغون تعرف السيد أحمد التجاني على سي الحاج علي الحرازيمي الفاسي أقنع الشيخ بعدم البقاء في الصحراء، وطلب منه الانتقال إلى مدينة فاس، لأنها مدينة علم وعلماء ومهيأة لتستقطب أفكاره، أهل فاس يعرفون الشيخ، ويقدرون مكانته العلمية.

ما وصل السيد أحمد مدينة فاس حتى وجد عند سكانها ما كان يبتغي فقدموه وأكرموه وأنزلوه المنزلة التي يستحقها، السلطان مولاي سليمان سلطان المغرب رحب بقدومه ومنحه منزلا جميلا يسكنه هو وعائلته، يسمى حوش المرايات، يعني المنزل ذو الفناء الكبير الذي تكثر فيه المرايا، سكنه الشيخ وعائلته وجعل خدمه من ذوي البشرة السمراء، هو يحبهم لخلقهم وسمو نفوسهم وصدقهم.

تكفل بنشر مبادئ مدرسته كل من سيدي علي الحرازيمي و سي مُحَمَّد بن المشري السايحي، أخذوا معرفته ونظريته في العرفان ورؤيته الصوفية، وشرعوا في تدوينها. تقول الرواية الشفوية أن السيد أحمد التجاني غضب من فعلهما، وأجبرهم على حرق ما كتبوه، وسبب الغضب كما تروي الرواية الشفوية، أنه كان ينتظر الإذن بإعلان ونشر طريقته، هذا التبرير لا يستقيم مع أبسط المفاهيم الشرعية، متى كان العالم ينتظر الإذن

مهندس احتلال الجزائر كان من داخل الوطن، والحلف الماسوني الصليبي المبشر بقدوم الصليبين، متجذر في الثقافة والتاريخ، ومن أسباب احتلال الجزائر دعوة السيد أحمد التجاني التي أرعبتهم من أجل ذلك، قمنا بترجمة الكناش للمؤسس، وهو حاكم على صاحبه يصرح ناقله للفرنسية و من ترجمه Arnaud أن هذا الكناش وجده بمدينة الأغواط، وأنه قضي يومين في كتابته، ويتأسف لأنه لم يوثقه كتابة وتصويرا، من أجل ذلك نعتبره أرضية، وبداية لكل كتابة تاريخية موثقة.

ليعلن ويعلم علمه للناس، البعض لم يقبل هذه الرواية، وقال أن الشيخ خاف أن ينافسه هؤلاء وغار منهم، هذا كلام رديء لا يصح، الأصل أن العالم يعتز ويفتخر إذا رأى تلميذ علمه أحسن علمه وزاد عليه، الأمر ليس هكذا والله أعلم، بعد هذا الزمن الطويل من وقوع الحادثة نستطيع أن نقدم التفسير الأقرب إلى الصواب.
لما كان الشيخ في بوسمغون، ينشر دعوته التصحيحية التي باركها علماء الإسلام في الحرمين الشريفين ومصر، ولما أثبت جدارته العلمية، يأتيه سيدي علي الحرازيمي الفاسي ليطلب منه الذهاب للمغرب، هذا الفعل لم يأتي هكذا، والله وحده أعلم بما في النفوس والظاهر أن الشيخ غفل عنه، سلاطين المغرب متمردون عن الخلافة العثمانية، رفضوا حكمها وكانوا عونا لأعدائها، المملكة تناصر الفكر الصوفي المتلبس بالتشيع المجوسي وتحارب الفكر الإسلامي الأصيل، لذلك كانت ومازالت مرتعا للفكر الصوفي المنحرف تلبسه، لتنشر البدع والضلالات بين المسلمين. جاءها الهلع من دعوة السيد أحمد التجاني، والدليل على ذلك أن فرنسا أول ما حلت بالجزائر كان من أولوياتها تحطيم ميراث الشيخ أحمد التجاني، لذلك أوكلت للأمير عبد القادر أن يقوم بهذه المهمة بعدما نجح في مهمته الأولى، وهي القضاء على دعوة السيد موسى بن حسن.
أكملت فرنسا مهمتها لما قضت على ميراث الشيخ أحمد التجاني بواسطة جواسيسها واختراق الزوايا بالعملاء، لم تبقي لنا ورقة نطمئن ونقول الشيخ تركها، تمكننا من القراءة العلمية الصادقة لفكره، بعد ذلك تم اختراق ميراث الشيخ من قبل أشخاص كان همهم جعل الشيخ أحمد التجاني رجل خوارق، ولم يكن رضي الله عنه إلا صاحب علم يعلم الناس.
حدث أمر غريب بعد وفاة السيد أحمد التجاني، يظهر دعاة يدعون أنهم يحملون رسالته ويدعون لطريقته، ويحكون حكاية كما يقول أهل الحديث لا تصح لا سندا ولا متنا وهي حكاية الفتح، أن الشيخ جاءه الرسول يقظة وأجاز له نشر طريقته، هذا من عبث الرواة، لأن قبول هذه الرواية الموضوعة، تظهر الشيخ فاقد لأبسط مبادئ المعرفة يقول عز من قائل في محكم التنزيل: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ الآية: 30 و 31.

الأيام الأولى من شهر جمادى الثانية سنة 1213 هجرية 10 أفريل 1799 ميلادية سيدي علي الحرازيمي بمساعدة سي مُحَمَّد بن المشري، تم الشروع في كتابة الكناش، تم الانتهاء منه في العشرية الثانية من شهر ذو القعدة 1214 هجرية 10 أفريل 1799 ميلادية، هذا الكناش ختمه السيد التجاني ليثبت صدقه. السيد أحمد عرف أن هناك أيادي ترد أن تعبث بميراثه العلمي، وفهم أن استقدامه لمدينة فاس، لم يكن حبا في الله ولا في أوليائه الصالحين، بل هناك أغراض دنيوية وسياسية، تحاول تغيير المشهد ليخدمها، يدري الشيخ أو لا يدري، أخذت الدولة العثمانية، تنظر إليه بالشك والريبة هو يسكن عند أعدائها، النيات تصدق في العبادات، ولا تصدق بالضرورة في المعاملات.

الشيخ فهم اللعبة وأصدر أوامر صارمة، طلب من سيدي علي الحرازيمي ترك المغرب نهائيا، والذهاب لمكة والبقاء فيها حتى يلقى الله، هذا ما فعله سيدي علي الحرازيمي وطلب من سي مُحَمَّد بن المشري الذهاب لمدينة الأغواط وأن يسكنها، ثم انتقل إلى عين ماضي ليظهر الكناش ويشرحه، ويكلم الناس عن العلم الصحيح الذي حفظه، و أؤتمن عليه، هذا ما حصل.

الشيخ أحمد التجاني يريد أن ينقذ ما يمكن إنقاذه، عمل سي مُحَمَّد بن المشري بنصيحة الشيخ، أبقى حياته في عين ماضي حتى لقي ربه، لما اطمأن الشيخ أن علمه هو الآن في مكة وعين ماضي ينشر، وهو بعيد كل البعد عن الأيادي العابثة، عزم أن يفتح زاوية علم ومعرفة في مدينة فاس، اختار حي حومة بليدة الراوروية جعلها مجلس علم مفتوح يدرس ويعلم المريدين بشكل يومي، وجعله كذلك مكانا للعبادة، شرع في تفسير كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، ملأ القلوب بالإيمان ومحبة الله.

سنة 1216 هجرية رزقه الله الابن الثاني السيد مُحَمَّد الصغير أشرف هو على تعليمه، بدأ يحفظه القرآن الكريم، زوجه بعدما بلغ الحلم، الشيخ يترك مدينة فاس ويعود لمدينة الأغواط ليتفقد أهلها، وينظر في دعوته في الصحراء وما آلت إليه، لم يبق طويلا سرعان ما عاد لمدينة فاس، في طريق العودة مر بقصر سيدي بوزيد واقع بجبال العمور. رجع لزاويته بفاس، كان يراقب عن كثب ما يمكن أن تقوم به الأيادي العابثة، في أيامه

الأخيرة، جعل جل وقته للعبادة والذكر توفي في 14 شوال 1230 هجرية 19 سبتمبر 1814 ميلادية. دفن في زاويته قبل وفاته، عهد ولديه مُحَمَّد الكبير والصغير للسيد محمود بن أحمد التونسي، هذا لم يعش طويلا بعد وفاة السيد أحمد، وحتى يحافظ على الوصية أسند رعايتهما للسيد الحاج علي بن الحاج عيسى، صديق ومقدم في الطريقة، ترك مدينة تماسين وذهب لمدينة فاس، جلب أبناء السيد أحمد التجاني، ليرجعهما لقصر عين ماضي.

تم استرجاع البيت الذي سكنه السيد أحمد من قبل شخص يسمى مولاي يزيد بن إبراهيم، كانتقام من الشيخ بعد وفاته، تقول الذاكرة الشعبية، أن الشيخ سئل عن الدعاء الذي يذكر في خطبة الجمعة، وهو دعاء الإمام للسلطان بالمغفرة والجنة، هل يلحقه أجاب الشيخ : ليس بالضرورة، السيد الحاج علي بن الحاج عيسى الوكيل لم يأخذ شيئا من المغرب، بقي مدة في عين ماضي يتدبر أمر العائلة الصغيرة، لما استقرت الأمور ترك عين ماضي، وعاد لمدينة تماسين، السيد مُحَمَّد الكبير وأخيه تكفلت زاوية عين ماضي بتعليمهما، أحضرت لهم من الأمصار كبراء العلماء، أغلبهم حضر من غرب الجزائر والمغرب خاصة.

بدأ حكام الدولة العثمانية يتوجسون خيفة من قصر عين ماضي، لأسباب من أهمها علاقة الزاوية بالمغرب وتمرد سلطانها عن الدولة العثمانية، وحالة العصيان والتمرد من قبل سكان عين ماضي، ورفضهم لدفع الغرامة المستحقة للدولة العثمانية، رغم أنها كانت زهيدة، وهذا الأمر ليس بالجديد، وقع في حياة السيد أحمد التجاني، أرسل رسالة لسكان عين ماضي وطلب من السكان أن يدفعوا حق الحاكم، ويبتعدوا عن التمرد والعصيان، ولا يفعلوا فعل بعض بني لغواط المتمردون عن الحكم العثماني، والأمر الآخر أن أبناء السيد التجاني، تأثروا بالحياة السياسية في المغرب، القائمة على تقديس الأشراف، وعداء الحكم العثماني.

هذا سيكون له نتائج غير محسوبة على أبناء التجاني وسكان عين ماضي، 1238 هجرية رد سكان عين ماضي حملتين قاما بها كل من الباي عثمان و الباي مصطفى، إلا أن مُحَمَّد الكبير لم يعالج الأمر بالحكمة المعهودة، ولأنه شاب اندفع وقرر أن يثأر، ويعلن الحرب على الدولة العثمانية، خاض حربا أولى وهزم، وخاض حربا ثانية عرف فيها نهايته.

اللطيف	ماية مرة
استغفر الله	كذلك
لا اله الا الله	كذلك

الهم صلّ وسلم على سيدنا مُحَمَّد الفاتح لما غلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي الى صراطك المستقيم وعلى اله حق قدره ومقداره العظيم كذلك

اللهم صلّ على عين الرحمة الربانية والياقوتة المتحققة الحايطة بمركز الفهم والاوان ونور الأكوان متكونة الادم صاحب الحق الرباني البرق الاسطع بمزون الارياح المالية لكل متعرض من البحور والاوان ونور كلام الذي ملات به كونك الحايطة بامكنة المكان اللهم صلّ وسلم على عين الحق التي تتجلا منها عروس الحقايق عين المعارف الأقوم صراطك التام الاسقم الهم صلّ وسلم على طلعة الحق بالحق كنز الأعظم افاضتك منا اليك احاطة النور صلى الله عليه وعلى اله صلاة تعرفنا بها اياه الله اثنتا عشرة مرة

شرح ذكر السيد أحمد التجاني رضي الله عنه : ما يعرفه الناس يتداولونه هذا المقطع الكلامي ويجعلونه ذكرا وهو : اللطيف : مائة مرة أستغفر الله مائة مرة لا اله إلا الله مائة مرة: اللهم صل وسلم على سيدنا مُحَمَّد الفاتح لما غلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آلِهِ حَقَّ قَدْرِهِ ومِقْدَارِهِ العَظِيمِ، هذا كلام واضح وتجد له سند في المأثورات، ثم تجد إضافة تسبق بلفظ كذلك، ما سبقها هو لفظ عربي يفهم باللغة العربية وقواعدها، وأعني هنا لغة قريش التي نزل بها القرآن الكريم.

الآتي مختلف هو لسان عربي لا ينتظم بالمنظومة اللسانية المتعارف عليها، وأشرح وأقول إن الكلام الآتي لا يفهم بقاموس الألفاظ المختزن في الأدمغة، ولا يمكن مقابلته بقواميس الألفاظ والمعاني المودعة في القواميس القديمة والجديدة، هو لسان عربي منتظم بقواعد اللغة العربية، إلا أنه لسان مختلف بالكلية، أكاد أقارنه من باب التوضيح بالقراءات أين نجد في القرآن منظومة اللفظ واحدة، إلا أن القراءة تعطيها مخارج متنوعة، رغم الفقر في الأدوات العلمية اللسانية، نحاول أن نفقه اللفظ والمعنى في ألفاظ السيد أحمد التجاني

وأنبه أن اللفظ في اللسان خلاف اللغة، لا يثبت على معنى واحد، بل هو علامة على القول، نجد عند السيد أحمد التجاني، أن اللفظ ليس هو مبتغى اللفظ الثابت في تصوراتك، بل غايته تثبيت العلامة اللسانية التي يجدها القائل، ويتفوه بها اعتباطا، أي دون تصنع وتكلف.

نشرح ما جاء بعد لفظ كذلك اللهم صل وسلم على عين الرحمة الربانية، والياقوتة المتحققة، راجع النص كاملا السيد أحمد التجاني يجعل صلاته وسلامه على النبي مُحَمَّد صلى الله علي وسلم، لأن الله ميزه بصفة الوحي هو حامله، ولما نذكره لا نذكر شخصه في المقام الأول، بل نذكر عظمة الوحي، هذا يجعل النبي ياقوتة متفردة متميزة، صفة فريدة لن يحملها مخلوق بعده، هذا الوحي العظيم محقق هو ذاته محيط بمركز الكون. المؤمن مفضل بفضل حمل أمانة الهداية والتوحيد، هذا المؤمن الحامل للرسالة يفقه لغة العالم والأكوان، لأن مسار الإنسان من مسارات الكون، هو مثله ينتظم بأنظمته وتتحقق فيه قواعده وسننه، حركة الإنسان في الكون كحركة الكواكب، كلما اقتربت من الشمس زادت طاقتها، كذلك العبد كلما زاد قربه من خالقه، زاد معية وتفردا.

رآه رأي العين وعين المؤمن بصيرته، أيها الإنسان المتجلي بالوحي، صاحب الحق الإلهي مثلك في الكون مثل البرق الساطع الذي سطع بمزون الأمطار الغزيرة، التي تتبع الرياح العاصفة، هطل المطر يورث خيرا وبِشْرا وأنهارا متدفقة، من تعرض لها وجد الأوان أوانه هو وحيه الذي ملكه واستقر في نفسه بيانا، يبتغيه في حاله الآنية فيجده، لأنه ملك نور الكلام، وعظيم البيان وجلال اللسان.

المؤمن يملأ المكان هو نفسه الكون المحيط بأمكنة المكان، يقتدر على جعل ما هو موجود أمامه يخدمه ويرقيه، الفضل جاء من صاحب الفضل، ممن يستحق الصلاة والتسليم، هو عين الحق تنبع حقائقه المفرحة المبهجة، تفرحنا وتبهجنا حقائقه، كما تُبهج وتُفرح العروس أهلها، مبلغ للوحي يكون هو نفسه عين الرحمة القائمة والمعرفة المتجلية واضع الصراط التام المستقيم.

نبي طلع معه الحق بالحق، الحق الأول هو الله تبارك وتعالى، والحق الثاني هو الوحي الله تبارك وتعالى أفاضه على نبيه ونبيه أضافه رحمة للعالمين، الله نور السموات والأرض

من أحاط بنوره، هو مُحَمَّد عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين الصلاة والسلام إلى يوم الدين.

اثنتا عشرة مرة علامة الرقم وتفسير سبب الترديد، لما نضيف المتكلم نحصل على العدد اثنتا عشرة مرة وبيانه قوله تعالى: ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ يوسف الآيات: 1 و 2 و 3.[1]

[1] الدراسة اللسانية غرضها بيان أن اللسان الذي صاغ هذا المقطع الكلامي، نقي خالص وصرف، لسان عربي مبين مفصح، لا منطق فيه، ولا مكامن فلسفية مستترة، رغم أن القاموس اللفظي للعصر الذي عاش فيه المتكلم، قاموس ألفاظه فلسفية مستمدة من قاموس اللفظ الفلسفي الوثني والمجوسي خاصة. هذا هو السر اللساني في تعلق الناس بهذا النص الخالص، لأنه كامن بالفطرة في الطبيعة المعبرة بصيغ الدلالة القائمة كإشارات وتنبيهات في الدماغ، المشكلة أن القراءة اللسانية والفهم الألسني لم يلج بعد القراءة الأدبية، وما زلنا نعتمد المناهج الأدبية الكلاسيكية، وهي محملة بأثقال الميراث الفلسفي اليوناني الوثني، من أثقالها البينة نظرية الثبات الأرسطي، كلامي هذا أخاطب به العارفين بالعلوم اللسانية المدركين لفروعها، ومناهجها العلمية ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ النحل الآية: 103.

أثبت رواية أنقلها من كتاب أضواء على حياة الشيخ أحمد التجاني وأتباعه، للمؤلف عبد الباقي مفتاح، المؤلف يصنف نفسه أنه ينضوي في الطريقة التجانية، يضع أمامنا رسالة تنسب للشيخ إن صحت نسبتها تكون رسالة كافية في الحكم على رأي الشيخ أحمد التجاني، وكيف أن رأيه جاء حكيما منصفا، مخالفا لقومه الذين مردوا على الخروج ونزع يد الطاعة من الحاكم المسلم، يكتب الشيخ أحمد التجاني رحمه الله لقومه :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وصلي على سيدنا مُحَمَّد و آله، بعد حمد الله ﷻ وعز كبرياؤه وتعالى عزه وتقدس مجده وكرمه، يصل الكتاب إلى أيدي أحبابنا، وأعز الناس عندنا، جماعة أهل عين ماضي من غير تخصيص.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، من كاتبه إليكم أحمد بن مُحَمَّد التجاني. وبعد فنسأل الله عز وجل أن يفيض عليكم بُحور الأرزاق والبركات، وأن يَقيكم شر جميع الخلق، وأن يُلبسكم رداء العافية والستر. يليه إعلامكم كما كتبتم به إلي، فأما انتقالي إليكم فلا يمكنني لكوني ثقيل المحمل، ولا يحْملني إلا سبعون أو ثمانون بعيرا، ولا أجدها في هذا الوقت عندي، ولا عندكم، والآن صارت الطريق بيني وبينكم مخوفَة، لا تُسلك إلا بشدة من كثرة الأعداء، والله غالب على أمره. وأما ما طلبتم بعثه من البارود والرصاص، فلا وجود له في هذه البلاد أصلا، وكان قبل اليوم يوجد في بلاد فقيق[1] والآن بلاد فقيق بيننا وبينهم خوف والأمان فيها قليل، وقد عاجلني في هذه الساعة السفر إلى بلاد أنقاد[2] لأجل شراء الزرع الذي أنا محتاج إليه، ولا أقدر عن التخلف عنه حتى ساعة لكثرة ما يلزمني من أكل الطعام. وأما أمر الباي معكم، فأسمعوا مني نصيحة كاملة يبذلها الوالد

[1] مدينة مغربية قريبة من مدينة وجدة المغربية.

[2] بلد عرب أنكاد يسكنون قرب سهول وجدة.

لولده إذا كنتم تُراعون نصيحتي : فسيروا إليه في بلاده، وأعطوه ما تقدرون عليه من مال ولا تقاتلوه، فإنكم لا خير في قتاله. وأخبركم أنه انكشف من سر الغيب، ما لم يكن لنا ولكم به علم، وهو أنه سبحانه قد قضى في حكمه على جميع خلقه بثقل المغرم عقوبة لهم على معاصيهم وعدم توبتهم من ذلك، ولكثرة اشتهار الظلم والفواحش في كل محل وعدم النهي عن ذلك، ونفذ حكم الله بذلك، ولا سبيل لدفعه فقد غالبكم أمر الله وعجزْنا عن دفع بلائه في خلْقه، فإن الله له الحكم والتقدير والله غالب على أمره وتنجيز لوعده في كتابه تعالى : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾، ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾، ﴿ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾، ولما ورد في صحيح البخاري عن أم سلمة وزينب بنت جحش رضي عنهما أنه صلى الله عليه سلم قال : لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها قالت زينب بنت جحش، فقلت يا رسول الله أفنهلك وفينا الصالحون، قال نعم إذا كثر الخبث فأخبر ﷺ أن وجود الصالحين في الخلق لا يدفع البلاء عنهم لكثرة الخبث فإياكم ثم إياكم أن تخالفوه أو تقاتلوه، فقد حدث الأمر من عند الله بما قلته لكم، ودليل ذلك أن ذلك الأمر قد عم بلاد الصحراء حاضرها وباديتها ولم يسلم منه أحد ولا بد أن يعُمكم ولا تقدرون على دفعه. فلا يغرُنكم ما جرت به عادتكم من غلبتكم على كل شيء، على كل من قاتلكم في قريتكم فإن تلك العادة قبل أن يحدث عموم هذا البلاء، كل تدبير عندكم في القتال والخلاف فاتركوه ولا تدبروا إلا في الصلح بينكم وبين هذا الباي ولا تعارضوا أمر الله فإني قلت لكم ذلك القول سابقا. ثم ظهر لي من أمر الله ما لا دافع له وإن خالفتم قولي فقد ألقيتم بأنفسكم إلى الهلاك وهو واقع لا محالة، إلا تصبروا وتعطوه ما يصلح الله بينكم وبينه. وإن قضى الله واصطلحتم مع الباي بذهاب الشر بينكم وبينه وبعثتم لي من الإبل قدر ما يحملني انتقلت إليكم، ولا أقدر على دفع البلاء الذي أراده الله في خلْقه لأجل ذنوبهم والسلام[1] ».

---

[1] يعلمهم أن من عرف الغيب ويقصد به الوحي، بعرف أن مخالفة الحاكم المسلم، وزرع الفتن عواقبه وخيمة، وهو يحذر من بلاء قادم لأن هذه هي السنن الالهية الحاكمة المتحكمة وصدقت رؤيته.

نقرأ بعثة الأغواط : شهر ماي و جوان 1844 ميلادية الكاتب الجنرال ماري مونج الصفحة: 42:

« أحمد التجاني توفي حوالي سنة 1819 ميلادية دون أن يغادر مدينة فاس، أولاده الاثنين عادا بعد وفاته وسكنا قصر عين ماضي، الأكبر امتلك شخصية طموحة، إلا أنه يفتقد الحكمة مسك الطريقة، وهو بالكاد تجاوز العشرين، أخذ النصائح السيئة من أولياء الله التابعين لعائلة الحاج عيسى، قام بإعدام مقربين من عائلته، وأعلن العداء الصريح للأتراك. الداي حسين راسله ونصحه، الشاب المتأثر بالنصائح التي جاءته من أولياء الله الصالحين كابر وامتنع، سنة 1820 ميلادية الداي حسين أمر باي وهران حسان، وهو آخر بايات وهران، طلبه أن يأخذ عين ماضي، وأن يوقف الشاب، حملة باي وهران لم تنجح والسبب أن الناس التفوا حول الخليفة الشاب. خاض باي وهران معارك كثيرة لم تحسم الموقف، فجأة ظهر وباء وفتك بخلق كبير، تدخل الكبراء والحكماء وأوقفوا الحرب ووقعت معاهدة بين الأتراك والخليفة الشاب، انسحب الباي بعدما أخذ تعويضات كبيرة من عند الخليفة، الشاب لم يستفد مما وقع بل تمادى في طموحه، وظن نفسه منتصرا وكان لهذا الموقف نتائج سيئة ومدمرة.[1] »

نقرأ نصوص مأخوذة من موقع الطريقة التجانية والنصوص مرجعها كتاب كشف الحجاب بتصرف صفحات الكتاب من 2 حتى 10 :

[1] راجع النص كاملا بعثة الأغواط ماري مونج ترجمة كزواي الحاج العرابي الصفحة: 62 و 63.

« فسيدنا مُحَمَّد الكبير هو الابن الأكبر لسيدنا الشيخ، أمه هي الدرة المكنونة واللؤلؤة المصونة السيدة مبروكة، ذات الحزم الشديد والرأي السديد، ولد رضي الله عنه بعين ماضي، وتربى في حضن والديه التربية الدينية المتكاملة تلقينا وممارسة، وبعد سبع سنين أو ثمان أخرجهما أي سيدي مُحَمَّد الكبير وسيدي مُحَمَّد الحبيب من الدار، وأمر أمهما إذا دخلوا الدار كل واحدة، تقوم مع ابنها حتى يخرج من الدار.

وقرب وفاته أي سيدنا الشيخ رضي الله عنه تزوجا معا، وفي يوم زواجهما قال سيدنا رضي الله عنه لبعض خاصة الخاصة، أحضر أصحابنا غدا إن شاء الله، واعقد لمحمد الكبير على فاطمة بنت أخي، و أمر بإصلاح بيتين من الدار، واستعمل قفلين عليهما جيدين، وأمر باستعمال صندوق ليستعمل فيه مفاتيح البيتين، حين سدهما على ولديه وأزواجهما من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر، ويفتح عليهما كما هو عادته الكريمة مع خدامه كل يوم... ويقف إلى أن يخرجوا ليصلوا، كل ذلك حزم منه رضي الله عنه.
فنشأ رضي الله تعالى عنه بهذه التربية الربانية نشأة صالحة، وتفوق على أهل زمانه بمشاركته في جميع العلوم، وعلو مقام ولايته. إذ غوثيته جذبت إليه الخلق يستجيرون به لربهم في الملمات والدواهي، ويلتجئون إليه في المصائب الكبرى. وسنرى منه ما كابده مع الأتراك غوثا لمن استجار به من المسلمين. وخاصة بايات قسنطينة ووهران. وكان رب العزة يقضي به حوائج الناس، لما حباه به من الخصوصية عنده فسبحان من يهب ما شاء لمن شاء كيف شاء، لا يسأل عما يفعل، وقد شهد له بهذا الفضل حتى أعدائه و مبغضوه قال سيدنا الشيخ رضي الله عنه، أوصاني رسول الله ﷺ على ولدي سيدي مُحَمَّد الكبير، وأخيه سيدي مُحَمَّد الحبيب وضمن لهما المعرفة بالله تعالى، وضمن لهما خيرا كثيرا.
بعد وفاة سيدنا رضي الله تعالى عنه، انتقل بسيدي مُحَمَّد الكبير، وأخيه سيدي مُحَمَّد الحبيب العلامة الشيخ سيدي الحاج علي التماسيني إلى عين ماضي منفذا بذلك أمر الشيخ رضي الله عنه.

بوصول أبناء الشيخ إلى عين ماضي، يتجدد تخوف الداي التركي الحاكم بالجزائر من هذا التواجد الجديد لأبناء الشيخ التجاني رضي الله عنهم أجمعين، فيبدأ البايات يرصدون تحركات سيدي مُحَمَّد الكبير. خاصة وأن أتباع الطريقة التجانية هناك في تزايد مستمر سواء في المدن أو في البوادي خاصة منها الواحات الجنوبية، مثل عين ماضي وأبي سمغون والشلالة وغيرها من المناطق، أمر الأمير حسن باشا باي قسنطينة، أن يعترض طريقه عند قدومه، ويوقفه فلم يمكنه منهم في ذلك الوقت.

وما أن سمع الداي حسين بن حسين حاكم الجزائر بوصول ابني الشيخ حتى هزته المخاوف، فأرسل إلى أولاد الشيخ رضي الله عنه يطلب منهم أن يأتوا إليه ليتبرك بهم وقصده شيء آخر، فاجتمع الأصحاب الحاضرون في ذلك الوقت، وقدم القطب سيدي الحاج علي رضي الله عنه في ذلك اليوم، وصاروا يتكلمون في هذه الواقعة وماذا يفعلون؟ هل يتركون أولاد الشيخ رضي الله عنه يذهبون إليه... فقال... سيدي الحاج علي رضي الله عنه بجلال، كيف نترك أولاد الشيخ يذهبون إلى الترك يلعبون بهم هذا لا يكون أبدا، وقد مر بنفس الموقف ونفس المطلب شيخ الطريقة القادرية محي الدين وابنه عبد القادر حيث فتك[1] بهما الداي حسين. إلا أن العناية الإلهية بالنجلين الأكرمين حبتهما باللطف الخاص.

وبعد التشاور بينهما سيدي مُحَمَّد الكبير وسيدي مُحَمَّد الحبيب رضي الله عنهما، وبحث الأمر مع الشيخ علي التماسني... تقرر رفض دعوة الحاكم التركي، كما أُتفق على ذهاب الابن الأكبر للشيخ التجاني رفقة الخليفة التماسيني إلى تماسين، وسيدي مُحَمَّد الحبيب إلى أبي سمغون، وباقي الأسرة تمكث في عين ماضي وهذه من إحدى كرامات هذين النجلين،

[1] الكاتب يدلس لما يجمع منهجين متناقضين كيف تجمع بين منهج السيد أحمد التجاني ومنهج الأمير عبد القادر ووالده محيي الدين، الغرض من التدليس هي عقدة كره الدولة العثمانية، والتبرير أن عداء سلاطين المغرب للحكم العثماني مبرر، وكاتب النص يختار لفظ الترك ويترك العثماني لحاجة في نفس يعقوب..

فقد رأى سيدي أحمد بن معمر الأغواطي في بعض مرائيه قبل الواقعة التي حصلت بين أبناء الشيخ رضي الله عنه والترك، كأن للشيخ رضي الله عنه ثلاث خيم والطين متراكم بناحيتها، و رأى سيدنا يقول له: قل لهم خذوا خيمة واجعلوها في غرب الأغواط وخيمة لشرقها، واتركوا الأخرى حتى يذهب الطين، فاتفق أن جاءت الترك إلى عين ماضي للبطش بأهلها، فبينما هم في الطريق إذ حصلت لهم زلزلة دمرت جميعهم ورجعوا منكسرين بعد أن خربت عين ماضي، وحفظ الله أهل الشيخ رضي الله عنه وداره المعظمة منهم[1].

وحينما قرر سيدي مُحَمَّد الكبير التجاني الذهاب إلى الحج على طريق الصحراء... أمر الأمير حسن باشا باي قسنطينة أن يعترض طريقه عند قدومه، ويوقفه، فلم يمكنهم الله منهم في ذلك الوقت، فعندما رجع رضي الله عنه من الحج إلى بلاده ظهر له أن ينزع الملك من يدي الأتراك[2] الذين كانوا في غاية الاستبداد، وكان حكمهم كله طغيانا، ونظرة واحدة تلقى على تاريخهم، تفصح عما كانوا يرتكبون من سفك الدماء، ونهب الأموال اغتيال بعضهم بعضا، فكانت حكوماتهم المتعددة فوضى فجمع رضي الله عنه عرب الصحراء وجيش جيشا وجعل يدافع حشم اغريس وبايعوه سرا، وكان خبره قد بلغ باي

---

[1] الكاتب حجته المنامات والخوارق.

[2] يفهم من سياق الكلام، أن هناك من حرض مُحَمَّد الكبير، وهو الشاب اليافع الذي لا علم له بالمكر والدهاء والخداع السياسي، أن يحارب الدولة العثمانية وينهي حكمها من فعل هذا، يريد قتله لا محالة، كيف لشاب يافع لا حول له ولا قوة، أن يقف أمام دولة هي يومها إمبراطورية، تخوض الحروب في المشارق والمغارب، وتتحالف معها ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، لتواجه أعتى قوة استعمارية عرفها التاريخ مع بداية القرن العشرين مشكلتنا دائما أننا لا نضيف لدروس الفقه، والعقيدة، دروسا في التاريخ وفلسفته فنكون نحن ضحية لمشاريع الآخرين.

وهران فكتب للأمير الداي حسين بن حسين بخبره، وتحيروا كثيرا، وانتظر الباي قدومه، فلما وصل إلى غريس، وأخذ يقاتل أهل المعسكر، واستولى على بعض الجهات بعث الباي باي وهران المال لكبراء الحشم[1] لكي يتخلوا عنه، وخرج إليه من وهران بالقوم، وأمر المحلة أن تردفه، فأصبح الباي مقاتلا، وفر الحشم عن التجاني سيدي مُحَمَّد الكبير وفر الكثير من جيوشه التي أتت معه، بدافع الخيانة، ولم يبق معه إلا نحو الثلاثمائة من أعراب زكور، فثبت هو وثبت من معه من الأعراب ثباتا لم يثبته معهم أحد، وكان من عادة هؤلاء الأعراب في وقت القتال أن يعقلوا أنفسهم مثل الإبل وهكذا، عقلوا أنفسهم وهو معهم، وقاتلوا قتالا شديدا، إلى أن قتلوا عن آخرهم... وأتوا بسيفه وبعض الحاجيات التي كانت عليه... وكان الباي باي وهران قد بعث البشائر للأمير قبل قدوم الرؤوس... ولكثرة ما كان الأتراك يخافونه، بعثوا للسلطان محمود يبشرونه بقتله، وبعثوا إليه بسيفه والحاجيات التي كانت معه، واحتوى الباي على أثقال التجاني، وأمواله، ورجع إلى وهران[2].»

---

[1] الحشم قبيلة منتشرة في الغرب الجزائري لهم تواجد في مستغانم ومعسكر ولهم وجود قليل بنواحي الأغواط.

[2] كاتب النص همه أن يظهر أن الحكم العثماني مستبد، وأنه غير شرعي أما ذكره لسيرة مُحَمَّد الكبير هو تغطية ليظهره مظلوما، ويقر فلسفة المظلومية، وهذا متواتر في تاريخ الأمة، كمظلومية سيدنا الحسين عند الشيعة. لما نختار منهج المقارنة العلمي، ما فعله سلاطين المغرب في الأمة، وما زالوا يفعلونه، لا يقارن بأمجاد الدولة العثمانية، والذين رفضوا الحكم العثماني هم من قبلوا الحكم الفرنسي. مُحَمَّد الكبير ليس مقدسا، لا هو بنبي معصوم من الخطأ، ولا والده، وما قال السيد أحمد التجاني بعصمته، ولا عصمة أبنائه ونقول أنه اجتهد وأخطأ، وأن علمه بالسياسة والمكر والدهاء محدود لصغر سنه، وانتفاء خبرته، كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون.

نقرأ في كتاب طلع سعد السعود الفصل ثورة أحمد التجاني:

« ثم قام عليه في عام اثنين وأربعين ومائتين وألف[1] السيد مُحَمَّد الكبير ابن القطب العلامة المعبر عنه بالقطب المكتوم السيد أحمد بن سالم التجيني بغير الخلف، وجاءه حاركا في ستمائة رجل من التجانية من أهل عين ماضي، الزاوية المحفوفة بحفظ الله في الزمان الآتي كالماضي وعدد كبير من العرب الصحراوية التي لا تمتثل لمعروف ولا تنتهي عن المنكر، مع قوم الحشم إلا أن وصل إلى المعسكر ودخل منها حومة بابا علي ثم خرج منها ورجع لغريس فمات بعواجة مع أصحابه كلهم بلا تحريس، ومن خبره أن الباي حسن كان قد خله التخمين بأن التجيني سيقوم عليه بالأصفى، كقيام ابن الشريف الدرقاوي على الباي مصطفى، لإقبال الناس عليه في كل ناحية، وانتشار صيته في كل ضاحية فرام كسر شوكته قبل تزايدها، وهدم قوته قبل تعاهدها فجمع له جيشا عظيما، وعددا كثيرا جسيما، وغزا به عليه عين ماضي، وحاصره بها شهرا كاملا، إلا أن حصل الصلح بينهما على يد كاتبه السيد الحاج مُحَمَّد ابن الخروبي القلعي على أن يعطي التجيني للباي لزمة سنوية في المرعى، قدرها خمسمائة ريال منجمة، ويعطيه ألفي ريال حالة مقدمة ـ كذا ـ كان ذلك عام إحدى وأربعين ومائتين وألف[2]، فأخذ الباي تلك الغرامة، فأخذ الباي تلك الغرامة الحاضرة وارتحل لوهران بالشضف، وقد انكسر في قتال تلك الواقعة بلا تماري، عَدَة ولد عثمان البحثاوي خليفة آغا الحاج مُحَمَّد المزاري. ثم أن التجيني رأى ما حل به بغير سبب ظهر له مقاتلة الترك والغزو على الباي حسن في محله للعطب ودس ذلك في سويداء قلبه، وصار يحشد الجنود ويجمع الحشود لشيء لم يكن من كتبه ويكاتب من يظن به الاذعان للمهالك، ومن جملتهم الحشم فأخبرهم بمراده فوافقوه على

---

[1] الموافق للتاريخ الميلادي: 1926 ـ 1827 ميلادية.

[2] الموافق للتاريخ الميلادي: 1825 ميلادية.

ذلك. ولما دخلت سنة اثنين وأربعين ومائتين وألف[1] ظهر للباي السفر للجهة الغربية لإزالة الغلف، ويتفقد أحوالها في السر والاعلان، فذهب بجيوشه الكثيرة التي رأسها المخزن سيما أعيانهم قاصدا تلمسان. ولما نزل بالحناية كالأسد الحاقد جاءته ثلاث مكاتب في وقت واحد، أحدهما من عند هواري الحشمي، صاحب الصدق للباي في القول الجزمي، وثانيها من عند قدور بن سفير قائد المعسكر، وثالثتهما من عند مرة أحمد التركي الذي نفاه الباشا حسين من الجزائر للمعسكر[2]، وصيره بها بمنزلة ناظر الأحباس يخبرونه فيها باتفاق الحشم على القيام مع التجيني وإظهار الأرجاس ولما قرأ الباي تلك المكاتب أعلم أعيان جيشه ومخزنه بما فيها من الأمر العاطب، وقال لقواده لا تأتوني بجيوشكم الباقية والجميع بيننا بوادي ماكرة، وارتحل من الحناية فنزل بيسر وبعده بماكرة، وأقام بها أياما والجيوش تجتمع عليه إلى أن صار خميسه في غاية الخميس، ثم رحل ونزل بالزفيزف ثم بعواجة من أرض غريس، فأتاه الحشم بأجمعهم للضيافة، ولم يعلموا ما سيحل لهم من المكافة، فضيفوه وبعد الأمل قالت له نفسه لا يستقيم لك الأمر ويحصل لك الراحة إلا بقتل قواد الحشم الاثنا عشر، وهم مُحَّد ولد عبد الله وابن أخته الحبيب ومُحَّد بن ركموط ومُحَّد بن نكروف وغيرهم في صحيح الخبر، وكان الكبير في هؤلاء القواد سنا ورأيا وتدبيرا.»

« وشجاعة مُحَّد ولد عبد الله فالصادر منه هم له طاعة، فأمر الباي بقبضهم فقبضوا، ما عدا القائد الحبيب فإنه ما زال على فرسه وقد سمع ما لفظوا وصار واقفا من بعيد ينتظر ما يحل بهم من الانتقام، فلما رآهم ذهبوا بهم لبشوضة وهي محل القتل ذهب فارا بعد

[1] الموافق للتاريخ الميلادي: 1926ميلادية.

[2] القصد مدينة معسكر أسلوب الكاتب ينتمي لعهد الضعف الأدبي ركاكة التعبير وادخال اللفظ الغامض والاكثار من التورية والابهام مع كثرة الأخطاء.

طول القيام، ثم أن القواد الإحدى عشر لما عاينوا القتل وتحققوا بهوهم في الفزع والدهش، نطق كبيرهم ملتفتا وراءه لناحية الباي وفال يا هذا الوثاق ظلمتنا من غشك سلط الله عليه الغش، فقال له مُحَمَّد بن زكموط يا مختل العقل حلفك لا ينفع، وصاحب الوثاق لا ينظر فيك ولا لكلامك يسمع فالشاه فيك على القساوة، حيث كنت في نجاة ومن السعداء وصرت في هلاك ومن أهل الشقاوة ولما وصلوا لبشوضة وقد صارت جمزعهم مفضوضة، قال ابن زكموط لظربير، وهو المأمور بقطع الرأس، بأمر الأمير ناشدتك الله أن تبدأ بمحمد ولد عبد الله لتحصل به الراحة، لقلة رأيه الفاسد وعدم اصغائه لقولنا حيث كان من أهل السمع فصار أصماكما صار أبكما بعد أن كان في الفصاحة، ثم أقطع رأس الباقين واحدا بعد واحد[1]. ففعل ظربير ما قاله ابن زكموط الماجد، قال ولما قَتل الباي في ساعة واحدة إحدى عشر قائدا، وبعث برؤوسهم للمعسكر بعثا متواردا، أنكر عليه ذلك كافة الترك الذين كانوا بالمحلة والغائبين، كما أنكر

[1] الباي عارف بخطط أعداء الدولة العثمانية، وبعرف جيدا التحالف الماسوني الصليبي الذي بثير الفتن في كل مكان، ويغرس كراهية الدولة بين الأفراد، ويبشر بقدوم الصليبين من أجل ذلك، فتك برؤوس الفتنة وقَتلهم، الذين استغلوا صغر مُحَمَّد الكبير وهو بالكاد تجاوز العشرين، لا علم له بما تفعل هذه المحافل المتجذرة في التاريخ. أما ما وقع لمحمد الكبير هو واقع في التاريخ له شواهد في خروج سيدنا الحسين، ومُحَمَّد النفس الزكية والامام زيد وفي هذا الأمر مدرستان: الأولى ترى أن الخروج هو بمقتضى الشرع من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الثانية ترى أن الخروج عن الحاكم القائم بالشرع مآله الفتن والمحن، والاقتتال المفضي للتنازع، والمدرستان تتفقا في الشاهد، نقرأ في صحيح البخاري عن النبي ﷺ: « إذا حَكَمَ الحاكِمُ فاجْتَهَدَ ثُمَّ أصابَ فَلَهُ أجْرانِ، وإذا حَكَمَ فاجْتَهَدَ ثُمَّ أخْطَأَ فَلَهُ أجْرٌ» ونحن نستغفر لهم والله ورسوله أعلم.

عليه ذلك أغواته الذين هم الراكبين، وقالوا له سترى ما ينتج لك ولنا معك من الضرر العظيم، حيث لم تستشر أحدا، واستقليت برأيك الصميم، وأظنك استشرت المازري وابن وارد، فقالا نحن على براءة من هذا الكلام الوارد، فإنه لم يستشرنا ونحن من جملتكم، وإنما ذلك رأيه هو أدرى بأحواله منا ومنكم. ثم أنه لما قتلهم وحاله استبشر رحل من عواجة وهو في نخوة ودخل المعسكر وكان في قلبه وجل من القائد عبدي وأبي الأقدار لعلو كلمتهما عند العرب والترك في السر والاجهار وميل أصحاب الجزائر لهما لما فيه الغاية، وربما تتولد له منهما النكاية، وقد ضرب على الحشم الخطية الكبيرة، والعقوبة المالية العسيرة، رأى أنه لا تكتمل له الأيام، ولا تتم له الفائدة إلا بقتل هذين، التركيين القيام، بعثهما لقبض تلك الخطية، ومراده قتلهما لتكون لهما الرزية ويتهنا من أمرهما ويستريح، وينفرد في مملكته من المليح والقبيح، فذهبا لقبض تلك الخطية، ولما وصلا للحشم قالوا لهما جئتانا لإتمام الرزية، بالأمس قتلتم قوادنا والآن جئتما لأخذ مالنا وقد جرحتم أكبادنا، وغرضكم إتمام النكاية فستريا ما لكما فيه من النكاية وبادروا لقبضهما لأخذ الثأر في نفلهما وفرضهما، ففر عبدي هاربا واتبعه الحشم إلى أن دخل خيمة سيدي لعرج من أولاد سيدي مُحَمَّد بن يحيى وجلس عند النساء للحرم فدخلوا عليه وأخرجوه منها جبرا على السيد المذكور بالاشتهار، وقطعوا رأسه كما قطعوا رأس أبا الأقدار، وقالوا هذا ثأر القواد، الذين ذهبوا لجنة الخلود فذهبا لجهنم وبيس المهاد، وبعثوا بالرأسين للتجيني وقالوا له على عبدي هذا رأس الباي حسن، وعلى أبي الأقدار هذا رأس خليفته كثير المحن فاستراح الباي بفعله بالتركيين والحشم، ولم يبالي بما سيأتيه من الهم والغم.»[1]

---

[1] هذه لغة الكاتب مزج بين الفصيح والعامي وتحتاج لجهد لفهما ونحن حافظنا على النص الأصلي.

نقرأ في كتاب طلع سعد السعود الفصل تآمر الحشم مع التيجاني ضد الباي حسن الصفحة: 355 و 356 :

« ثم أن الحشم حثوا على التجيني حثيث الاحتباك في القدوم معهم لقتال الاتراك، ولما رجع الباي لوهران ومكث بها مدة في أمن وأمان، قام عليه التجيني في جيش عظيم يريد المجاجنة من أهل الصحراء، وصل لغريس في خربفة اثنين وأربعين ومائتين وألف[1] فنزل بفروجة في يوم الأحد بغير الشك والخلف، فبعث الهواري للباي بذلك، وأخبره بتحقيق ما هنالك، لذلك جعله قائدا على الحشم في الرواية الفريدة، ولقد أطاع الحشم للتجيني لما أحل بلادهم بجيوشه العديدة، ثم كاتب التجيني بني عامر وبني شقران ولبرجية والغرابة والزمالة والدوائر هؤلاء الأعراش الأربعة المتوالية الذين هم مخزن الباي فقد أبوا من الإذعان، وأما بنو عامر وبنوا شقران وغيرهم فقد توقفوا، وصاروا ينتظرون الغالب يتبعونه وبذلك اتصفوا.»

نقرأ في كتاب طلع سعد السعود الفصل مُحَمَّد التجاني يهاجم معسكر الصفحة 356:

« ثم رحل التجيني في يوم الاثنين لمدينة المعسكر وهي على سبعة أقسام، حومة العرقوب بسورها، وحومة سيدي علي مُحَمَّد، وحومة عين البيضاء، وحومة الباب الشرقي وحومة بابا علي، وحومة سيدي مُحَمَّد أبي جلال، وحومة المدينة الداخلة، وهو الوسطى بسورها ذي أدهام، ونزل على الحومة الغربية وسط النهار وهي حومة العرقوب، يريد الدخول إليها ويظفر بالمطلوب، فتلقاها أهلها بأسرهم بالقتال، وصار الحرب بينه وبينهم في سجال، وأعانهم بنو شقران على ذلك القتال، وقد مات من الفريقين خلق كثير وقد بات في تلك الليلة ـ كذا ـ بأعلى الحومة البحرية وهي بابا علي في تحرير وفي يوم الثلاثاء بعث لهم ليدخلوا في طاعته، فأبوا وبدأوه ـ كذا ـ بالحرب من غير مراعته، فكان من أمرهم أنه قتل منهم خلق كثير ودخل تلك الحومة فجاس خلالها ودمرها تدميرا، ولما رأوا ذلك قادوا له فرسا أشهب ودخلوا تحت حكمه بانتخاب وأتوه ليلتهم لمؤنته ـ كذا ـ جيشه

---

[1] تقابل أواخر سنة 1826 ميلادية.

من المأكول والمشروب وعلف الدواب، واندرج في ذلك أهل الحومة الشرقية بلا محال، وهي حومة الباب الشرقي، كما اندرج في ذلك أيضا حومة سيدي مُحَمَّد أبي جلال.
ثم في الغد وهو يوم الاربعاء ارتحل من موضعه ونزل بخصببية على الحومة القبلية، وهي سيدي علي مُحَمَّد وعين البيضاء، وسألهم الاذعان أو يحل بهم ماحل بالحومة البحرية فقادوا له فرسا ودخلوا في الطاعة، دفعا عن أنفسهم وعلموا أن ذلك من الخروج عن الجماعة. وفي يوم الخميس تهيأ بجيشه لقتال الحومتين المحيط بهما السور وهما العرقوب والمدينة الداخلة، وكان في السابق دخل أهل سيدي مُحَمَّد أبي جلال، وأهل سيدي علي مُحَمَّد، للمدينة الداخلة، ثم ظهرا لهما في الخروج مخرجا وشدت أبواب المدينتين وكل في مخزنه.»

نقرأ في كتاب طلع سعد السعود الفصل الباي حسن يذهب لمعسكر لمحاربة التجاني الصفحة 357:

« فبينما هو يحاول القتال مع هاتين الحومتين وإذا بالباي حسن بلغه الخبر فخرج من وهران بجيشه ومخزنه، وحث السير فبات بالكرمة، و تليلات، وسيق، وواد الحمام فنزل بمشرع حسين، وهو كالأسد الضرغام، سمي المشرع بذلك سرا وجهرا لكون حسين التركي تعدى على بعض العرب بالمنكر بذلك المشرع فقتل به وذهب دمه هدرا. وكان من عادة الباي لا يدخل للمعسكر إلا مع عقبة الملاحة، سميت بذلك للنكبة الكثيرة الواقعة بها مع دواب الملاحة، فنكب عن تلك الطريق وذهب مع تيفرورة، ومعناها ذات الخير الكثير فهي بالبربرية مشهورة وأخذ طريق سيدي علي بن أحمد الولي المشهور. ولما قربه طوى ألويته وترك ضرب الطبول بتوابعها توقيرا للولي المذكور، وبعث لضريحه زيارة تدفع بيد المقدم ليحصل له الفوز على التجيني والحشم وسأل من الله الإعانة على عدوه في الحفي مقدما في دعائه، التوسل إلى الله تعالى بذلك الولي ولما جاوزه قال له ليث الضراغم ومن كثر للأعداء منه التقاصم، باغته المتقاعد النبيل المحترم السيد مصطفى بن اسماعيل وسائر الأغوات الباقين، أيها الباي لا تخشى أحدا إلا رب العالمين فانشر سناجقك

ونقطر طبولك كالعادة، حيث جاوزت الولي، فالنصر لك ولنا معك في الزيادة، والعدو لا ريب يحل به النكال لأنه ما معك إلا ليوث الرجال.

قال ولما وصل الباي لخروبة الصيادة المطلة على غريس، هبط على قرية الكرط، ومر على سيدي علي القطني كأنه أسد التغليس، ولما بلغ الخبر أن التجيني لا زال محاصرا للمعسكر، رجع نحوه متوجها له وهو بخصيبية من غير المفر، ولما طل عليه ورأى عنده الجراد المنتشر، وسمع به التجيني فتأخر عن المعسكر، وهبط داخلا ناحية أولاد رحو يروم المقاتلة وعنه يلح دخل الباي الخوف والجزع، ولحقه الرعب والفزع وظن أن الدائرة كائنة عليه فثبته أعيان مخزنه وواعده بأن النصر مقبل عليه، وقال آغته المتقاعد الشبيه بالجوطي الحاج عبد الله بن الشريف الكرطي أيها الباي رأيك الذي استقليت به حيث تركت المشورة لكل أحد في ابتداء الأمر، هو الذي وصلك وأوصلنا معك لهذا الأثر فضحك آغته المتولي وقت ذلك، وهو السيد الحاج مُحَمَّد المزاري البحثاوي من ذلك وقال للباي يا من أنت في ستر الحليم الغفار، وحفظ العزيز الغفار، لا يدخلك الجزع ولا تصغي للقول المعسار، سترى ما يصدر من مخزنك الأبرار، فإن لهم عليك حق في المشورة، وأنت تركت ذلك لجميعنا إلا أن صارت الحضاجر هي القسوة، فأحسن ظنك بالله ولا تهن، ولا تجزع ولا تحزن، فعند حلول الكفاح في الميدان يتبين لك الشجاع من الجبان، ومن كان صغيرا في السن يصير كبيرا في الضرب والطعن وليس الكلام بالأفواه وقت تقابل الصفوف، وإنما الكلام للبنادق والسيوف، ويظهر الكر من الفر فالشجاع يتقدم والجبان يتأخر، ولا يخفى سيدنا طعن مخزنه للعدو إذا تراءى ـ كذا ـ الجمعان وغلت الجماجم وتأججت النيران سيما الأعيان الدارئين ـ كذا ـ عن سيدنا ما يلحقه من ألم الدعاوي، سيما ما ولده البشير البحثاوي فهم فداؤك في الهموم والكروب، ووقايتك في في القتال والحروب، فسر الباي وجميع الجيش بقوله، وعلا شأن عمه مصطفى وطلع راسه إلا أن قال أهلا بقوله. وقد كان بن يحيى ابن مُحَمَّد الغلالي ثم الشقرائي فيما الراوي قد رواه، كتب لآغا السيد مصطفى بن اسماعيل بطاقة يخبره فيها بقدوم التجيني لأم العساكر ومقاتلتهم إياه، لكون هذا ابن يحيى كان خليفة قائد المعسكر في الوارد، وخليفة

القائد عند الأتراك يقال له آغة القائد، وبعث بطاقته مع ابنه فجاء ليلا لغنيمة الفيء، ولما وصل المحلة قبضه أهلها ومنعوه من الدخول لها وسلبوه من كل شيء، وهو يقول جهرا يا قوم أوصلوني عند السيد مصطفى اسماعيل، فإني ولد ابن يحيى بن محمود الغلالي قاصدا للنبيل، وجئته بالمكاتب من عند أبي فلم يلتفتوا لقوله وصفا ولا زال ينادي إلى أن سمعه آغة مصطفى ـ كذا ـ فأمرهم بالإتيان به ومطلبه، ولما وصله سأله عن نفسه ونسبه وعرف بذلك دون شبيه وناوله مكتوب أبيه، فأمرهم فورا برد ما أخذ له بأسره لما ظهرت العلامة، فردوه فورا ولم تضع له حتى الغلامة وذهب آغة مصطفى بمكتوب خليفة القائد للباي حسن، وعرفه بالواقع وزال ما به من الوهن، وقال له أنما تراه من الجراد فضباب على رؤوس الجبال، وستطلع عليه الشمس الحرة فينصرف عن آخره وهو في النكال، وأن العرب ستأكل بعضها بعضا، ويقتل بعضها بعضا والنصر مآله إليك فأنشر ألويتك ونقر طبولك وأضرب غوائطك بناغراتها ولا حرج عليك، فنشرت السناجيق في الحين ونقرت الطبول والغوائط والناغرات بصوتها الحنين، والتقى الجمعان بعواجة بلاد أولاد رحو فكان ثمة أعظم الوقوف، ونشأ الحرب بين الفريقين وتزاحفت لبعضها بعضا الصفوف وحام الوطيس وترادفت الردوف، واشتبكت الناس ببعضها بعضا وهاج الريح العصوف.»

نقرأ في كتاب طلع سعد السعود الفصل المعركة الفاصلة ومقتل التجيني الصفحة 259:

» قال فلم يكن غير ساعة إلا والحشم وسائر الأعراب قامت على ساق واحد، وبقي وحده في تجاجنته[1] واطلع على رأيه الفاسد. ويقال أن الباي فرق أمولا كثيرة على أعيان الحشم وكافة العرب فأوقعوا الهزيمة، وفروا وتركوه بجيشه الخاص به منفردا في الحالة الذميمة، فصار جيشه يذب عن نفسه ويسارع في مشيه نحو بستان أولاد رحو ـ كذا ـ وهو بستان عظيم من الهندية ليتخلصوا به ويتفسحوا فحال بينهم وبينه جيش الباي

[1] يقصد خذلته قبيلة الحشم وعرف مكيدتهم وبقي مُحَمَّد الكبير وحيدا مع أصحابه الذين جلبهم من قصر عين ماضي يكتب ذلك بلغة التشفي.

وأوقفوهم بموضع يقال له السمار، وأداروا دور مقياس بسواعد الأبكار، واشتد القتال إلى أن قتل التجيني بجميع جيشه ولم يفلت منهم واحد، ومات خليفة التجيني وهو السيد إبراهيم بن يحيى من أولاد سيدي مُحَمَّد بن يحيى ذي الفضل الماجد، ومن جيش الباي عدد كثير بالأمكن منهم مُحَمَّد ولد قدور البحثاوي وقائد غمرة وغيرهما وتكسر آغته المزاري من ساقه الأيمن، وكان عدة بن قدور آغة الزمالة المتقاعد عن الخدمة في نوبته وقتا، حلف إن ظفر بالتجيني ليضربنه بسيفه حيا كان أو ميتا، ولما ألفاه ميتا ضربه بسكينه للصدر إزالة للكربة إلى أن هضمه من صدره تهضيما كبيرا بتلك الضربة، فعاتبه الأعيان على ذلك كثيرا، وقالوا له لو ضربته حيا لنلت المراد، ولكنك فعلت بنا عسيرا. ولما تم القتال أمر الباي بقطع الرؤوس رأس التجيني ويده ورؤوس التجاجنة أهل الضرر فقطعت الرؤوس وبعث بها الباي أمامه للمعسكر، ورحلها ودخلها فارحا مسرورا، ومؤيدا مغتبطا منصورا، وبمخزنه العظيم نال عزا وشكورا، ثم رجع لوهران في عزه وإكرامه، وفضله وانعامه، وألوية النصر تخفي على رأسه وهو في أنيسه، واشتد أمره وحرصه، وكتب لقائد مليانة يخبره بما نصه: الحمد لله وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد و آله المكرم ولدنا علي قائد مليانة وفقه الله آمين السلام عليكم ورحمت ـ كذا ـ الله والبركة وبعد فالذي نبشركم به خيرا إن شاء الله تعالى هو أننا طحنا على محلة الظالم ابن التجيني وأحزابه فقتلناه هو بنفسه وقتلنا خليفته وقطعنا رأسيهما معا وقتلنا جميع من كان معه بمحلته ولم يفلت أحد منهم ما يزيد على ألف رأس وسبينا جميع ما عندهم من خيول وإبل حتى الأخبياء جميعا والحمد لله على هذه البشارة المباركة لقد هنيت العباد من ظلمه وفساده وها نحن بشرناك والسلام بأمر المعظم السيد حسن باي آمنه الله آمين».

عبد القادر بن محيي الدين الجزائري، ولد يوم 6 سبتمبر 1808 ميلادية بالقطنة بمنطقة معسكر، توفي يوم 26 ماي 1883 ميلادية بمدينة دمشق، أيام الدولة العثمانية في منطقة الشام، المعروفة اليوم سوريا. عرف بالأمير ليس لأنه سليل عائلة حاكمة، بل المسلمون منحوه إياه بالمقتضى الشرعي، لما وقع الغزو الفرنسي، ووجب جهاد الدفع جعلوه عليهم كأمير حرب، هو رجل دين وسياسة، دينه الفلسفة وشيخه محيي الدين بن عربي، سياسته تأسيس دولة في الجزائر على أنقاض الحكم العثماني. قاد مقاومة ضد الاحتلال الفرنسي، بالرغم من أنه غير مؤهل لذلك، لأنه في الأصل أخذ تعليما فلسفيا صوفيا، شغل حياته بقراءة كتب شيخه ابن عربي، عقب على الفتوحات المكية لشيخه لما أرادوا نشره، ولما أرادت فرنسا أن تكرمه سنة 1949 ميلادية، نصبت له تذكارا حضره كبراء القادة الفرنسيين، كتب على النصب عبارة الأمير المشهورة:« آه لو كانوا قد استمعوا، آه لو وجدوا لي ذلك الراغب في معرفة الطريق.. لو استمع إلي المسلمون والمسيحيون لكنت قد قضيت على تناحرهم، و لجعلت منهم إخوة في الداخل والخارج 1».

هذا النص هو من صميم فكر ابن عربي يقول شعرا:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعىً لغزلانٍ، ودير لرهبـــانِ

وبيتٌ لأوثانٍ، وكعبة طائفٍ وألواح توراةٍ، ومصحـــف قرآنِ

أدين بدين الحب أنَّى توجهتْ ركائبه، فالحب ديني وإيمـــاني

هذا الفكر الصوفي شكل ثقافته، وهو وحده من يمكن الدارس، من فهم مفاتيح شخصيته نفس المعاني الفلسفية يعيدها في شعره:

أقول أنا وهل هنا غير من أنا فما زلت في أنا ولوها وحـــــــيرانا

---

[1] راجع الجزيرة الوثائقية الأمير عبد القادر، راجع كذلك النص موثقا عبد القادر الجزائري برونو إيتين ترجمة ميشيل خوري الصفحة: 20.

ففي أنا كل ما يؤمله الورى فمن شاء قرآنا ومن شاء فرقـــانا
ومن شاء توراة ومن شاء إنجيلا ومن شاء مزمارا زبـــورا وتبيانا
ومن شاء مسجدا ينـــاجيه ربه ومن شاء بيعة ناقوسا وصلبانا
ومن شاء كعبة يقبل ركنـــها ومن شاء أصناما ومن شاء أوثانا
ومن شاء خلوة يكن بها خاليا ومن شاء حانة يغزل غـــــزلانا
ففي أنا ما قد كان أو هو كائن لقد صح عندنا دليلا وـــرهانا[1]

نفس السياق نقرأ في ديوان الأمير:

أيا أنا من أكون إن لم أكـن أنت و يا أنت من تكون إن لم تكـن أنا
ما بالكـــم قلتم عنه واعبـــد فكثرتم لذاك طاشت قـــولنا
إذا رفعت من بيننا العين والألف فقد رفـــع الستر المفرق بيننا
وذلك حين لا أنا لك عـــابد ولا أنت معبـــود فـزال حـجابنا[2]

نقرأ كذلك[3]:

أنا حـــق أنا خلق أنا رب أنا عبـــد
أنا عرش أنا فرش وجحيم أنا خـــلد
أنا ماء أنا نـــار وهـواء أنا صـــلد
أنا كـــم أنا كيف أنا وجد أنا فقـــد
أنا ذات أنا وصف أنا قرب أنا بعـــد
كل كوني ذاك كوني أنا وحدي أنا فرد[4]

---

[1] عبد القادر الجزائري برونو إيتين ترجمة ميشيل خوري الصفحة: 19 و 20.

[2] ديوان الأمير الصفحة 130.

[3] هذا الفكر يعرف عند الفلاسفة بنظرية وحدة الوجود، وواضعها في الفكر الفلسفي الاسلامي، محيي الدين بن عربي، وهو من غلاة الصوفية.

[4] ديوان الأمير الصفحة 118.

الأمير عبد القادر وجد نفسه مرغما، يقود حربا ضد المحتل الفرنسي، وهو لا علم له، ولا تجربة بفن الحرب، إلا أن الحكم الشرعي اقتضى منه ذلك، لأن المسلمين في الغرب الجزائري، وكذلك بمقتضى الحكم الشرعي، أن يخوضوا جهاد الدفع. الأمير عبد القادر لم يكن مطلوبا لذاته، لأن عبد القادر ووالده رحمه الله لا يملكان شيئا، هو فقه الجهاد فقط يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: « وأما قتال الدفع، فهو أشد أنواع دفع الصائل عن الحرمة والدين، واجب إجماعًا، فالعدو الصائل الذي يفسد الدين والدنيا، لا شيء أوجب بعد الإيمان من دفعه، فلا يشترط له شرط -كالزاد والراحلة- بل يدفع بحسب الإمكان وقد نص على ذلك، العلماء أصحابنا وغيرهم».

نقرأ في كتاب طلع سعد السعود: « وفي هذه المرة قام الشيخ السيد محي الدين بين الناس خطيبا، فشوق للجنة وحذر من النار وذكر فضائل الجهاد والشهداء، وفضل الامارة ورغب الناس فيها ترغيبا، وقال لهم أيها الأمة ينبغي لكم أن تنتخبوا أحدا منكم توفرت فيه شروط الامارة، فتعقدون له البيعة على أنه أمير عليكم، يقوم بأموركم في الجهاد، وفصل الدعاوة بالتأويل، إني لا أرى تلك الشروط مجتمعة إلا في ولدنا الشجاع آغا مصطفى بن اسماعيل[1]، فهلموا معي وأمدوا أيديكم لعقد البيعة له من الآن، وأكون له

[1] لمن لا يعرف من أراده الشيخ محيي الدين، أن يكون أميرا للجهاد آغا مصطفى اسماعيل نعرفه: هو عم والد مؤلف كتاب طلوع سعد السعود الأغا عودة المرازي، هو الجنرال مصطفى بن اسماعيل أنشأ أول كتيبة للقومية، أسسها من قبائل الدوير والزمالة عقد ووقع اتفاقية نصرة مع الفرنسيين سنة 1835 ميلادية، قبل ذلك عرض خدماته على المحتلين أول ما دخلت فرنسا شهر أوت 1830 ميلادية وحارب مع الفرنسيين، لما أعلن المسلمون جهاد الدفع تحت قيادة الأمير عبد القادر، له أدوار خطيرة قبل وبعد الاحتلال أما رفضه لتولي إمامة الجهاد كما اقترحه الشيخ محيي الدين، لأنه قبل أن

واحدا من جملة الأعوان، فأبى ذلك مصطفى غاية ونفر، وهرب منها هروبا من سقر وقال له أيها الشيخ اتق الله فنها، لا تصلح إلا لك دون غيرك، لشرف نسبك وعلو همتك عند الله، وخلقه وقبول كلمتك، وظهور سرك، وقوة علمك، وكثرة خيرك، فأباها كذلك الشيخ المذكور، وقال إني كبرت ولا أطيق على النهوض في القول المشهور، وأن غرضكم في ابني الحاج عيد القادر، و قبلتوه فهو بين أيديكم، وأنتم أعلم بأموركم، وبما من النار يفيدكم.

وانفصل المجلس في تلك المرة من غير اختيار، وترك ذلك لوقت آخر بغاية الاختيار. »

بعد أحداث ومنها معركة النطاح الثانية، أين أظهر الأمير عبد القادر شجاعته، نقرأ في الفصل مبايعة الأمير عبد القادر أميرا للجهاد في كتاب طلوع سعد السعود، هذا الكلام:

يكتفي في هذه الفترة بدور الجاسوس، راجع بعض من أعماله الصفحة 100 ما قبلها وبعدها، وكذلك الصفحة 113 كتاب طلوع سعد السعود، وقراءة الكتاب توحي أن الأمر كله دبر بليل كما تقول العرب بعرفه الدكتور فارس كعوان: الجنرال مصطفى بن إسماعيل ولد سنة 1769 بالعامرية، وكان قائدا لقبائل المخزن غداة الاحتلال الفرنسي رشحه محي الدين والد الأمير عبد القادر لقيادة المقاومة، لكنه رفض وقرر الانحياز للفرنسيين في شهر شعبان 1251 هـ/ديسمبر 1835 م، وقاوم الأمير عبد القادر مقاومة عنيفة حتى أنه فقد يده في إحدى المعارك ضده عُين جنرالا في 29 جويلية 1837 نتيجة الخدمات الكبيرة التي قدمها للفرنسيين، وقُتل في أحد المعارك ضد قوات الأمير عبد القادر في 23 مارس 1843 بمنطقة البيوضة بوهران.

« قال العلامة شيخ شيخنا السيد الحاج أحمد بن عبد الرحمان البوشيخي ثم الشقراني أسكنه الله بفضله دار التهاني، في كتابه القول الأوسط، في يعض أخبار ما حل بالمغرب الأوسط: ولما يجدوا لذلك المنصب الجليل، والمقام الجزيل، إلا ذا النسب الطاهر والكمال الباهر، رايس الملة والدين، القامع لأعداء الله الجاحدين.. وعقد له البيعة أهل الحل والعقد من العلماء والشرفاء والأولياء والأعيان، ففاز بها بحول الله وقوته على غيره من الأقران[1] »

نقرأ في الفصل الغمز واللمز في البيعة: « ولما عقدوا له البيعة بالتغريس، قال بعض أولياء الله بغريس، سبحان الله هذه البيعة لا يستقيم لصاحبها حال، ولا يهنأ له قرار ومنال ولا شفقة له ورحمة في الأعيان وغيرهم من النساء والرجال، وإنما هو سفاك للدماء وليس من السادات الرحماء، لكون أول من بايعه اسمه الأعرج، والمحل المبايع فيه اسمه الدردارة، فلا ريب أن أيامه وأحكامه وأحواله، عرجا ولا تستقيم، وإنما تبقى مدرارة وهل كان اسم ومحل غير هاذين، من الأسماء التي يكون بها التفاؤل ولا تدل على الريب والبين. »

بعد البيعة تقع الحوادث العظيمة، منها حرب الأمير وقبائل المخزن، ثم طلب مصطفى بن اسماعيل الذي اعتبره محيي الدين ابنا له، الخضوع ونصرة الفرنسيين، ثم سعي قبائل المخزن للدخول تحت طاعة سلطان المغرب، ثم الاصطدام بقبائل الدوائر والزمالة أحداث تحتاج كتبا جامعة[2].

أهل الغرب الجزائري لا يحتاجون من يعرف بهم، اجتمعوا وخاضوا حروبا عظيمة ضد المحتل، نعم كان الأمير عبد القادر أميرها، ولأن أهل الغرب كغيرهم من أمة الاسلام خاضوا حربا مقدسة، بذلوا النفس والنفيس، وشهد لهم العالم أنهم تأسوا بنبيهم عليه

---

[1] المرجع السابق الصفحة 104

[2] المرجع السابق راجع الصفحة 117 وبعدها.

الصلاة والسلام في حربهم. تقول الموسوعات العالمية أن المسلمين، ألزموا أنفسهم بحقوق الانسان، لم يقتلوا أسيرا، ولم يعتدوا على ذمي، ولم يفعلوا ما فعل الفرنسيين في الجزائريين، عبد القادر ينسب نفسه للنسب الشريف، وأنه من أبناء سيدنا الحسن رضي الله عنه.

الموسوعات العالمية ومنها لاروس، تخبرنا أن الأمير ولد كما ذكرنا بالقرب من معسكر ينحدر من عائلة أرستقراطية، تنحدر من منطقة الريف المغربية، هو من أصول مغربية والده محيي الدين الحسني، هو مقدم الزاوية القادرية، عائلته تدعي النسب الشريف وكما يفعل كل الأشراف تقريبا في المغرب العربي، يوصلون نسبهم لإدريس الأكبر، هم من ضمن الأدارسة، لذلك محيي الدين وولده يضيفون لفظ الحسني، حتى يميزوا أنفسهم ضمن الأشراف. نشأ عبد القادر في زاوية والده، هذا واقع مع بداية السنة الميلادية 1800 ميلادية، الزاوية التي تعلم فيها واقعة على ضفة واد الحمام، تعلم مع أقرانه العلوم الشرعية التوحيد الفقه، علوم اللغة كعلم النحو، قال أنه تعلم القراءة والكتابة، لما بلغ خمس سنوات، حفظ القرآن الكريم، أتقن حفظه لما بلغ أربعة عشرة سنة، أخذ لقب الحافظ سنة بعدها انتقل إلى وهران، ليواصل دراسته. هنا اهتم أكثر بالشعر وخاصة الشعر الصوفي سنة 1825 ميلادية، قرر أداء فريضة الحج مع والده، أيام الحج لقي الامام الشميل وقع بينهما حديث حول المسائل الدينية، وتكلموا في شؤون الأمة، ما انتهى من فريضة الحج انتقل إلى الشام، ليزور قبر شيخه وأستاذه وملهمه ابن العربي، ثم انتقل إلى بغداد ليزور ضريح سيدي عبد القادر الكيلاني، المعروف في المغرب العربي باسم الجيلاني، هذه الرحلة شكلت شخصيته الفكرية والروحية، وهي الحاكمة على كل أفعاله مستقبلا يضاف لها خبرة سياسية، عرفها لما مر بمصر، تعلم من التحولات والأفكار التي أدخلها حاكم مصر يومها وهو مُحَمَّد علي، ما عاد للجزائر حتى غزتها فرنسا، وأسقطت عاصمتها.

ما دخلت فرنسا العاصمة الجزائرية، وبدأت في التوسع، عرف الأمير عبد القادر أجمل أيامه، الجميع شاهد سقوط حكم الدايات العثمانية، هذا أثلج صدر أعداء الدولة العثمانية الظاهرين والمخفيين، المجاهرين والمسرين. لأن فلسفة تحطيم الحكم العثماني، كانت تشتغل في الأمة من مشارقها إلى مغاربها، وبدأ النتاج يظهر في قيام دول جديدة في الجزيرة والخليج، أو ما وقع في مصر أيام حكم مُحَمَّد علي. إلا أن المنتصر الحقيقي هو سلطان المغرب، العدو الأبدي للجزائر، الرافض لوجودها أصلا، والمبشر بزوالها حتما. لما دخلت فرنسا الجزائر انقسم الناس إلى قسمين، القسم الأكبر الذي شمل الأمة، وهم المسلمون الثابتون اعتبروا الدولة العثمانية دولة الخلافة الشرعية، وما وقع من أحداث مواجهة معها أحداث عابرة، تحدث في كل الأمم، وأن الأصل أن دفع الصائل فريضة عين على كل مسلم. القسم الأقل وهي فئة لها جذور تاريخية من بقايا الدولة الفاطمية الشيعية المجوسية، أئمة هذه الفئة يحملون فكر القرامطة، اشتغلوا عبر القرون على هدم الدين وتفريق المسلمين، ونشر الرذائل ومن أهمها الزنا من أجل التبسيط نسميهم الحلف الماسوني، هؤلاء سيفتحون المدن، ويعدون الجيوش، وعملهم سبق الاحتلال، بالتبشير بقدوم الفرنسيين والكفار.

شهر جانفي 1831 ميلادية، وصل الغزاة إلى وهران، تدافع المسلمون لرد العدوان والد الأمير قام بحملة صد، إلا أنه لاحظ أن الوضع هو أعقد مما تصور، أهل الغرب هنا أعلنوا الجهاد، خاض هو وابنه دفع العدو، ووقفا مع المسلمين عند أسوار وهران.

لما سقط الحاكم الشرعي، وبمقتضى جهاد الدفع ورد الصائل، اجتمع أهل الغرب الجزائري لينظروا في أمرهم، واجتمعت القبائل هذا وقع سنة 1832 ميلادية، طلب الحاضرون وللظرف الحاصل، أن يتولى الأمر السيد محيي الدين والد الأمير، هذا وقع بالمقتضى الفقهي، لأن هذا هو رأي علماء الاسلام، والرأي الشرعي لا جهاد إلا بوجود أمير الوالد

رفض واحتج بكبر سنه كما ذكرنا في بداية الفصل، وعوض أن يشير برجل حرب وهذا هو الأولى في الشرع، أشار بأن يكون ابنه عبد القادر أمير الجهاد، وهذا ليس لقبا ولا رتبة، انما هو من مطالب فقه الجهاد، لأن الوضع يقتضي الحكمة وجمع الشمل. وافق الجميع بحماسة، وقبلوا الترشيح، وتمت تسمية عبد القادر أمير المؤمنين، دائما بمقتضى الحكم الشرعي، وليس السياسي، وتم تسميته سلطانا، وهذا عرف سائد أيام الحكم العثماني كل منطقة لها سلطان، أحمد بن سالم رحمه الله هو سلطان الأغواط، و مُحَمَّد بن عبد الله المجاهد هو سلطان ورقلة، وهكذا عبد القادر ووالده، أعلنا أنهما تحت وصاية وحكم سلطان المغرب.

هذا قسم القبائل الحاضرة، وقسم بعدها الشعب الجزائري، هذا المنصب تم تأكيده رغم الانقسام في المسجد الكبير لمدينة معسكر، لمدة سنة جمع الأمير الجديد بين سياسة الترغيب والترهيب، واستعمل سياسة العقاب ضد خصومه، وهنا ظهر خصام وانقسام عام في القطر الجزائري، من هم أعداء للدولة العثماني و أنصار لسلطان المغرب، ومن هم مع الخلافة العثمانية، بمقتضى أن السلطان العثماني، هو الحاكم الشرعي، وأن الخروج عنه يعد خروجا عن ولي الأمر.

لما استتب الأمر للفرنسيين في وهران، أراد الجنرال الفرنسي لويس ألكسي دي ميشيل رأى أن الأمير عبد القادر هو من يمثل منطقة وهران، طلب منه الحضور للمفاوضات من أجل إحلال السلام، هذا وقع سنة 1834 ميلادية[1] ووقع الأمير على معاهدة سان

---

[1] 1833 ـ 1834 الأمير عبد القادر كان يخوض المعارك ضد القائلين بجهاد الدفع، نذكر بمعركة عمورة قرب المدية، والتي واجه فيها الامير عبد القادر المجاهد سي موسى بن حسن و المجاهدون القادمون من الأغواط وقصر عين ماضي وأولاد نايل، واستعان عليهم بالمدفعية، راجع بالتفصيل فصل معركة عمورة بين السنتين 1833 ـ 1834 وراجع

ميشيل، هذه المعاهدة تعطي الحق للأمير أن يبسط سلطته على منطقة وهران، هذه المعاهدة تم بموجبها وقف جهاد الدفع، وتم تحويله إلى جهاد طلب[1] ومكن فرنسا من تثبيت سلطتها في المناطق الممتدة خارج منطقة وهران، وخاصة ناحية الشرق الجزائري.

معاهدة سان ميشيل دفعت الأمير عبد القادر، ليبسط سلطنه على قبائل الشلف ومليانة و المدية، القيادة العسكرية العليا اعتبرته خروجا عن المعاهدة المبرمة، لمعالجة الأمر سحبت القيادة الجنرال دي ميشيل، واستبدلته بقائد جديد هو الجنرال تريزل

كذلك فصل سيرة المجاهد موسى بن حسن، وتعرف على نصرته من قبل بني لقواط وقصورها، المرجع تاريخ بني لقواط للمؤلف.

[1] جهاد الطلب كما نص الفقهاء هو طلب المشركين والغزاة ، وجهاد الدفع هو دفع المشركين، يعني جهاد الدفع، أن يغزوا المشركون المسلمين في بلادهم وأما جهاد الطلب العكس، ففي حديث بريدة: أن النبي ﷺ كان إذا بعث سريةً، وأمَّر عليها أميراً فأوصاه بخاصة نفسه، ومن معه بأن يتقوا الله عز هذا من جهاد الطلب. الأمير جعل من نفسه دون وجه حق شرعي الامام في حين، أنه فُوض من قبل الأمة كأمير حرب، معنى التغيير أن المسلمين يعودون وينتظرون طلب الإمام، هنا تنتهي ملحمة المسلمين وهزمهم لأعدائهم، ولو كام الأمير هو عبد القادر. لأن أمير الحرب في جهاد الدفع إضافة شرعية، لأن النفير تقوم به الأمة، لو أخذنا بالنية الحسنة للأمير، الظاهر أن لا علم له بأبسط قواعد الجهاد، التي يعرفها الصبي المتقدم لكسب العلم الشرعي، وهذا سيفسر هزائمه التي ستتلاحق مستقبلا.

Trézel1 ألغت فرنسا المعاهدة، بدأت القبائل في التجمع، ومهاجمة القوات الفرنسية العاملة ووقعت معركة المقطع شهر جويلية 1834 ميلادية، أين تعرضت القوة الفرنسية العاملة لهزيمة غير منتظرة[2] لتجاوز الهزيمة، قامت فرنسا بترتيب بيتها الداخلي، باصطلاح علاقاتها مع أنصارها والمتعاونين معها، ومع وجود قيادات جديدة، ففهت الوضع، هزموا الأمير عبد القادر في معارك كثيرة من أهمها معركة السكة.

الرأي العام الفرنسي وأصحاب القرار، انقسموا حول الأمير عبد القادر، والرأي الراجع هو دفع الأمير ناحية ابرام عقد سلام، طُلب من الجنرال توماس روبرت بوغود Thomas Robert Bugeaud أن يفتح باب التفاوض مع الأمير، هذا واقع سنة 1837 ميلادية، بعد مراسلات وُقعت معاهدة التافنة يوم 30 ماي 1837 ميلادية منحت للأمير عبد القادر سيطرة أكبر على أجزاء داخلية من الجزائر، حيث يمتد نفوذه إلى التيطري المجاورة لوهران، بشرط الاعتراف أن الجزائر تابعة لسيادة الامبراطورية الفرنسية.

---

[1] كميل ألفونس تريزل ولد 5 جانفي 1780 ميلادية وتوفي في 11 أفريل 1860 في باريس قاد فرقة عسكرية أيام الإمبراطورية الأولى وتقلد وزارة الحربية.

[2] سبب الهزيمة هو أن الحلف الماسوني في هذه السنوات القليلة لم يحضر بعد القوات التي ستحسم كل المعارك لصالح المحتل كان همه التبشير بقدوم المحتل على شكل تنبؤات هي قصائد تنشد في الأسواق بدأ بالكاد يحضر قوة السبايسية وتم تشكيل كتائب بدائية المعروفة بالزواف إلا أن القوة الضاربة ستكون تشكيل قوة الرماة التي تحسم معارك فرنسا في الداخل والخارج إلى جانب وقوف قبائل مع المحتل.

كما أنهت معاهدة سان ميشيل جهاد الدفع، معاهدة التافنة أنهت جهاد الطلب الذي خاضه المسلمون، اعترف الأمير عبد القادر بأن إفريقيا وبوهما تعني الجزائر، أنها واقعة تحت الحكم الامبراطوري الفرنسي، وتحول الأمير من مقاوم وهذا افتراضا إلى مؤسس دولة هو يحلم بحكمها. أسس له عاصمة هي تاقدامت، بدأ يفرض سلطته السياسية رفض أن يعلن نفسه سلطانا، أي حاكما عاما، لأن هذا يناقض اتفاقية التافنة. الامبراطورية الفرنسية يحكمها امبراطورا واحدا[1] ولا تقبل سلطانا جديدا في أراضيها. أراد أن يؤسس دولة روحانية عرفانية، كما خطها ونظمها شيخه الأكبر ابن عربي، أنهت معاهدة التافنة الحكم العثماني، لأنها أمنت للفرنسيين الغرب الجزائري والوسط، وأضحى بإمكان القوة الغازية، أن تتحرك ناحية قسنطينة لتنهيها. قاوم المجاهد الحاج أحمد باي العدوان، قام بهجوم شامل على الفرنسيين في ملحمة عظيمة، انتهت بسقوط المدينة في حوادث عظيمة من أجل ذلك، نجد أن الأمير خالف الفقه الشرعي، لما نازع الحكم العثماني، ويفترض فيه النصرة لولي الأمر، إلا أن هدفه إزالة الحكم العثماني. بدأ الأمير عبد القادر يؤسس دولته الجديدة هي دولة دينية، أي ثيوقراطية، وأسوته في ذلك سلطان المغرب، منح المناصب الكبرى في الأغلب للطبقة الأرستقراطية، لأنه يؤمن بنظرية الأشراف، وأن الشريف هو من يحكم، ولما أصدر العملة الخاصة به، أسماها المحمدية نسبة لنبينا مُحَمَّد ﷺ.

بعدما أوقف الأمير جهاد الدفع، ثم أوقف جهاد الطلب، قام بهذا الفعل بالتدرج، ثم ساهم في انهاء الحكم العثماني مع سقوط قسنطينة، ولأن الشمال خاضع للمستعمر الجديد أراد أن يقوم بحملة عسكرية ناحية الصحراء، ظهر الأمير بشكل مغاير، لم يعد ذلك

---

[1] الخضوع للإمبراطورية الفرنسية، يعني أن حكم الأمير عبد القادر، كما نسميه الآن في لغة السياسة، هو الحكم الذاتي قواعده معروفة في علم السياسة.

الرجل الذي يحارب العدو ويبتغي وجه الله، وخاصة أيام جهاد الدفع، ظهر كرجل سياسي مغامر، يبتغي بناء دولة تخصه، المشروع الذي حمله في ذهنه هو غزو الصحراء عامة، وغزو عين ماضي خاصة. أخذ طريقه ناحية واد الشلف وضفافه، وحاول أن يلج مناطق التيطري، هذا التحرك قاومه بشدة الحاج أحمد باي، إلا أن ظروف الباي لم تسعفه في رده، وقام كما تقول الموسوعات العالمية ومنها موسوعة ويكبيديا، قام بمجزرة في حق المسلمين الكراغلة[1] Kouloughlis واحتج عليهم، بأنهم ساعدوا قوات الغزو الفرنسية، هؤلاء معروفون باسم كراغلة الزواتنة. نهاية سنة 1838 ميلادية أضحى للأمير دولة، امتد حكمه شرقا حتى وصل منطقة القبائل، وامتد جنوبا حتى وصل بسكرة، ووصلت حدود دولته الحدود المغربية، إلا أن أكبر معاركه في الصحراء هو حصار قصر عين ماضي، استغرق ستة أشهر، انتهى بتحطيم القصر وتشريد ساكنيه.

حتى ينشئ دولته، استعان بالكفاءات العسكرية والمدنية من مسلمين وغيرهم، استعان باليهود والنصارى، ومنحهم المناصب العليا والمهمة، ومن أهم معاونيه العسكريين ليون روش Léon Roches، شكل روش وحدة عسكرية قوامها 2000 مقاتل، تتشكل من متطوعين من القبائل. ليمول جيشه وضع الأمير في المدن الداخلية مستودعات لجمع الأسلحة، حيث قام بتجميع حاجات وأدوات، يمكن بيعها لبريطانيا، ليشتري منها أسلحة

---

[1] الكراغلة فئة اجتماعية كبيرة تسكن الجزائر وتونس وليبيا لهم استقلالية وهوية داخل النسيج الاجتماعي الأصل في وجودهم أن العثمانيين وبحكم المصاهرة تزوجوا نساء المغرب العربي هؤلاء المسلمون لهم وبعدهم أبناءهم ولاء وجداني لأصلهم الأول وهو الدولة العثمانية.

عاش كما يعيش العرب حياة بسيطة تحت الخيم، درس لرعيته معاني الوطنية، ومفاهيم الحرية.

تركته فرنسا يلعب لعبته الطفولية، وتركت أحلام الملك والجاه تراود مخيلته، ما تمكنت فرنسا من الأرض، وأمسكت المناطق، وجندت من الأهالي الكتائب والمفارز، وفي تحدي صارخ للعهود والمواثيق، قام دوق أورلينز duc d'Orléans قاد بعثة استكشافية، تجاوزت أبواب الحديد، وهي حدود مفترضة للحكم الذاتي للأمير، هذا وقع يوم 15 أكتوبر 1839 ميلادية، ثم دخلت القوات الفرنسية مناطق متيجة. أرادت قواته أن توقف التوسع الفرنسي. هنا أعلنت القيادة الفرنسية الحرب على الأمير عبد لقادر بشكل رسمي ومعلن بتاريخ 18 نوفمبر 1839 ميلادية، توقف القتال والسبب أن مهندس اتفاقية التافنة كان غائبا، وانتظر الأمير عودته لعل وعسى يحيي الاتفاقية من جديد شهر فيفري سنة 1841 ميلادية، عاد الجنرال إلى الجزائر، بعد عودته اضحى الجنرال بوغود الحاكم العام للجزائر، جاء بمقاربة جديدة رسمتها القيادة العليا، وهي أن زمن السلم والمعاهدات انتهى، وأن القرار الآن الصريح الواضح هو الغزو، والاستحواذ على الأرض وإبادة الشعب الجزائري.

خاض الأمير عبد القادر حرب الكر والفر، ربح بعضها وكان يعلن بين الفينة والأخرى هدنة مع الفرنسيين، إلا أنها لا تدم وقتا طويلا، بقيت له قوة ظاهرة في الغرب الجزائري لما استطاع، أن يجمع حوله قبائل تسانده، وعرفه خصومه قبل أعدائه بأخلاق الفارس أطلق سراح أسرى فرنسيين، لأنه لم يجد لهم الطعام، أظهر نفسه لمؤيديه كرجل حكيم عالم بالوقائع، وكانت له القدرة على فرض أرائه بالحجة والحكمة اللازمة، ودافع عن مشروعه السياسي والعسكري، ولم يخرج فكره عن التفكير الاسلامي العام، صديق

الأمس عدو اليوم الجنرال بوغود طارد الأمير عبد القادر، وافتك منه عاصمته في معسكر، هذا وقع سنة 1841 ميلادية.

حرب الكر والفر استمرت حتى سنة 1842 ميلادية، التفوق كان لصالح الأمير مع الزمن المارشال بوغود تكيف مع أساليب هذه الحرب، اعتمد فرق المشاة المتحركة الخفيفة، ولعزل الأمير اعتمدت القيادة الفرنسية سياسة الأرض المحروقة، ودفعت بالناس للفاقة والجوع، وعرفت القبائل المجاعات، هذا دفعها للانسحاب من المعارك ونصرة الأمير عبد القادر، سنة 1841 ميلادية فقد حصونه، واضطر أن يدخل مدينة وهران، ثم فقد السيطرة على تلمسان، وبالتالي انقطت اتصالاته مع المغرب.

فقد الأمير عاصمته المتحركة الزمالة شهر ماي 1843 ميلادية بمنطقة طاقين، قائد القوة العسكرية المهاجمة أحد أبناء الملك لويس فيليب دوق أو مالي، استطاع الأمير أن يدخل المغرب، هذا تسبب في وقوع معركة بين جيش السلطان المغربي والحملة العسكرية في المنطقة الحدودية إيزلي[1] إلا أن المارشال بوغود حسمها لصالحه.

ترك الأمير عبد القادر المغرب، وقفل راجعا ناحية الجزائر، خاض حربا ضد الفرنسيين واستطاع أن يحكم السيطرة على سيدي ابراهيم[2] بعد معركة وقعت شهر سبتمبر 1845

---

[1] معركة إيزلي وقعت يوم 14 أوت 1844 ميلادية إيزلي منطقة حدودية عرفت آخر مواجهة بين جيش السلطان المغربي والبعثة الفرنسية ابن السلطان مولاي محمد تولى قيادة الجيش هو ليس بالجيش النظامي بل مجموعات متطوعة مشكلة من القبائل البربرية بني سناسن وقبائل الأنجاد وبني أوكيل حسم المعركة المارشال بوغود لصالحه.

[2] سيدي ابراهيم بلدية تابعة لولاية سيدي بلعباس.

ميلادية، واستطاع سنة 1846 ميلادية التواصل مع منطقة القبائل، إلا أنه لم يستطع الوصول للحدود المغربية، لأن هناك صعوبات جمة.

فقد الأمير القدرة على السيطرة والتحكم، وبدأ يفكر في الاستسلام، بدأت القبائل الجزائرية تنفض من حوله، تخلت عنه قبائل الشرق، ولم يستطع أن يعيد حلفه مع قبائل الغرب. بقيت بقية من بربر الغرب ومنطقة القبائل، ولم ينفعه التحالف الذي قامت به قبائل أولاد سيدي عبيد لاسترجاع الانتفاضة، وما زاد الطين بلة أن سلطان المغرب عبد الرحمن بعد عقد معاهدة طنجة مع الفرنسيين، أمر بطرد الأمير من المملكة يوم 21 ديسمبر 1847 ميلادية. استسلم الأمير وسلم نفسه للجنرال لويس دي لاموريسيير Louis de Lamoricière [1] مقابل الوعد بالسماح له، بالذهاب إلى الإسكندرية، أو عكا، ولما عزم على الاستسلام تكلم لغة الفيلسوف القائل بنظرية الجبر وتعطيل الارادة قال: « إن الله أبطل ما فعلته يداي» تم قبول طلبه وبعد يومين من تسلمه تم وضعه أمام القائد الأعلى للسلطة الفرنسية في الجزائر هنري أورليان دوق أومالي Henri d'Orléans, duc d'Aumale وحتى تكتمل صورة الاستسلام طلب الحاكم العام، وهو العارف بالقيم العربية الاسلامية من الأمير عبد القادر، أن يسلم

[1] لويس جوشاولت دي لاموريسيير Louis Juchault de Lamoricière ولد يوم 5 فيفري 1806 ميلادية، توفي يوم 11 سبتمبر 1865 ميلادية، ضابط عسكري ورجل سياسي عمل على تثبيت الحكم العسكري في الجزائر، من أجل جعل الجزائر فرنسية يسميه العرب بوهراوة، لبطشه وسفكه للدماء.

جواده كرمز لتحقيق الغاية من هذا الفعل[1] الحكومة الفرنسية رفضت الوعد الذي قطعه لويس دي لاموريسيير، بأن يغادر الأمير ناحية الاسكندرية أو عكا، ومنعت ذهابه ناحية المشرق، وأمرت بنقله إلى فرنسا وسجنه.

تم نقل الأمير عبد القادر هو وعائلته، وبعض أتباعه المخلصين كأسرى إلى فرنسا، وضعوا بداية في حصن لامالغ Lamalgue، ثم حملوا إلى مدينة طولون Toulon، ثم حملوا إلى بو Pau شهر نوفمبر 1848 ميلادية، وضعوا في قصر دام بواز Amboise[2]، عرف الأمير ومن معه اياما عصيبة، ظروف الأسر الرهيبة سببها الرطوبة، والبرد القارس الشديد. عرف الأمير المرض هو ومن معه، وعلم أن بقاءه هكذا يعني نهايته هو ومن معه، عرف الناس أخبار الأمير وتشجع بعض الأدباء، وأصحاب المراتب العالية للدفاع عنه من الأدباء إميل دي جيرا ردين، وفيكتور هوغو، طالبوا النظر في وضعية الأمير وقاد السياسي إميل أوليفيه Émile Ollivier حملة رأي عام ومساندة للأمير، ومن

---

[1] لم يسمع العرب والمسلمون في تاريخهم الجاهلي والاسلامي، أن قائدا مهما كانت رتبته سلم نفسه طواعية لعدوه، وأن سلم نفسه بهذه الطريقة المهينة، وترجل وترك صهوة فرسه، وآخر من عرفنا صدام حسين رحمه الله، أبى أن يستسلم، وعلق الناس على حادثة اعتقاله بهذه الأبيات الجليلة العظيمة:

لا تأسفن على غدر الزمان لطالما رقصت على جثث الأسود كـــــــلاب

لا تحسبن برقصها تعلو على أسيادها تبقى الأسود أسوداً والكلاب كلاب

[2] من لا وقت له للقراءة والدراسة والبحث هناك حصة وثائقية تظهر الأيام العصيبة للأمير في قصر دام بواز.

L'émir Abd el Kader à Amboise, le Prisonnier tant aimé (1848-1852)

خارج فرنسا اللورد لند نديري Lord Londonderry زار الأمير في سجنه، ولأن له معرفة سابقة مع الرئيس لويس نابليون بونابرت أثناء نفيه في بريطانيا، راسله في مسألة الأمير، وطالبه بإطلاق سراحه.

عرفت فرنسا ثورة 1848 ميلادية من تغييراتها حذفت لفظ امبراطور، واستبدلته بلفظ رئيس، لويس نابليون بونابرت الآن هو الرئيس مستقبلا، سيحمل صفة الامبراطور ويحمل لقب نابليون الثالث. لما وصل للحكم الأمير عبد القادر ما زال في سجنه، ولأنه واصل جديد، أراد أن يغير بعض سياسات من سبقه، ليظهر التغيير، وجد أنه من المناسب، أن يراجع مسألة الأمير عبد القادر، يوم 16 أكتوبر 1852 قبل سقوط مدينة الأغواط بحوالي شهر، أطلق سراحه ومنحه مرتبا شهريا يتقاضاه، قيمته مائة ألف فرنك على أن يتعهد، أن لا يقوم بأي عمل من شأنه، يحدث اضطرابات في الجزائر. إلا أن الأمر لم يتم في شكله الطبيعي، هناك لوحة شهيرة تظهر لحظة اطلاق سراح الأمير وكيف قامت والدة الأمير بتقبيل يد نابليون الثالث، تطلب منه العفو، والظاهر أن الثمن الثاني الذي دفعه بعدما سلم فرسه.

ما أطلق سراحه حتى أخذ طريقه إلى مدينة بورصة من مدن الدولة العثمانية، سنة 1855 ميلادية انتقل إلى حي العمارة بدمشق وحتى لا ينسى فضل الفرنسيين عليه كتب رسالة على الطريقة الكلاسيكية، كما يكتب الخلفاء والأمراء رسائلهم، وأرسلها للفرنسيين، جاء فيها إن الفرنسيين، هم المثل الذي يحتذي به الرجال في صناعة العلوم وبناء المعارف. تغيرت حياته اشتغل بالفلسفة، وفعل كما فعل فلاسفة القرون الوسطى اشتغل باللاهوت، وهو المزج بين الفلسفة والدين والقراءة الفلسفية للوحي، ومن غرائب فكره التي تحمل الطابع الفلسفي، وترجمت للغة الفرنسية، ما كتبه عن الحصان

الملتحي، ويقصد به الحصان البربري، والبحث عن أصوله الأولى، هذه الترجمة الفرنسية، عرفت تحت عنوان لنتذكر الذكاء.

تعرف في دمشق على شخصيات وربط معهم علاقات صداقة ومودة، خاصة مع جون ديجني Jane Digby، وكذلك مع إيزابيل بروتون Isabel Burton زوجة السيد ريتشارد فرنسيس بروتون Richard Francis Burton عرفوا منه أي الأمير عبد القادر علوم الصوفية، السيدة إيزابيل بروتون تصف الأمير: « رجل يلبس البياض.. برنسه نسج من صوف، لما يلتحفه كأنه ندف الثلج هي واقعة عليه.. إذا رأيته ممتطى صهوة فرسه، تقول هذا لا يكون إلا الأمير عبد القادر نفسه.. ما يركب فرسه ترى الفارس ولرجل النبيل، ما يخفيه يظهره الوجه السمح الجميل[1].»
شهر جويلية سنة 1860 ميلادية تقع فتنة بين الدروز[2] والمارونيين، وصلت الحوادث دمشق، قام الدروز بمهاجمة أحياء المسيحيين، وقتلوا ما يقارب من ثلاثة آلاف من المسيحيين، قبل وقوع الأحداث الامير عبد القادر نبه القنصل الفرنسي، ولما وقعت

---

1 Isabel Burton, Inner Life of Syria, Palestine and the Holy Land, 1875, vol. II, cité dans Mary S. Lovell, A Rage to Live: A Biography of Richard and Isabel Burton (1998), Abacus 1999, p. 513

2 الدروز يسمون أنفسهم الموحدون، هم كاليهود عرقية دينية تدين بالفكر الباطني، تعود أصولها للفرقة الشيعية الاسماعيلية، لهم دين وطقوس تخصهم، ولهم اسرار يتوارثونها هكذا تكون أحداث شهر جويلية 1860 ميلادية، ليست فتنة بين المسلمين والمسيحيين كما يروج لها، الذين قاموا بالأعمال الإجرامية هم الدروز وما زال لهم وجود ليومنا هذا، ومن أراد التعرف عليهم هناك مصادر كثيرة تعرف بهم، ولهم مسالك دينية أما موقف الأمير فهو موقف نبيل.

الأحداث، الأمير استضاف المسيحيين والفارين الخائفين، خاصة من القناصل العاملين في القنصليات المسيحية، واستضاف كذلك الجمعيات الدينية، منها جمعية راهبات الرحمة هرب لبيته الخائفون. الأمير أرسل أبناؤه الكبار للشوارع، للدفاع وحماية المسيحيين ويشهد له الجميع بالدور الكبير الذي لعبه في وقف هذه المجزرة الرهيبة بتاريخ 2 أوت 1869 ميلادية، تكتب يومية القرن الفرنسية: « ما شاهدنا القتل اقتنعنا أنها النهاية لا ريب، انتظرنا قدوم الموت ونحن محاصرون بالخوف والألم، السماء أرسلت لنا منقذا يمتطي فرسه، حضر دون مقدمات، حضر معه جمع من الجزائريين حوالي أربعين حضر شخصه بسمته، ليكون مفارقة للحدث، يراها الجميع.»

ما انتهت الفتنة في سوريا، وسمع الناس أحداثها، وتناقلوا أخبارها، وعلموا ما فعل الشهم الأمير عبد القادر حتى سارع الجميع لتثمين هذا الفعل، من أجل ذلك الحكومة الفرنسية رفعت الأجرة السنوية للأمير لتبلغ 150000 فرنك ومنحوه وسام الشرف الصليب الأكبر، وتلقى من دولة اليونان وسام صليب اليسوع المخلص، ووسام Médjidié الصنف الأول، وتلقى أوسمة من تركيا، وتلقى وساما من بابا الفاتيكان يومها، وتلقى هدية هي زوج مسدس من قبل الرئيس الأميركي أبراهام لنكلن، وتلقى هدية من بريطانيا هي بندقية صيد مطعمة بالذهب، رفعت فرنسا صفة العداء، واعتبرت الأمير عبد القادر بعد هذه الحوادث صديق، يستحق الاحترام و التكريم في آن واحد.

ولأن الأعمال بالخواتيم كما يقول نبينا عليه الصلاة والسلام، الأمير عبد القادر انخرط بشكل رسمي في المحفل الماسوني، هذا وقع يوم 18 جوان 1864 ميلادية، سجل في محفل أهرامات مصر الواقع في الاسكندرية، وهو تحت اشراف المحفل الماسوني الباريسي هنري الرابع، وهذا الحدث موثق تاريخيا، وأهم الوثائق الآن موجودة في أرشيف الحرب العالمية الثانية الروسي. أيام الحرب العالمية الثانية، أدولف هتلر وأثناء اجتياحه لأوروبا

ولأنه عدو لليهود والماسونية، أمر بتتبع المحافل وجمع أوراقها، وهذا ما حصل، ومع نهاية الحرب العالمية الثانية، وهزيمة ألمانيا، تم نقل هذا الأرشيف لروسيا، يومها هو الاتحاد السوفيتي، ومن أراد أن يبحث ويوثق ويستنتج، روسيا ليست بالأرض البعيدة، بثت قناة روسيا اليوم حصة وثائقية، تحدث أنريه سيركوف مدير قسم المخطوطات بالمكتبة الحكومية الروسية، عن علاقات الأمير عبد القادر بالماسونية، نثبت هذا المقطع نقلا عن القناة:

أنريه سيركوف: الأمير عبد القادر فقد كان ماسونيا نشيطا، الأمر الذي كان معروفا عنه طيلة حياته.

المذيع: هل هناك وثائق تثبت ذلك ؟

أنريه سيركوف: على أقل تقدير هناك وثائق وقوائم منشورة بهذا الخصوص، ومن المعروف أنه حاول اقامة علاقات مع الليبراليين الفرنسيين في باريس، وسعى كي يخففوا من وطأة النظام الاستعماري الفرنسي في الجزائر، لكن بعض المعلومات تشير انه كان عضوا في محفل الاسكندرية الماسوني، حين كان في المنفى.

المذيع: هل كانت هناك شخصيات بحجمه من العرب والمسلمين من الماسونيين ؟

أنريه سيركوف: لا شك في ذلك، لكن يجب دراسة الأرشيفات، أنا متخصص في الماسونية الروسية أساسا.

المذيع: صراحة هذا اكتشاف بالنسبة لي، هذا مثير جدا للاهتمام.

أنريه سيركوف: قَلَ من يعرف ذلك، لا سيما بوجود موقف متعصب مثل الماسونية في بعض الأنظمة الاسلامية المعاصرة.

الأمير عبد القادر لبى دعوة نابليون الثالث، لزيارة باريس العاصمة الفرنسية، ما وصلها حتى لقي الترحيب والحفاوة التي تليق به، وعرف استقبالا رسميا، حضي به في القصر الملكي، وكذلك استقبالا شعبيا، وآخر تحرك له صادف ثورة المقراني، أراد أحد أبناء

الأمير، أن يثير قبائل الشرق المنتشرة قرب مدينة قسنطينة، كاتبه الأمير، أن من الذكاء أن لا تغتر، وترمي بنفسك في الهاوية.

مكث مدة عرف خريف العمر، توفي في دمشق يوم 26 ماي 1883 ميلادية، وكما بدأ حياته ختمها، بأن أوصى أن يدفن قرب شيخه الفيلسوف محيي الدين بن عربي، مؤلف الفتوحات المكية، وفصوص الحكم، وترجمان الأشواق.

سنة 1965 ميلادية لما قام الهواري بومدين رحمه، بالانقلاب المعروف بالتصحيح الثوري، ولأن المجتمع الجزائري هو في أيامه الأولى، شعر حاملي الفكر القومي العروبي الناصري، بأن خلع أحمد بن بلة رحمه الله هو ضدهم. وليزيل هواري بومدين هذا الهاجس، أمر بارجاع رفاة الأمير ودفنها في الجزائر، وبالتحديد في مقبرة العالية، وتطور الأمر أكبر من ذلك، حيث عملت دوائر داخل منظومة الحكم على جعله الرمز للرجل الجزائري، فوضعت صورته في النقد الدينار، وسميت به مساجد ومراكز، وأحياء، ولما بنت الجزائر جامعة قسنطينة للعلوم الشرعية، أطلق عليها اسم جامعة الأمير عبد القادر وصورة الأمير لا يخلو منها كتاب مدرسي، وحياته مدرجة في التعلمات، وحجة هؤلاء وما زالت، أنه أول من ساهم في إعادة بناء الدولة الجزائرية.

ليون روشيه Léon Roches، ولد يوم 27 سبتمبر 1809 ميلادية في ظلال كنيسة سانت أندريه بمدينة غرونوبل، فقد أمه صغيرا، قضى طفولته في الكنيسة تحت رعاية خالته المؤمنة برسالة المسيح، والداها السيد والسيدة رولاند Roland هذه العائلة عرفت مأساة أثناء الثورة، هذه القرابة الحميمية شكلت شخصية ليون روشيه، هذه الشخصية المحاطة بالغموض في التاريخ الفرنسي، بالكاد نمتلك لها معلومات، لقد عرفنا سنة 1975 ميلادية معلومات من قبل أكاديمية دلفين delphinale، العارفة بمغامرة ليون روشي مع الأمير عبد القادر، لما تواصلوا مع الأستاذ لا روند Laronde يوم 25 أكتوبر 1975 ميلادية، وبعد لقاء أكد معه أكد أن ليون روشيه عمل قنصل فرنسا في مدينة طرابلس[1] هذه المعلومة الغالية تجعلنا نفصل، ونقول أنه عرف مرحلتين مختلفتين في حياته، الغريب أنه عرف شهرة خاصة في فرنسا قبل سنة 1914 ميلادية، ثم طواه النسيان نهائيا، وجهله الفرنسيون وما عاد معروفا في وطنه، ومُحي ذكره من ذاكرة القرن العشرين.

---

[1] الكلام هنا عن جاسوس قوي له فعل مؤثر، المعلومات عنه شحيحة وعمله في طرابلس ودخوله الجزائر قبل الاحتلال، والتحضير مع والده لغزو واحتلال الجزائر مع جماعات محلية، ثم ظهوره كشخصية قومية ثم طمس أخباره، أين يجهل حتى في وطنه هي طلاسم وخفايا أقبية الجاسوسية العالمية، والمحافل الماسونية النشطة أيام سقوط الجزائر راجعنا موقع Léon Roches ليساعدنا في فهم وقراءة مرجعنا، وهو كتاب روش Dix ans à travers l'Islam لأن فهم شخصيته تمكننا من التعرف على أعمال الأمير في عين ماضي والأغواط لأنه هو مهندسها مع صديق له والله المستعان.

تحصل على شهادة البكالوريا سنة 1828 ميلادية، قام بمحاولة لدراسة القانون ثم فجأة توقف وانقطع عن الدراسة الجامعية، وظهر كتاجر من مرسيليا، سافر عبر كورسيكا وسردينيا، وجنوة، وشمال إيطاليا، يدعي أنه ينوب تجار مارسيليا. لما كان يقوم بمهمة التاجر، والده عمل ملحقا عسكريا بالعاصمة الجزائرية، طلب منه والده الحضور للجزائر لما منحته السلطة العثمانية حق العمل كخبير فلاحي في منطقة ابراهيم رايس، وصل الجزائر يوم 12 جويلية 1832 ميلادية، ما حل بالجزائر تأثر بثقافة الشرق، وقع في الحب والهيام، بين شهر جويلية 1832 و نوفمبر 1839 ميلادية، عشق مرأة اسمها خديجة هي حفيدة آخر وزير للبحرية زمن الداي، من أجلها تعلم وفقه اللغة العربية.

نقرأ في موقع Léon Roches إضافة: يوم 30 جوان 1832 ميلادية، ترك فرنسا ليلحق بوالده في الجزائر، وجده في مشتلة مستحدثة، والده عمل سابقا كقائد لفيلق الاستكشاف، سنة 1830 ميلادية سكن ليون روشيه منزل على الطراز العربي الأندلسي، واقع بجي مراد رايس، تعرف على شابة جزائرية جميلة من عائلة معروفة تسمى خديجة، تقع في حب ليون روشي، إلا أن هناك مشكلة، وهي أن خديجة متزوجة من مسلم. ليون لم يفقد الأمل في نيلها، رغم أنه يعرف بأنه مسيحي، ولا يحق له الاقتران بها، مع ذلك اجتهد وتعلم اللغة العربية، وعمل كمترجم أمام المحاكم، ثم عمل مترجما لدى القيادة العسكرية الفرنسية، الجميلة خديجة أخذت عشيقها، للمناطق الواقعة تحت سيطرة الأمير عبد القادر، وحتى يوثق علاقاته مع عشيقته، اقترب من الأمير وأخفى عنه جنسيته الفرنسية، وادعى أنه ترك ديانته واعتنق الاسلام، وسمى نفسه عمر وأعلن أنه خادم للأمير، هذا اللقاء والترتيب، وقع شهر ديسمبر 1837 ميلادية، وظل معه في علاقة حميمية لمدة عامين.

ليون روشي تزوج خديجة، وحتى يجد له مكان آمنا وبعد عقد معاهدة التافنة التي تسمع للغرباء بالتنقل بين مناطق الفرنسيين، والمناطق الخاضعة لسلطة الأمير، لم يعد عدوا بعد محاولات تقرب من الأمير، وأضحى له السكرتير الأول، وبعد أن أعلن اعتناقه للإسلام، زوجه الأمير خديجة. لما ألغت فرنسا معاهدة التافنة، وتحول الأمير من جديد إلى عدو، رحل ليون روشي لأنه لا يستطيع أن يقاتل أهل ملته، وأعلن للأمير أنه لم يترك ديانته الأولى، إلا أن الأمير صارحه قائلا: الصداقة أعظم شيء في الحياة، غادر ليون روشي هو وصديقه الوفي إيزدور دور ديلو Isidore Bordeleau، وصلا الجزائر العاصمة.

شهر نوفمبر 1839 ميلادية إلى غاية 14 فيفري 1846 ميلادية، عمل تحت قيادة الجنرال بوغود، اجتهد في تثبيت الحكم العسكري في الجزائر، عرض عليه منصب مترجم من الدرجة الثالثة، تعادل رتبة ملازم. طلب منه أن يكتب تقريرا كاملا عما يرصده عند الطرف الآخر، شهر جانفي 1840 ميلادية، تم تقديمه إلى الدوق أور لينز d'Orléans ورغم معارضة حاشية المارشال فالي Valée للتعيين، تم تعيين ليون روشي مترجم من الدرجة الأولى، وأخذ رتبة نقيب يوم 22 فيفري 1841 ميلادية، الجنرال بوغود جعل ليون روشي المترجم الخاص.

وقعت أحداث موزاية، بعدها تمت ترقيته إلى رتبة مترجم رئيسي، إلا أن الوشايات من خصومه طاردته، حتى شعر أنه مهدد بالقتل، وكان ينتظر أن يلحقه الموت في المعارك التي كان يخوضها مع الجيش الفرنسي. بعد ذلك أظهر نفسه للقادة الفرنسيين، أنه عارف بما جاء في القرآن، وأخبرهم أن الاسلام لا يجبر المسلمين على القتال، إذا وجدوا الاحترام لهم ولعائلاتهم، وأن فرنسا إن تعهدت بالاحترام، وكفت نفسها عنهم، المسلمون

لا يحاربوها ولا يقاتلوها، وحتى يتأكد من هذه القراءة، ذهب إلى عين ماضي، أين وجد الخليفة التجاني بعد نهاية حصار عين ماضي، وافقه الرأي.

بدأ ليون روشي، يقوم بأعمال رائعة، أرسله الجنرال بوغود في مهمة حملت طابع سرية حملها للقنصل الفرنسي العام ليون روشي، ذهب إلى علماء القيروان، يخبرهم أنه مرسل من قبل الخليفة التجاني، واستعان بالنقود الذهبية، ليحصل على فتوى تخدم المشروع الفرنسي، نجح في مهمته، وعاد بفتوى من قبل علماء القيروان، تجيز للجزائريين الخضوع للسلطة الفرنسية.

يوم 6 نوفمبر اتجه إلى مصر وإلى جامع الأزهر، حيث تم التصديق على فتوى القيروان وهناك التقى بالجنرال دي سيلفيس de Selves المعروف سليمان باشا، وجده ينظم الجيش المصري الجديد، التقى كلوت باي الذي أسس مدرسة الطب، والكونت إيمانويل دي كوينس وناس الملقب بحسن أفندي، هذا الأخير ستجمعه صداقة خاصة وسيكون لهما لقاء في فندق يرمز للمرحلة القوطية، سيشيد في العاصمة الفرنسية باريس وبالتحديد في شارع مانتين Montaigne.

لما مر بمالطا تلقى من ميريمي Mérimée خطة توصية على شكل رسالة إلى السيد فيلجونس فيرسنل Fulgence Fresnel، قنصل فرنسا في جدة، هذه المدينة هي ميناء مكة، السيد ميريمي رجل مستشرق معروف بفضله، تمكن ليون روشي من السفر إلى مكة، ولقاء يوم 8 جانفي 1842 ميلادية الشريف الأكبر سيدي مُحَّد ابن عون، حيث هو كذلك صادق على فتوى علماء القيروان والأزهر. كل هؤلاء صادقوا بدعوى أن مقدم التجانية الحاضر، أكد لهم أن المسلمين في الجزائر لهم الحق في الخضوع، تم التصديق على

الفتوى، كذلك من علماء بغداد ودمشق والمدينة[1] تم ارسال رسالة بهذا الخصوص للجنرال بوغود، أرسلها القنصل الفرنسي بمدينة جدة. إلا أن واقعة تقع أفسدت مشروع ليون روشي، تعرف عليه جزائريون، وعرفوا المهمة التي جاء من أجلها، ونشروا بين الناس أنه رومي، أي من الروم، فتم اخراجه، ونقله على وجه السرعة خارج البقاع المقدسة لإنقاذ حياته. بعد جهد فر إلى مصر ودخل مدينة الأقصر، وهو في أسوء أحواله النفسية، هذا وقع يوم 27 جانفي 1842 ميلادية، ما زاد الطين بلة، أنه تعرض للسرقة من قبل مغربي، وليسد حاجته امتهن مهنة كتابة التمائم والعزائم، وأظهر نفسه التقي الورع.

أخيرا انتهت محنته، لما نزل مع النيل حتى وصل الاسكندرية، وجد في انتظاره صديقه إيزدور دور ديلو، يوم 3 مارس كتب للجنرال بوغود، وكانت مناسبة ليقدم استقالته بصفته مترجم، اليوم الخامس من نفس الشهر، ركب سفينة إيطالية قديمة اسمها جوان سيفيتا، ليأخذ طريقه ناحية مدينة مارسيليا، غير هويته العربية واستعاد الأصلية

---

1 كل المدن التي ذكرها كانت تحت سلطة الأشراف عملاء الإنجليز، هذا فعل مخابرات الفرنسية والانجليزية، ومن لقيهم ليون روشي عملاء وأدعياء، وهذا المسمى سيدي مُحَّمد ابن عون، سيكون هو أبناؤه عملاء للإنجليز، ويخوضوا الحرب المعروفة بالثورة العربية ضد الدولة العثمانية. إلا أن الله هزمهم وأذلهم، ولهم بقية باقية في مملكة الأردن، أما القول أن الخليفة التجاني أفتى، ولو افترضنا ذلك وهو لا يصح، يكون الخليفة أفتى لنفسه بعد حرب الأمير عليه، وتحطيم قصره وتشريد السكان، فهو في وضع لا يسمح له بالمواجهة وهذا مؤسس في الدين والعبرة في غزوة مؤتة، والله أعلم وأجل.

1

لظروف عاصفة، السفينة الإيطالية غيرت مسارها ناحية غرونوبل، لما نزل المدينة وجد هنري بيل قنصل فرنسا في المدينة.

جمع اللقاء بين الرجلين، وجاء عابرا إلا أنه عبر عن نهاية مطاف، ليون روشي وجد نفسه في إيطاليا، ولأنه مر بمراحل عصيبة، اكتشاف شخصيته وسرقته، وتشرده، اكتشف إيمانه المسيحي، وعرف أن هناك دعوة دينية مطلوب منه القيام بها، شاهد القائم على اليسوعيين، بل توسعت فرصته والتقى مع البابا للكنيسة الإيطالية غري غوري السادس عشر، وعلم البابا أنه مهتم بإفريقيا، رحلة الإيمان لم تدم طويلا، لأن الجنرال بوغود رفض استقالته، وأمره بالحضور للجزائر فورا، هذا ما وقع بتاريخ 25 ماي 1842 ميلادية، واستعاد منصب المترجم مجددا بتاريخ 28 ديسمبر. تم رشيحه لنيل وسام جوقة الشرف، وعرف مدحا واشادة من قبل المارشال بوغود، تأخر تشريفه بسبب شائعات انتشرت، تقول أنه مدان في فرنسا وأنه هرب للجزائر بسببها، ولم يتحصل على الوسام إلا بتاريخ 6 أوت، شهر ماي 1844 ميلادية، تم تكليفه بإدارة الشؤون العربية.

طلب منه المارشال على عجل القدوم إلى الحدو المغربية الجزائرية، قطع مسافة 370 كيلومتر يمتطي حصانه، وصل بعد ثلاث أيام في الأثناء سلطان المغرب الذي هرب إليه الأمير عبد القادر، أرسل ابنه مع تعزيزات. طالب المارشال بوغود ليون روشيه مكاتبة الأمير، يعرض عليه الذهاب إلى مكة مع مرتب يتقاضاه، تم ارسال إنذار إلى سلطان المغرب، للاعتراف بأن هناك حدود يجب احترامها، يوم الفاتح من جويلية المتطوعون المغاربة، باغتوا القوة الفرنسية، ووقعت معركة إيزلي، هذا أوقف جهد ليون روشيه ومع ذلك اعتبر ما وقع بالأمر العظيم. تسللت مجموعة من الفرسان المغاربة الأعداء لتصل العقيد موريس Morris لأنه متقدم، ويمكن الانفراد به، إلا أن التعليمات، وصلته بضرورة الانسحاب من مكانه، والرجوع لمركز التجمع الأصلي، ولأن المشهد تاريخي

الرسام هوراس فيرني Horace Vernet رسم لوحة فنية معبرة، ترسم الاستيلاء على معسكر ابن لسلطان، حيث يظهر ليون روشيه في زيه الرسمي، ويظهر العقيد ريفيت يحمل أوراقا وجدها داخل خيمة ابن سلطان المغرب، هي مراسلة أرسلها السلطان لولده، لم ينتظر، قام ليون روشيه بترجمتها ثم استثمر هذا العمل، لما قام لاحقا بشره في مجلة كبيرة تصدر في الجزائر، وقام بعرضها على كبراء من العرب الجزائريين هذا العمل دفع القيادة العسكرية، لكي تسارع في منحه الوسام الذي وعدته به، وقدم له بشكل قانوني ورسمي يوم 25 أوت.

لما أظهر هذه الكفاءة، طلب منه المارشال بوغود مصاحبته في بعثة ناحية منطقة القبائل، وبالتحديد عند قايد بن زعموم، هذا وقع شهر أكتوبر، والغاية أن يدرس لسان وعادات أقدم ناس سكنوا الشمال الافريقي وهم البربر.

لم يصاحب المارشال في بعثه، لأن هناك طارئ طرأ، وهو أن يرافق ثمانية من كبراء العرب من مناطق قسنطينة للذهاب للعاصمة باريس، ولقاء الملك لويس فيليب، ليمنحهم وسام وردة وضع في صندوق ذهبي، مطرز ومزين بالماس.

سنة 1845 ميلادية، تم تكليفه بتحضير مشروع اتفاقية، تفصل في الحدود الجزائرية المغربية، ولسوء الحظ تم الحاق اتفاقية تجارية مكملة، هذا أثار شكوك، وقلق القنصل البريطاني.

قابل ليون روشيه السلطان المغربي، والتقى بوزير خارجيته وكما هي العادة، بعد نقاشات وحوارات، الوزير الباشا لعراش ويوم 20 جوان، اجتمع في مدينة طنجة مع الفرنسي إيدمي دي شاست Edmé de Chasteau.

ظهرت أهميته الكبرى، وتم تكليفه بالشؤون الاسلامية، واستطاع أن يبني شبكة جواسيس قوية، تجمع المعلومات، مجال عملها يمتد من الحدود المغربية، حتى يصل الحدود التونسية، ولم يتوقف عمله هنا، بل خاض المعارك الجانبية، وبرهن على أنه مفاوض محترف في ابرام الصفقات، وأضحى في النهاية هو المؤتمن على الأسرار، بل قل هو خزانة أسرار المارشال بوغود.

من حقق النتائج العظيمة يستحق المناصب الكبيرة، يوم 15 جويلية 1845 ميلادية تم تعيينه قنصلا عاما بمدينة طنجة، ولأن له أعداء ظهرت الشائعات من جديد، تذكر بماضيه، هذا عطل مساعي التنصيب، ويوم 11 فيفري 1846 ميلادية تم تعيينه القائم بالأعمال المؤقت في غياب السيد دي شاست، وكانت مناسبة ليتزوج ابنته كاميليا يوم 14 ماس 1846 ميلادية بمدينة ملقا Malaga.

تسارع العمل الديبلوماسي حتى وصل سنة 1847 ميلادية، بلغ عمره سبعة وثلاثين سنة، ظهر عليه النضج العقلي، وبدأ حياة زوجية جديدة، أخذ موافقة سلطان المغرب على رجوع قبيلتين جزائريتين، فرت للمغرب أثناء الحوادث الدامية، هما بني عامر وبني هاشم، لجأتا للمغرب سابقا، يكتب في كتابه أنه شعر بالسعادة، وهو يقوم بهذه المهمة وهذا يدل على الصلة الوثيقة، التي تجمعه بالجزائريين.

ولدت له بنتان الأوى ماري سنة 1848 ميلادية، والثانية ماتيلدا سنة 1848 ميلادية سنة 1849 وفي حالة استثنائية، تم قبوله كعامل قنصل، وتم تعيينه قنصل من الدرجة الأولى في مدينة تريست الايطالية، هنا مكن نفسه من التعرف على فنون الديبلوماسية.

بقي حنينه للعالم الاسلامي قائما، استغل فرصة عطلة في العاصمة الفرنسية ليجتهد، كي يعين قنصلا عاما في طرابلس، وهذا ما تحقق له يوم 26 ماي 1852 ميلادية، وجاءت فرصة لكي يقابل الرئيس القادم لفرنسا، وهو نابليون الثالث.

مدينة طرابلس وبرقة دخلت العهد العثماني سنة 1835 ميلادية، بعدما كانت تحت سيطرة فرسان الإسبتارية، يدير الحكم والي هو باشا تابع نيابة للباب العالي في العاصمة القسطنطينية، ليون روشيه تعلم أن الوجه[1] يفتح الطريق عند المسلمين، لذلك حضر نفسه ليكون في الموعد، يوم الاستقبال والتنصيب، حرص على أن يظهر ظهورا ملفتا أمام من حضر التنصيب من الساسة الفرنسيين، والأهم أن يظهر لائقا أمام القنصل البريطاني، ممن حضر العقيد هيرمان الأبي الشجاع، ظهر في الحفل يسعف المترجم الفرنسي الذي دخل في محاورة شديدة مع القنصل الأمريكي جاينز Gaines، العقيد هيرمان استبسل وهو يضع الشروط موضع التنفيذ التي جاءت في رسالة التنازل لسنة 1870 ميلادية، والتعليمات الوزارية الصادرة سنة 1836 ميلادية، التي تظهر العدالة

---

[1] نظرية الوجه نسميها الآن في العلوم اللسانية سيميولوجية الصورة، وهي فرع قائم بذاته يثبت التواصل بين الأنا والآخر، وهذا يفسر اهتمام الأمير عبد القادر بالصور الموسوعات محملة بكم كبير من الصور واللوحات الزيتية للأمير، تظهره أحيانا بمظهر العربي التقي الورع المحارب، وأحيانا بالرجل المهم الحامل للأوسمة والنياشين، وأحيانا أخرى الولي الصالح المتواضع الحواري اللابس اللباس الأبيض الناصع. العارف بفن التصوير يدرك أن هذه الصور الزيتية والفوتوغرافية، لم تأتي ارتجالا بل هي صادرة عن مختصين لهم علم واسع في بناء الشخص وإخراجه، ومن أراد أن يعرف أكثر يراجع نظريات بناء الشخصية وصناعة النجم، نجدها أكثر وضوحا في عصرنا هذا عند الساسة والفنانين العالميين.

الفاسدة للباشا التركي، المفاوضون السويسريون واليونانيين ورومانيا، وكذلك الجزائريون الذين تم الاعتراف بأنهم رعايا، يتبعون الحكم الفرنسي. العقيد هيرمان يعرف القادة العرب أعداء الدولة العثمانية، وهو يتعامل معهم بشكل جيد، وهو ينظر بجد للطوائف الاسلامية الناشئة، وخاصة السنوسية مؤسسها هو من الجزائر، ومن مدينة مستغانم بالتحديد.

يعرف الفرنسيون، أن مدينة طرابلس هي بوابة الصحراء الاقتصادية، مملكة برونو الافريقية ترسل الذهب والعاج والعبيد، ويساهم تجار تونس في النقل والتوزيع، ويساهم كذلك من يسكن مدينة غدامس[1] ومرزوق في كل الأحوال هي بوابتين للتجارة الصحراوية. سنة 1854 ميلادية الباشا حاكم طرابلس، أرسل بعثة ناحية غات واقعة في افريقيا، كتب الباشا في تقاريره: يجب أن يكون هناك صلح في افريقيا، يصل مدينة ورقلة[2] إلا أن هذه الأخيرة احتلتها فرنسا في هذا التاريخ، الباشا التركي، أراد أن يتبع خطوات الرحالة والمستكشف النمساوي بارث Barth، حيث خرج من طرابلس سنة 1850 ميلادية، وذهب إلى بورنو، ووصل مدينة تومبوكتو سنة 1853 ميلادية

[1] مدينة غدامس الليبية فر إليها سكان قصبة بن فتوح في حوادث معروفة في تاريخ الأغواط.

[2] مُحَّد بن عبد الله المجاهد، طلب منه الشيخ السنوسي أيام الحج أن يكون هو أمير الجهاد في الجزائر، يحمل راية السلطان العثماني، وأن ينزل أولا بمدينة طرابلس ويستقبل الاستقبال الرسمي، ومنها يتجه إلى مدينة ورقلة، ومنها ينتقل إلى مدينة الأغواط. لأن الشيخ السنوسي حل بها ووضع خيمته في المنطقة المسماة الآن برج السنوسي، وأعلن النفير والاستعداد للحرب قبل دخول فرنسا للجزائر، وقبل وصول مُحَّد بن عبد الله جاء المجاهد الحاج موسى بن حسن هؤلاء كلهم، وقفوا ضد مشروع الأمير عبد القادر.

الظاهر أن الباشا التركي، أراد أن يسبق الفرنسيين، ويقتحم مجاهل إفريقيا قبلنا بحوالي خمسين سنة.

ظهرت اضطرابات في مدينة طرابلس، قادها كبراء من العرب، يطالبون بعودة النظام القديم، ويطلبون من نابليون تخليصهم من السادة المتحكمين فيهم، مع العلم أن فرنسا في هذا الزمن كانت حليفة للدولة العثمانية بمقتضى المصلحة، أصبح وضع ليون روشيه محرجا لأن التحالف الفرنسي التركي، أخلط مشاريعه، وجعله يغادر المدينة يوم 21 جوان 1855 ميلادية، تاركا وراءه عائلته.1

أخذ طريقه ناحية مالطا، هناك وصله الأمر بالالتحاق بتونس بصفته قنصلا عاما، تغير الوضع في تونس مُحَمَّد باي خلف قريبه أحمد باي، هذا الأخير مثل روح العصر لذلك رحب بالقنصل الجديد وانبهر، وهو يشاهد هذا القنصل الفرنسي يتقن اللغة العربية ويتكلم بالآيات القرآنية، ويبسط النصوص الشرعية بكل ثقة، ويتكلم كلام النصوص المتداولة في الكتب المقدسة، لدى المسلمين.

---

[1] العدو الأبدي للغرب هو الدولة العثمانية، ومشروع ليون روشيه يتقاطع مع المشروع الانجليزي في الحجاز والشام والعراق، وكذلك مع كبراء الماسونية في المغرب العربي لأن ازالة الحكم الاسلامي من مطالبهم الأولى، عملت الدعاية الماسونية مستعينة بالشعراء والمرابطين الأدعياء القائلين بالنسب الشريف، وأنهم هم الأولياء من خوض الحرب النفسية والتمهيد للغزو الصليبي بالتبشير مرة، وادعاء معرفة الغيب أحيانا، وهم في كل الأحوال الدجالون الكذابون، ولأن فرنسا مرغمة ولظروف حرب يطول شرحها تحالفت مع العثمانيين بمقتضى المصلحة العاجلة، هذا أظهر ليون روشيه أمام الخونة الماسون أنه كاذب، وأن ما يقوم به يناقض مصالح فرنسا العليا.

الباي الجديد[1] أصدر قانونا جديدا أين يساوى جميع الناس أمام الضرائب، ويسمع للمسيحيين بالتملك وحيازة العقارات، وأخضع اليهود لأحكام القانون العام، مُحَمَّد باي توفي يوم 22 سبتمبر 1859 ميلادية، وخلفه أخوه، أقنعه ليون روشيه بالذهاب للجزائر العاصمة، لتكون له فرصة لتحية نابليون الثالث، ووفر له باخرة فرنسية لو فودر Le Foudre تنقله، بعد عودته أصابته حمى الاصلاح، ووقع تحت تأثير ليون روشي. بدأ يدخل صناعة الأسلحة، وشرع في صهر الحديد لصناعة المدافع، وشق الطرقات، ورفع المنارات، وقام بترميم قناة زغوان الرومانية، وصك العملات المعدنية، وأصلح نظام الأوزان والمقاييس، يوم 8 ماي 1860 ميلادية، فتح خط التلغراف بين تونس والجزائر المار عبر مدينة قسنطينة، حازت فرنسا حق التحكم في خط التلغراف الواصل من تونس سوسة صفاقس جربة، والذي سيصل حتى مدينة طرابلس.

لم يقبل الناس هذه الاصلاحات، لأنها تزامنت مع موسم حصاد ضعيف، وعرف الناس الفقر وارتفاع الأسعار، وشاهد الجميع كيف أن الفاقة والحاجة سكنت البيوت، أمام عجز كامل للإدارة، أضف لذلك أن الخزينة العامة فارغة ومفلسة، منذ اليوم أن حكم فيه الباي أحمد. ما زاد الوضع تفاقما أنه من اليوم الأول الذي حكم فيه الباي أحمد، رجل اسمه مصطفى خازندار هو عبد تعود أصوله لليونان، تولى رئاسة الوزراء، استفاد لنفسه من كل المزايا التي منحها له معارفه في التجارة، ترتب عن ذلك أنه شهر جويلية 1862 ميلادية كانت ديون البايلك وصلت للرقم التالي: 983 026 28 فرنك ذهبي ارتقى في المناصب، وتولى منصب وزير الداخلية، ثم رئيس المجلس الأعلى، بدأ يوقع الاتفاقيات الرسمية، يوم 6 ماي 1865 ميلادية، اقترض بواسطة حاكم البايلك 35 مليون

[1] هذا الباي هو بذرة العلمانية في تونس المعاصرة وهو الممهد للاحتلال الفرنسي.

فرنك من البنوك الباريسية Oppenheim وErlanger تحصل الباي على مبلغ من الدين مقداره: 941 640 5 فرنك، لما أراد الباي تحصيل الضرائب من مناطق جبال الخمير القريبة من الحدود الجزائرية، تعرض السعاة لإطلاق نار من قبل الأهالي، هذا الفعل هو شرارة ثورة 1864 ميلادية، ستكتسح البلد.

تجاوزت الأحداث ليون روشيه، ونافسه غريمه القنصل العام البريطاني المستشرق العالم بالثقافة العربية والاسلامية، السيد ريتشارد وود Richard Wood مؤهلاته وأصوله وقوة ثقافته، رفعته وجعلت محل ثقة خازندار. السيد جان جانياج Jean Ganiage كتب تقريرا ملخصا خلاصته، أن الدور الذي يقوم به ليون روشيه، لا يلبي مطامح الدولة الفرنسية في تونس، جاء في هذا التقرير:« رجل يفتقد الرؤية المستقبلية، ولا يحزن اختيار الرجال، وهو بطبعه متفائل، ولم يستطع أن يبني سياسة قوة متماسكة ولا برنامج عمل له، هو عفوي في قراراته، يترك مهامه ويخوض في مهام جانبية، شجع مُحَمَّد باي، ليقوم بسياسة اصلاح بناها بأوهامه وخياله، لم يعمل كدبلوماسي له رؤية عمل وممثل يحسن التمثيل، بل استبعد عاملون معه ومع الباي دون وجه حق، هذا الفراغ استفاد منه غريمه الانجليزي، ما حلت سنة 1856 ميلادية، حتى غطى النقص، وما جاءت سنة 1863 ميلادية، حتى كان هو الآمر الناهي في تونس.

من قرأ التقرير رأى فيه الصدق رغم نبرة النقد القوية من أجل ذلك، تم توقيفه يوم 7 أكتوبر 1863 ميلادية، تم تعيينه قنصلا في مدينة بيدو Yeddo عاصمة اليابان، بعيدا عن الاسلام، هذه الأيام اليابان تعرف تغيرات جوهرة، ومعالم ثورة قادمة.

حكم يومها اليابان الشوغون Shogun كان للإمبراطور قداسة دينية، سنة 1825 ميلادية الغرب عموما، طالب بفتح اليابان للتجار والمبشرين الأوروبيين، من عارض الشوغون من قدماء، يسمون قدماء الدايمو Daïmyo، يطالبون بالانفتاح على العالم

الخارجي. تزامن ذلك مع وصول القائد الأمريكي تاونستد هاريس إلى العاصمة اليابانية ووقع سلسلة من الاتفاقيات، هذا أغضب أنصار الشوغون، قاموا بالهجوم على الأجانب وقصفوا سفنهم، هذا وقع سنة 1865 ميلادية، هذا أجج الاضطرابات الداخلية بعد أحداث، سلم آخر قائد من قادة الشوغون سلطته للإمبراطور الشاب ميتسي هيتو Mutsu-Hito، هنا عرفت اليابان الانقلاب الحضاري العظيم، الذي يسميه المؤرخون ثورة الميجي، هنا عرفت العاصمة اليابانية اسما جديدا هو طوكيو، ومن معانيه اللغوية عاصمة الشرق.

نابليون الثالث وحكومته، راهنوا على الجواد الخاسر، راهنوا على الشوغون، بريطانيا وأمريكا ومن هم معهم، راهنوا على التغيير، إلا أن ثورة جانفي 1868 ميلادية، حسمت الموقف، وانتصر خصوم الشوغون، كان على فرنسا ان تغير سياستها بالمطلق، وهذا جعل ليون روشيه، يحدث اقلابا في سياسته، حتى يواكب الحدث بعد أعمال قام بها في العاصمة اليابانية، عاد لوطنه.

سنة 1882 ميلادية، التقى مع الوراق ألفونس كليبر Alphonse Kléber والسيدة فراي إيزلي ابنة المارشال بوغود، وكذلك السيد هنري لورجون ديفيل Henri Le Lorgne d'Ideville الحاكم الاداري السابق في الجزائر، وشخصيات أخرى عملت في الجزائر، طالبوه أن يكتب مذكراته مع الأمير عبد القادر.

ليون روشي عرف خريف العمر، فقد عمته سنة 1873 ميلادية ثم فقد ابنته ماتيلدا وصهره سنة 1876 ميلادية، آن الأوان أن يتذكر ما فاته، سنة 1884 ميلادية كتب المجلد الأول من كتابه إتنان وثلاثون سنة مع الاسلام، ثم أخرج المجلد الثاني، ولم يكمل الثالث. منعه من ذلك المرض، توفي يوم 23 جوان سنة 1900 ميلادية، ولم يكتب تفاصيل حياته مع الأمير عبد القادر، لأن همه الأول كان التعرف على الاسلام من أجل

فهم أتباعه، ووضع فرضيات احتلالهم وقهرهم، وكان يرى أنها أحسن طريق للتبشير بالدين الذي اعتنقه، ودافع عنه وهو المسيحية[1].

كل مسلم قارئ لفلسفة التاريخ العالم بالسنن الالهية، يتمنى لو أن الأمير عبد القادر هو الذي عمل كملحق عسكري في باريس، وهو من اخترق وزير الحربية، وتزوج حفيدته وهو من تعلم اللغة الفرنسية، وفقه الدين المسيحي، وهو من جند له الأتباع من الفرنسيين، وهو من راسل بروسيا عدوة فرنسا لتساعده بالرأي والسلاح، وهو من نشر شبكة الجواسيس، عوض أن تكون ممتدة من تونس إلى الجزائر، تكون ممتدة من إيطاليا حتى ألمانيا. كنا نتمنى لو أنه زار الكنائس البروتستانتية، والأرثوذكسية، وكنائس الشرق، عدوة الكاثوليك، وفتح مسارات معهم، وكنا نتمنى لو أن ليون روشيه هو من قرأ فكر ابن عربي، وعرف نظرية وحدة الوجود، وكيف يكون الدعاء مستجابا عند أضرحة أولياء الله الصالحين، ويعرف أن الله قدر المقادير، وأن المرء يعيش في المكتوب وما يسعنا إلا أن نقول ما قال ربنا في محكم التنزيل: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ فصلت الآية: 46.

[1] Dix ans à travers l'Islam, 1834-1844 (Nouvelle édition) / par Léon Roches,

حروب الأمير عبد القادر على الأغواط وقصورها، وثقها المؤرخون على اختلاف مشاربهم، يخبرنا مؤلف طلوع سعد السعود الأغا بن عودة المزاري عن معركة، نحن أرخنا لها في فصول في كتابنا تاريخ بني لقواط، ألا وهي معركة عمورة التي واجه فيها المجاهد الحاج موسى بن حسن، وأهل الأغواط خاصة، جيش الأمير سنة 1834 ميلادية، إلا أن ما نقرأه عند المزاري هو مختلف، لما يتكلم عن المعركة نفسها يقدم لنا إضافات في غاية الأهمية، وهي معركة سبقت حصار عين ماضي، يذكرها كملحمة خاضها الأمير مع أوثق رجاله، وسأكتفي باثنين منهم فقط قبل عرض فصله، الأمير يحارب الحاج موسى الأغواطي في المدية مع العلم، أن كل من شارك في هذه المعركة، هم من هذه الطينة.

الآغا الحاج مزاري: هو والد مؤلف كتاب سعد السعود، لذلك يعتز به ويفتخر، لأنه مثل والده يرى أن قتل المسلمين وقطع الرؤوس من العبادات لأن من العقائد السرية لهؤلاء أن المسلمين نواصب، وقتلهم وانتهاك عرضهم أفضل قربة لله، ويرون أن الاستعانة عليهم بالكفار جائز، هذا الفكر من ميراث الشيعة المجوس، يعرف الدكتور فارس كعوان عائلة المزاري وهو يرفع الغموض عنهم، ويجعلنا ندرك ونفقه بناء الحوادث التاريخية يكتب تحت عنوان والده الحاج مزاري، اشارة لمؤلف كتاب سعد السعود، ونذكر أن المؤلف عمه مصطفى بن اسماعيل، مهندس احتلال الجزائر في الغرب الجزائري خاصة يكتب الدكتور: أسرة المزاري: والده الحاج مُحَمَّد المزاري، تُعتبر أسرة المزاري من الأسر الأرستقراطية الكبرى في الغرب الجزائري، فوالده الحاج مُحَمَّد المزاري 1774 ـ 1862 ميلادية لعب دورا كبيرا في عهد الأتراك، وبداية الاحتلال فقد انضم إلى المخزن سنة 1790 وكان له من العمر 16 سنة، وحين قامت ثورة درقاوة سنة 1803 حارب مُحَمَّد

المزاري إلى جانب الباي مصطفى بن عبد الله، كما استمر في خدمة المخزن في عهد الباي محمد المقلش سنة 1805 م . ولما تولى من جديد الباي مصطفى قام سنة 1806 بتعيين محمد المزاري في وظيفة سيار، أي مختص بالسير من وهران إلى الجزائر رسولا بين الباي وباشا الجزائر، وهي وظيفة هامة وحساسة، وتعد من أعلى الوظائف المخزنية حينها، ثم ترقى ليصبح قائدا على بني مطهر في عهد الباي بوكابوس سنة 1808 ، وظل في تلك الوظيفة حتى سنة 1817 ميلادية. وشارك في مواجهة ثورة التيجاني في عين ماضي ضد الباي حسن سنة 1826 ، ولما احتل الفرنسيون مدينة وهران، تولى المزاري لدى الأمير عبد القادر وظيفة آغا المخزن، التي ظل فيها حتى سنة 1835 وهي السنة التي قرّر فيها الانضمام للفرنسيين، وتم تعيينه في وظيفة آغا، وفي سنة 1841 ذهب لأداء الحج للمرة الأولى، ولما توفي عمه مصطفى بن إسماعيل سنة 1843 أسندت للحاج محمد المزاري وظيفة قيادة المخزن، التي لم يبق فيها طويلا إذ قرر التنازل عنها في ديسمبر من نفس السنة، ثم ذهب مرة ثانية إلى الحجاز وجاور بمكة، ورجع إلى الجزائر سنة 1848 واستقر فترة بالعاصمة، وحل بعدها بسهل ملاتة قرب وهران، وفي الأخير استقر بهذه المدينة في بيته مفضلا التقاعد، وكان يتقاضى ستة آلاف فرنك في السنة حتى وفاته في 19 فبراير1868 ميلادية. وخلف الحاج المزاري خمسة ذكور وثلاث بنات، فأما الذكور فأكبرهم ولده إسماعيل ثم الحاج مصطفى وبن عودة صاحب طلوع سعد السعود واثنين آخرين.

السيد أحمد ولد قادي: تعتبر عائلة أولاد قادى، أهم بطن من أسرة لبحايتية وسط قبيلة دواير، المعروفة تاريخيا بالقبيلة المخزنية التي انحدر منها إسماعيل ولد قادي، توفى سنة 1864 برتبة ملازم صبايحي، وتزعم القبيلة من بعده أخوه سي أحمد ولد قادي الذي تقلد منصب باش آغا فرندة، و هو حامل وسام جوقة الشرف. أما ابنه الأول علي، فكان قائدا على قبيلة شلاق و ابنه الثاني الحبيب ولد قادي قايد قبيلة لحاميد، أما ابن أخيه

مُحَّد بن اسماعيل ولد قادي، فكان آغا على قبيلة لحشم شراقة. عرفت هذه العائلة كلها بثرائها الواسع في المنطقة الوهرانية، وهي من أكبر العائلات التي خدمت فرنسا، سي أحمد ولد قادي باش آغا فرندة له رسالة فريدة، عنوانها الرحلة القادية في مدح فرنسة وتبصير أهل البادية سنة 1878 ميلادية، يشكر فيها الله على الاحتلال الفرنسي ويعتبر فرنسا مقدسة، وأن الحرب معها ونصرتها في الجزائر وخارج الجزائر من أعظم المقدسات، الرسالة حققتها إلا أنها لم تنشر بعد[1].

نقرأ في كتاب طلع سعد السعود الفصل الأمير يحارب الحاج موسى الأغواطي في المدية الصفحة 125 الجزء الثاني:

« ثم غزى الأمير بجيشه ومعه المخزن بأجمعه مدة الصلح لناحية المدية، لما سمع بالثائر أبي حمار موسى بن الحاج اللغواطي الدرقاوي[2] قادما عليه بالجيوش القبلية، وكان آغة الحاج

[1] مجلة انسانيات إبراهيم مهديد مؤرخ- معهد التاريخ، جامعة وهران مرجع المؤلف: أرشيف آكس، علبة 10 هـ 56.- "سيرة العائلات في عمالة وهران".- مؤرخة 25 فبراير 1868.

[2] أبي حمار اسم اختاره المؤلف تحقيرا وازدراء للمجاهد العالم الشهم الشجاع، سيدي موسى بن حسن الدرقاوي الشهيد، قاهر الحلف الماسوني مؤسس نظرية الجهاد الشرعي، تحت راية الحاكم الشرعي السلطان العثماني، متأثر بنظرية الشيخ السنوسي سنة 1834 ميلادية لما سمع أن الأمير وقع معاهدة سان ميشيل، وأن القوة الفرنسية ارتحلت ناحية الشرق لقتال المجاهد الحاج أحمد باي قسنطينة، وأن الفرصة سانحة لتحرير العاصمة الجزائرية خرج من مدينة الأغواط مع الارباع، وفرق من أولاد نايل ومن أراد النصرة والجهاد من المسلمين، تلقاه الأمير عبد القادر، واستعان عليه بالمدفعية والبارود الذي أخذه من الفرنسيين، وأحدث مجزرة عظيمة، هذه الحوادث راجعها في

مزاري متهيئا للقتال، رائما للمكافحة معه والنزال، ولما حل الأمير بجيشه ببلاد صبيح تعرضوا له في الطريق ومنعوه من المرور ببلادهم وسألوا منه الزطاطة1 كما هي عادة العرب الذين لا حكم عليهم ودأبهم الخلاطة، فتشاور مع آغة المزاري وقدور ابن المخفي وقدور بالصحراوي لا غير، هؤلاء فيما قال الراوي، فقالوا له الزطاطة هي وضع السيف في رقابهم والرصاص في أجسادهم بالزيادة[2]، والانتقام منهم بكل وجه لينتهوا هم وغيرهم عن هذه العادة، وبادر الثلاثة لقتالهم مع جيش المخزن وهم الأعراش الاربعة المتوالية، فلم يكن غير ساعة إلا وصبيح ولت الأدبار والتزمت الفرار بالهزيمة الشنيعة المتوالية وحل بهم الهوان، وصاروا يقولون الأمان الأمان، وقد أثخن فيهم المزاري برفيقيه المذكورين إثخانا عظيما، وأوقعوا بهم إيقاعا جسيما، وغنموا منهم غنيمة كبيرة، وقتلوهم مقتلة عسيرة وكان من جملة المخزن باش آغة السيد أحمد ولد قادي، تابعا لآغة فيما يأمره به من الأشياء التي يكون منه ـ كذا ـ له بها التنادي، وتمادى الأمير بجيشه والنصر يلوح أمامه بسبب المخزن إلى أن وصل لجندل، فحط به عند ذلك ونزل، وتقدم جيش أبي حمار للقتال، وسأل الطعن والنزال، وكان ذلك الجيش كالجراد المنتشر، بحيث غط السهل والوعر، فوقع لجيش الأمير من غير المخزن عند ذلك الفزع، ودخلهم الرعب والجزع، لا سيما الحشم وبني عامر فإنه قد حل بهم شديد القلق، واعتراهم الدهش والخفق، وقالوا للأمير إن هذا السيد لا يتكلم فيه البارود ولا يضره الرصاص المزيد، ولا يجرحه لا هو ولا جيشه الحديد، فقال لهم الأمير إن كان هذا حقا فالأمر لله الحليم الكريم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العي العظيم، فضحك المزاري من قولهم بعدما تبسم، وتيقن جبنهم وما

فصول كاملة في كتابنا تاريخ بني لقواط: الفصل سيرة المجاهد موسى بن حسن ومعركة عمورة 1834 ميلادية، وفصل سيرة الشيخ السنوسي وغيره.

[1] عرف عند العرب هو هدية يقدمها المار على مضارب القبيلة.

[2] استباحة دماء المسلمين شرعة ومنهاجا يُقتلوا لأنهم طالبوا بعرف أن يمنحوا هدية.

هم فيه من الوهن، فتقدم قدور بالمخفي للأمير وقال له يا سيدنا ما قاله لك الحشم وبنو عامر فإنما هو قول الجبان، الذي من شدة الخوف يبدل العزة بالهوان، فقلوبهم خائفة متخوفة، وألسنتهم راجفة مرجفة، فلا تخش من حليل وحقير، ولا من قليل وكثير، فإن مخزنك الباسل معك ولك مطيع وآغتك الشجاع الكامل رايسهم ـ كذا ـ لقولك سامع ولقتالهم سريع، كيف تصغي لكلام من لا يعرف مكايد الحروب، وإنما له المعرفة بطريق التخويف والهروب، فآغتك الشجاع الفاضل بيمينك بجيشه واقفا، ويريد منك الإذن للقتال ليؤمن من كان من جيشك خائفا، كيف يعتريك شيء من الفزع وتسمع لكلام الخائفين المخوفين فيصيبك شيء من الجزع، وأنت على اعدائك المنصور، ما دام المخزن معك سيما البحايثية أولاد اسماعيل أخوتهم النقايبية فأنت الأمير الآمر وآغتك بمخزنه هو المأمور، فعليك سيدنا بالمخزن الذي عند تراكم الأهوال واشتداد القتال يقتحمون الصفوف، ويرون الموت على الفروش من موت حتف الأنوف، وهؤلاء خلط عرب عند التزاحم يحصل منهم الهرب، والقول لا بد له من فعل والربط لا بد له من حل.

فعند ذلك قال المزاري للأمير نعم القول ما قاله قدور، والشجاعة والمعرفة والكرم والثبات إنما في مُتَسعين الصدور وصح فيه بلا ريب قول الشاعر الحاذق اللبيب الماهر: إذا قالت حذامي فصدقوها فإن القول ما قالت حذامي».

نقرأ في كتاب طلع سعد السعود الفصل دور رجال المخزن في هزيمة الثائر الحاج موسى الأغواطي الصفحة 126 الجزء الثاني:

« وحصل المصاف بين الفريقين في وادي وامري بالتحقيق، ولما جاء البعض في محلة أبي حمار لمحلة الأمير وضرب البارود والناس في جزع مما سمعوه بالتوفيق، اغتاظ آغة المزاري ومعه قدور بالمخفي وقدور الصحراوي كثير التدبير، وقالوا للأمير كيف يأتوا ـ كذا ـ لمحلتنا ويضربوننا بالبارود حتى صرنا في التحبير، فقال لهم الأمر لآغة المزاري وأنتم في أتباعه، وما اقتضاه نظره يكون لنا ولأشياعه، فقال بعض الحشم وبني عامر للأمير هم يقولون لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله فما يكون قولنا أيها الأمير الأكبر، فقال لهم المزاري

نقول تذكيتكم[1] باسم الله والله أكبر، فقال الأمير صدق المزاري معلنا، فقولوها والنصر لنا.

وكان آغة المزاري راكبا فرسه الأشهب الطويل الوافي، وقدور بالمخفي على فرسه الأشقر الخلافي، وقدور بالصحراوي على فرسه الأدهم الحلافي، بهذا حدثني بعض من حضر وهو البرادعي ابن عم الزمالي، هو ممن يوثق به في أفعاله والأقوالي -كذا- ثم أمر آغته بالإعلان، على مخزنه وهم الدواير والزمالة والغرابة والبرجية واندرج فيهم بنو شقران وهجم على محلة أبي حمار وساعده قدور بالمخفي في الهجوم واتبعهما المخزن إلى أن أثخنوا في تلك القوم إثخانا كثيرا، وزادوا في الحملة بالهيجان زيدا -كذا- كثيرا، فلم يك -كذا- غير ساعة إلا وأبو حمار قد انهزم بجيشه وولى الأدبار، وركب المخزن ظهورهم وهم في حالة الفرار، وصار يقتل ويأسر -كذا- ويسبي[2]، ويأخذ ما شاءه فيهم من النهبى -كذا- إلى أن أخذهم أخذة جليلة، وقتل منهم كثيرا قتلة جميلة، فلا ترى إلا الرؤوس جيش أبي حمار أكواما عديدة بين يدي الأمير، وهو فارح بالمخزن الفرح الكبير، وغفل عن جيشه من العسكر والخيالة والمطاوعة، ولا ترى إلا بصره شاخصا بنظر المودة البالغة نحو المخزن بنظر المساطعة، وبعث سناجيقه ونواغره وغوائطه[3] وطبوله زاعقة بالضرب و إطراب النغم باللحن الوافر للقاء المزاري بمخزنه، واشتد عضد الامير من بعد وهنه، وقال الآن صَحَتْ وصية والدي، وتحققتها بقلبي وجوارحي وموالدي[4].

---

[1] التذكية مصطلح فقهي الطريقة الموصل لأكل الحيوان المباح أي الذبح المزاري يجيز ذبح المسلمين ويعتبره من مقاصد الشرع.

[2] هذه المعركة وقعت المسلمات من الأغواط وغيرها في السبي ومنهن زوجة المجاهد الحاج موسى بن حسن بذل أهل الأغواط الغالي والنفيس لتحريره هي و أخواتها.

[3] السناجيق رايات النصر النواغر والغوائط آلات النفخ هو الفرح بقتل المسلمين.

[4] هو يقصد العلوم التي ورثها الأمير عبد القادر من والده وكيف أجاز له قتل المسلم.

قال: وكان آغة المزاري في حالة القتال يقول لقدور بالمخفي لما رآه وكأنه الأسد الهايج، يا أخي وابن أخي ورفيقي هكذا نريد منك أن سلعتنا هي الرايج، فأنت لها أهلا، ومرحبا بفعلك وسهلا، فلقد أطلت لنا الرقاب، في نطقك حضرة الأمير بالصواب وأعليت لنا الرؤوس بالعمايم، بفعلك في العدو لقطع الجماجم، فلا ريب أن الدرة من الجوهرة، والرقة من الشجرة، والتمر من النخلة، والعسل من النحلة، واقتحام الحروب حالة التزاحف إنما يكون للشجعان، والفرار من العدو وعند الملاقة أو الرؤية إنما يكون للجبان.

ومات في ذلك اليوم من المخزن مُحَمَّد بالصحراوي، ومات فرس مُحَمَّد ولد قاسم الونزاري وانجرح فرس قدور بالمخفي من الرقبة فيما قاله الراوي، وكانت الضربة فيه سالمة، وجولته ناعمة، فاستخرج قدور فوطة وشد بها حلقوم فرسه، وقال كلا منا لا بد من مآله إلى رمسه.

قال فالمخزن يحب الحروب والمكافحة، ويفرح بالمبارزة والمناطحة، ويريد الجولان بين الصفوف، ويقتحم الحرب بالبنادق والرماح والسيوف ويبتغي الكفاح والقتال، وغيره يحب الراحة وجمع المال، والمخزن ليوث الحرب، ورجال الطعن والضرب، وغيره حضائر الاصطبلات، وعرائر الخصب والنبات، فبين المخزن وغيره بون، كما بين الضب والنون فالمخزن في المثل كبني هاشم وبني مخزوم، وغبره كبني أمية وأخلاط العرب في الفرار وعدم الهجوم[1]، وفي المخزن يصدق قول الشاعر بالبيت الواحد الفريدة ذات المفاخرة:

---

[1] هنا يتكلم لغة الشيعة المجوس، لغة الظاهر والباطن، أكل الضب محرم عند الشيعة وهو تشبيه لقتلى المعركة، يضع لفظ النون تورية عن مهدي الشيعة، كما سكن نبي الله ذي النون الحوت، المهدي المزعوم يسكن السرداب وفي غيبته هم وكلاؤه، ويشرح كلامه ليبسط نظريته الشيعية المجوسية فيفرق بين بني هاشم ومنهم آل النبي، وبني مخزوم ومنهم بني أمية ومن ينضاف لهم من أخلاط العرب، أي أن القتلى هم النواصب الذين ناصبوا العداء لآل البيت كبني أمية، وبالتالي قتلهم هو تقرب لله تعالى، لذلك قدم هذا الفصل على شكل ملحمة من ملاحم كربلاء، وجعل والده المزاري هو بطلها وصانعها.

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم دون النساء وان باتت بأطهار

وكانت هذه الواقعة سنة تسع وأربعين ومائتين وألف، الموافقة لسنة: أربع وثلاثين وثمانمائة وألف. »



قصر عين ماضي يقع غرب مدينة الأغواط بمسافة 72 كيلومتر ويقع شرق قصر تاجموت بمسافة 28 كيلومتر هي لا تبتعد كثيرا عن سفوح جبال العمور، هي حدود جغرافية بين الغرب الجزائري وشماله، بني القصر على قمة جبل يرتفع فوق سهول طبيعية، لما تقف على قمة الجبل يرى بصرك تموج يتقاطع في الأفق ممتد في الأنحاء قمة الجبل، تشكلها قطع صخرية متلاصقة ومتجانسة.

القصر يشكله ما يقرب من مائة سكن متلاصقة تحاذي بعضها بعضا، المسكنان الكبيران في القصر يملكهما القايد وأبناء السيد أحمد التجاني، مؤسس الطريقة الصوفية التجانية دون غيرهما من المساكن يرتفعان. أما باقي المساكن فتتشابه إلى درجة الاتفاق في البساطة والهندسة في الارتفاع والانخفاض، جميعها يشكل ممرات ضيقة ومتقاطعة الأحياء المتراصة كأنها أروقة، تذكر بأحياء بغداد القديمة و غرناطة أيام الأندلس.

تبنى الجدر برصف الحجارة أو اللبن أو الجمع بينهما، أين يوضع الحجر كأسس ثم يعلوه اللبن المشكل من الطين المضغوط مع بعض التبن، من بعيد ولأن القصر في قمة الجبل أنت أمام بناء هرمي، يرتفع إذا ارتفعت، وينخفض إذا انخفضت، هو في كل الأحوال يساير مسارك واتجاهك.

السكان بالكاد عددهم يتجاوز السبعمائة، يمتلكون بساتين عادة ما تكون خارج القصر حدائق غناء تكثر أشجارها، إلا أن النخل إذا ما قيس بواحات الأغواط هو قليل الزغارة قبائل عربية أول من سكنت القصر، أما بناء القصر فهو قديم نسبيا، يمكن أن نتكلم عن زمن سبق دخول العثمانيين للجزائر.

تقول الرواية الشفوية أن رجلا يسمى سيدي مُحَّد، اشترى بثمن بخس مكان جعله مساكن، كانت بداية لتشكل المدينة، وظهور القصر بشكله الحالي، تقول الرواية أن سي مُحَّد، أحضر من المغرب من يساعده في البناء ورفع الجدر، هذا ما يفسر المسحة المغربية في الهندسة والبنا، ء وكذلك في الثقافة والانتماء.
الأجيال التي تعاقبت على القصر، ميزت نفسها بخصوصية القداسة قداسة المكان، أن تعيش على قمة جبل، وتجعل لك في سفحه حدائق هو في حد ذاته فلسفة حياة ووجود، تُشعر الساكن برغبة جامحة في التأمل والإبحار في عالم الموجودات المجرد غير متناه، هنا يتشكل سحاب التصوف، ويتجمع ليكون مطرا غزيرا، يسقي النفوس والأرواح، يسقيها كما يسقي المطر الهضاب والنجوع، فتزهر وتنبت نباتا أخضرا جميلا يمد من حوله بالحياة.

هكذا أراد الله أن يكون قصر عين ماضي، وهكذا كان، زواياه شغلها القراء والفقهاء جاءوه ليجدوا فيه العزلة والهدوء والسكينة، هو يبعد مسافات عن قصور يسكنها الهرج والمرج، تقول الذاكرة الشفوية، أن سبب التسمية بسيط لا تعقيد فيه، سمي القصر بداية بعين، نسبة لعين الماء التي تتدفق بالقرب منه، ثم أضيفت كلمة ماضي، في اللغة العربية من معانيها الحاد والقاطع، كقولنا سيف حاد وقاطع أو قولنا شديد المضاء، إذا وقع على الشيء قطعه.

لذلك عين ماضي لها معنى صوفي هي العين التي يرتوي بها الظامئ العطش، هذه التسمية لم تأتي هكذا عبثا، لأن عادة الصوفية أن يأتي اللفظ عندهم يحمل دلالة الرمز نجد في المعنى مقاربة بين لفظ دنيوي خاص، هو عين ماضي ماؤها يروي العطشان وبين لفظ عام مستلهم من معاني الآخرة، لا يفقهه إلا من علم هذا الحديث الذي رواه الشيخان : عن عَبْد اللَّهِ بْن عَمْرٍو قال : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، مَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنْ اللَّبَنِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنْ الْمِسْكِ، وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهَا فَلَا يَظْمَأُ أَبَدًا ».

العين تدفقها ضعيف بالكاد تراه وتبصره العين، هي وعين زمزم سواء في التدفق كما يرى ذلك المحبين، إلا أنهما كافيتان تكفيا السقاية لذلك خلقتا، لا يدعي لها أحد قداسة قداستها تأتي ممن يأتيها عالما أو معلما، هي تسد حاجته وتعطيه من الماء، ما يكفيه ويسد حاجته.

قلة الماء منعت توسيع القصر مع ضيق الحيز المكاني، لم يجد السكان لهم متسعا، قرروا الرحيل شرقا شكلوا نسيجا اجتماعيا جديدا بالقرب من برج بوعريريج، كانوا نواة نشأة قبائل جديدة هم أولاد ماضي.

عانت عين ماضي من غارات القبائل المجاورة لها، القبائل المتغلبة كانت تسطو على القصر، تسلبهم قطعانهم، مع بداية القرن الثامن عشر جاءت القصر قوات نظامية تريد ضمها لممالكها وسلطانها، جاءها مولاي إسماعيل سلطان المغرب، يريد ضمها ويطالبها بأداء ضريبة تفرض على كل بيت تسمى اللزمة، جاء بعده مولاي يزيد، أضاف لضريبة اللزمة ضريبة الخدمة، تؤدى لرجاله وفرسانه.

سنة 1837 ولد في القصر السيد أحمد ابن مُحَمَّد التجاني، هذا السيد سيعرفه الناس مستقبلا اختصارا باسم السيد التجاني، شخص سيغير مسار التاريخ، هو لا يمكث طويلا في قصر ماضي سيرحل من مكان إلى مكان، يزر شعوبا وأوطانا، رجل يعش بين زماني حياة ووفاة، ولد سنة 1737 أسس الطريقة التجانية سنة 1786 وتوفي سنة 1814 أو 1815 مع ذلك، ستبقى عين ماضي هي مهد مؤسس الطريقة التجانية وتبقى المقر والمستقر ما شاء الله رب العالمين.

سيكون هذا القصر المتواضع أكبر مؤسسة دينية في إفريقيا الشمالية، إشعاعها يصل العالم كله زمن قليل تكتسح العالم وتتجاوز واقعها وتسقط منافسيها، كما يقال في لغة الملاكمة بالضربة القاضية، تتحقق تحققا عينيا بخلق النبوية وهداية القرآن لقوله تعالى: ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ المطففين الآية 20.

لم يستطع السيد عبد الرحمان صاحب جرجرة، ولا الطريقة العيساوية التي ظهرت مع فجر العصر الحديث القرن السادس عشر الميلادي، تنسب إلى مؤسسها الأوّل الشيخ مُحَمَّد بن عيسى المكناسي، سند هذه الطريقة يصل إلى الإمام أبي الحسن الشاذلي، توفي

سنة 656 هجرية 1258 ميلادية، الدرقاوية تنسب للولي الصالح، أبو المعالي مُحَّد العربي بن أحمد الدرقاوي الحسني، ومنها طريقة مولاي الطيب تعرف في الجزائر بالطريقة الطيبية، تأخذ بأوراد الطريقة الشاذلية، هذه وغيرها لم توقف تمدد التجانية.

السر في التوسع والانتشار هو منهج الاعتدال والتوسط والنهل من الكتاب والسنة والنظر إلى سلوك الإيمان في بساطته وعفويته، لا في تعقيداته وتركيباته.

الغرض من الحياة الإيمانية ليس الوقوف على الخوارق والأسرار، بل الإسراع في العمل وجني نتائجه من الواقع مباشرة، دون حاجة لوسيط، هذا يفسر عدم بقاء السيد أحمد التجاني في قصره، بل كان متجولا ناقلا رسالته للناس مباشرة في حياته.

عرف قصر عين ماضي أزمات سنة 1783 حاصره باي وهران مُحَّد الكبير، وطرد سكانه عقوبة لهم، لأنهم رفضوا أداء الضريبة، بالرغم أنها كانت زهيدة، ثم أعادهم إلى قصرهم بعدما اتفق معهم على أداء الضريبة المسماة اللزمة.

عثمان ابن باي وهران مُحَّد الكبير يحاصر عين ماضي، لأن السكان رفضوا دفع اللزمة هذا يحصل سنة 1787 هذه الوقائع كلها أو جلها، وقعت في حياة الولي الصالح السيد أحمد التجاني يفترض أن يكون للشيخ موقف فيما يحصل ويجري.

قبائل أولاد يعقوب وأولاد سيدي مُحَّد ابن يوسف من جبال العمور، وقبائل أخرى هاجمت القصر على شكل غزوات لنهبه وسرقته، السيد أحمد التجاني، ترك ولدان هما السيد مُحَّد الكبير ولد حوالي سنة 1796 الثاني هو السيد مُحَّد الصغير ولد سنة 1799.

السيد مُحَّد الكبير تولى خلافة الطريقة سنة 1822 هذا الأخير رد هجوم الباي مصطفى على القصر الباي مصطفى كان آخر بايات التيتري، حكم بين سنتي 1819 و 1830 بعد خمس سنوات تقع فتن تؤدي بحياة السيد مُحَّد الكبير، تقول الروايات أنه أراد حرب العثمانيين وأنه اتفق سرا مع قبائل عربية مواقعها بين معسكر وسعيدة، وانه تعرض لخيانة قبيلة الحشم.

السيد مُحَّد الصغير خلف أخوه في خلافة الزاوية، عرفت في أيامه الطريقة التجانية انتشارا واسعا، ليس في الجزائر بل في العالم، كله انتشرت في المغرب دخلت كل بيت

فيه، في منطقة التوات الجزائرية، في مناطق الرات والريدام عند التوارق، في الغرب الجزائري وفي مناطق تلمسان خاصة، في مناطق سوف وتقرت، مناطق ورقلة دون استثناء، الأغواط قصورها وقبائل الأرباع كلها، قبائل أولاد يعقوب، وصلت تونس حتى منطقة الجريد، هذه المدينة ينسب إليها البرنوس الأغواطي الشهير الجريدي.

التجانية تجاوزت المدن التونسية لتصل ليبيا وعاصمتها طرابلس، ثم تغطي مدنها وقراها تنتشر لتصل مصر وسوريا في زمن وجيز.

صفوة القول أضحت التجانية في كل قبيلة وقصر وبيت وخيمة، نحن أمام ظاهرة في تاريخ الإسلام عجيبة غريبة، تبث السعادة للمسلم و القلق لأعداء الإسلام، هذه الظاهرة أي الظاهرة التجانية، كان لا بد من الوقوف أمامها ووقفها، تحتاج من أوروبا وقفة.

الأوروبيون يختلفون حول التاريخ والجغرافيا، ولا يختلفون حول عقيدتهم وصليبهم، لذلك تحركت أوروبا بطريقتين، الأولى عسكرية هذه الوظيفة أُسندت لفرنسا، وسمح لها بغزو الجزائر وجاءها الإذن من إنجلترا، الطريقة الثانية دينية ظهرت في نشأة الحركة الوهابية في نجد ومؤسسا الشيخ مُحَمَّد ابن عبد الوهاب 1703 ميلادية،

1791 نجد أن السيد أحمد التجاني والشيخ مُحَمَّد ابن عبد الوهاب معاصران لبعضهما مع تقدم ابن عبد الوهاب في الزمن، لذلك لا نستغرب أن تكون دعوة ابن عبد الوهاب ضد الصوفية تحديدا.

قلنا أن هذا الانتشار العظيم جعل عين ماضي قطب، الناس يأتوها من كل مكان للزيارة وطلب العلم، من زار عين ماضي أيامها قبل أن يصل إليها ليلا أو نهارا عن بعد يسمع قراء القرآن يتلونه آناء الليل وأطراف النهار، هؤلاء كانوا يحضرون معهم للزاوية هدايا، كل قصر من القصور يرسل برنوس للشيخ من أجل البركة، التوارق كانوا يحضرون عبيدا لتخدم الزاوية، ومن هداياهم كذلك للشيخ مسحوق الذهب، من التوارق قبائل كانوا يميزون أنفسهم بعقد يضعوه فيعرفوا بأنهم تجانيون، الشيخ عثمان من كبرائهم، كان يضع مثل هذا العقد، هذه الحركة ساهمت في إنعاش الحياة الاقتصادية في قصورها، قد نتفق و نختلف عن بعض الأفعال، إلا أن الثابت أن الطريقة التجانية ومن معها من طرق صوفية أخلصت واجتهدت، حمت الإسلام على خلاف الطرق الصوفية

المنضوية في الحلف الماسوني الصليبي، لم تستطع فرنسا أن ترفع كنيسة واحدة في ربوع المغرب العربي، ولم يستطع الحلف الماسوني المجوسي، أن يفتح حسينية شيعية واحدة ولله الأمر من بعد ومن قبل.

السيد أحمد التجاني كان له ذكر ودعاء خص به نفسه، ولم يجعله فرضا أو واجبا على غيره، هذه هي صيغته كما كان يذكرها المسلمون أيام السيد أحمد التجاني وأبناؤه : ذكر سيدي أحمد التجاني رضي الله عنه : " اللطيف : مائة مرة أستغفر الله مائة مرة لا اله إلا الله مائة مرة: اللهم صل وسلم على سيدنا مُحَمَّد الفاتح لما غلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آلِهِ حَقَّ قَدْرِهِ ومِقْدَارِهِ العَظِيمِ كذلك اللهم صل وسلم على عين الرحمة الربانية والياقوتة المتحققة الحايطة بمركز الفهم والأوان ونور الأكوان، متكونة الأدم صاحب الحق الرباني البرق الأسطع بمزون الأرياح المالية، لكل متعرض من البحور والأوان ونور كلام الذي ملأت به كونك الحايطة بأمكنة المكان، اللهم صل على عين الحق التي تتجلا منها عروس الحقايق عين المعارف الأقوم صراطك التام الأسقم، اللهم صل على طلعة الحق بالحق كنز الأعظم افاضتك منك إليك، احاطة النور صلى الله عليه وعلى آله صلاة تعرفنا بها إياه الله اثنتا عشرة مرة[1].

الأمير عبد القادر حتى يبسط سلطانه، وضع نفسه أمام القصور والقبائل كالبديل الوحيد للسلطة العثمانية، مشروعه السياسي أن يقضي عليها وللأبد، وإن استحق ذلك بعض التضحية أظهر نفسه في البداية مقاتلا شرسا، يخوض معاركه ضد فرنسا ليكسب ثقة الناس، ويؤمنوا بمشروعه القادم، إلا أن هذا لم يدم طويلا بتاريخ 4 جويلية 1834 في مدينة وهران تقع معاهدة الجنرال دي ميشال والأمير عبد القادر تعترف بإمارة عبد القادر على الغرب الجزائري، عدا وهران وأرزيو و مستغانم، نقرأ في المعاهدة : معاهدة الجنرال ديميشال 26 فيفري 1834 إن القائد العام للقوات الفرنسية في مدينة وهران وأمير المؤمنين سيدي الحاج عبد القادر بن محي الدين قررا العمل بالشروط التالية : المادة الأولى : إن الحرب بين الفرنسيين والعرب ستتوقف منذ اليوم وأن القائد العام للقوات الفرنسية والأمير عبد القادر لن يدخرا وسعا في الحفاظ على ذلك الاتحاد

[1] سبق شرحه أعدت نقله باللغة التي سادت ذلك العهد.

والصداقة التي يجب أن تكون بين شعبين، حكم عليهما أن يعيشا تحت نفس السلطة، ولهذا الغرض سيقيم ممثلو الأمير في وهران و مستغانم و أرزيو، ولمنع الصدام بين الفرنسيين والعرب، سيقيم الضباط الفرنسيون في مدينة معسكر المادة الثانية : إن دين وعادات العرب ستكون محل احترام المادة الثالثة: كل المساجين سيطلق سراحهم حالا من الجانبين المادة الرابعة: حرية التجارة ستكون كاملة وشاملة المادة الخامسة : إن العسكريين الفرنسيين الفارين سيعيدهم العرب ونفس الموقف سيتخذ إزاء العرب المجرمين الذين يفرون من قبائلهم إلى الفرنسيين تفاديا للعقاب، فهؤلاء سيقبض عليهم في الحال ويسلمون إلى ممثلي الأمير في المدن البحرية الثلاث التي يحتلها الفرنسيون المادة السادسة : كل أوربي سيعطى إذا رغب في السفر داخل البلاد جواز سفر موقعا عليه من ممثلي الأمير ومصدقا عليه من القائد العام حتى يجدوا المساعدة والحماية في كامل الإقليم.

بعد توقيع معاهدة التافنة بدأت الاستعدادات الفرنسية لشن حملة ثانية على قسنطينة عين الجنرال دامريمون قائدا للحملة خلفا للماريشال كلوزيل، فبادر بإقامة المعسكرات على طول الطريق المؤدي إلى قسنطينة، وبلغ عدد القوات الفرنسية المجنّدة في هذه الحملة حوالي 13 ألف جندي قسم إلى أربعة فرق عسكرية تحت قيادة الجنرال دامريمون بمساعدة دوق نمور ابن ملك فرنسا، وكذلك الجنرال تريزيل. واجه الحاج أحمد باي الموقف باستدعاء أعيان الإقليم وأخبرهم بالخطر الذي يحدق بهم وبعواقب الحملة، إذا لم يوفر لها مختلف الإمكانيات البشرية والعسكرية لمواجهتها. كما بادر بتنظيم صفوفه تنظيماً محكماً، في 13 أكتوبر 1837 تمكنت الفرقة الثالثة بقيادة كوربان من دخول المدينة من ناحية باب السويقة، حيث دار اقتتال في الشوارع والأزقة، أسفر على سقوط المدينة يوم الجمعة 13 أكتوبر 1837.

انسحب الحاج أحمد باي وأتباعه لتنظيم صفوفهم أملا في مواصلة المقاومة، وحتى يكتمل انتصار فرنسا، يعقد الأمير عبد القادر مع الجنرال بيجو معاهدة ثانية سنة 1837 هي معاهدة التافنة هي منشورة ومعروفة أكتفي بذكر بعض أهم بنودها فقط. المادة 1 : يعترف الأمير بسلطة فرنسا في الجزائر المادة 2 : يبقى لفرنسا في إقليم وهران : مستغانم

ومزغران وأراضيها ووهران وارزيو وأراضيها يحد ذلك شرقا : نهر المقطع والبحيرة، التي يخرج منها بخط ممتد من البحيرة المذكورة فيمر على الشط الجاري إلى الوادي المالح على مجرى نهر سيدي سعيد ومن هذا النهر إلى البحر بحيث يصير ضمن كل ما في هذه الدائرة من الأراضي الفرنسية. المادة 3 : على دولة الأمير أن تعترف بإمارة الأمير عبد القادر على إقليم وهران وإقليم التيطري، والقسم الذي لم يدخل في حكم فرنسا من إقليم مدينة الجزائر لجهة الشرق، بحسب التحديد المعين في المادة الثانية ولا يسوغ للأمير أن يمد يده لغير ما ذكر من ارض الجزائر المادة 4 : ليس للأمير حكم و لا سلطة على المسلمين من أهل البلاد المملوكة لفرنسا ويباح للفرنسيين أن يسكنوا في مملكة الأمير كما انه يباح للمسلمين أن يستوطنوا في البلاد التابعة لفرنسا المادة 5 : إن العرب الساكنة في الأراضي الفرنساوية تمارس ديانتها بحرية تامة، ولهم أن يبنوا جوامع بحسب مرتبهم الديني تحت رئاسة علماء دينهم الإسلامي المادة 6 : على الأمير أن يدفع للعساكر الفرنسوية : ثلاثين ألف كيلة من الحنطة ومثلها من الشعير بمكيال وهران وخمسة آلاف رأس من البقر يؤدى ذلك كله في مدينة وهران على ثلاثة قسوط المادة 7 : يسوغ للأمير أن يشتري من فرنسا : البارود والكبريت وما يحتاجه من الأسلحة، قراءة سريعة ولغير مختص في السياسة وعلم القانون تظهر السقطة التي وقع فيها الأمير هو يقرب سلطة فرنسا عليه وعلى وطنه، ويأخذ من قوت المسلمين ويدفعه لعسكر فرنسا.

مُحَمَّد الصغير الابن الثاني للسيد أحمد التجاني، يعرفه أتباعه بمحمد الحبيب، علم مكانته والدور الذي يجب أن يقوم به، وكان معه من العقلاء والحكماء من يلهمه ويقوده إلى الصواب إن أمكن وكان كذلك معه المندسين، من أراد أن يركب مركب التجانية لحاجة في نفس يعقوب، الزاوية مخترقة بالجواسيس، وسبب ذلك أن ثقافتها وعرفها أن لا تمنع القادم إليها ولا تسأله لما قدمت وماذا تريد، الخطر الذي يهدد الزاوية وما زال هو السياسة وفعلها وخاصة لمن لا يفقهها ويعي سننها، لا يستطيع العامي والشاب الثائر أن يستوعب فقه الحياة ومساراتها، ولا أن يقرأ حركة التاريخ والجغرافيا وتغيراتها، ولا عقل له ولا فهم يمكن أن يفهم قول النبي ﷺ كما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :" هلك كسرى ثم لا يكون كسرى بعده وقيصر ليهلكن ثم لا

يكون قيصر بعده، ولتقسمن كنوزها في سبيل الله وسمى الحرب خدعة". مُحَمَّد الصغير يسمع قدوم الأمير عبد القادر إليه غازيا يركب فرسه، الأمير فقرر أن يواجه ويخوض المعركة، رغم انعدام التوازن العسكري والسياسي، الأمير تقف وراءه فرنسا تفتح له الطريق بمقتضى اتفاقية التافنة تبيعه البارود والمدافع وما يحتاج من سلاح، هو الآن سيخوض معركة لا تستطيع فرنسا أن تخوضها. الخليفة التجاني لرد العدوان ارتمى في أحضان حلفائه وإخوانه الطبيعيين بني لغواط وبني ميزاب، منحته قصور بني ميزاب كميات كبرى من البارود والأسلحة، ثم نظر إلى أنصاره، عاهده أهل عين ماضي أن يموتوا دونه، وكما قالوا له : دماؤنا رخيصة لحفظ ميراث السيد أحمد التجاني، وقف معه كل أهالي عين ماضي قارئيها وقراؤها وساكنيها جاءته فرسان من قصور بني ميزاب، وكذلك من الأغواط وأنحائها.

بدأ تحضير سكان القصر لرد العدوان، الأمير هو الآن في ارتياح خطط لمعركته جيدا مع قدوم فصل الربيع عرب الصحراء وبني لغواط وقبائلهم الأرباع، يتركون قصورهم ومرابضهم، وينقلون قطعانهم نحو التل، أين تكون المراعي الخصبة، الأمير عرف هذا فأراد أن يبدأ حربا اقتصادية على الخليفة وقصره، تتبع حركة جمال الخليفة وقومه وأمر بنهبها على أنها غنيمة حرب، خطط لهذه العملية بسرية كبيرة، ودون ضجيج ودون أن يسمع أي أحد. قامت كما يقال في أيامنا هذه قوات خاصة بخطف الرعاة وحيواناتهم فجأة، حصل هذا في المراعي الواقعة قرب منطقة تسمى اللوحة، غرب ثنية الحد وبالتحديد بين أولاد خليف وأولاد عياد، كانت غنائم الأمير من هذه الغزوة 300 جمل أصحابها أهل قصور الصحراء و100 جمل لسكان قصر عين ماضي خاصة، 131 جمل وجدها مع هؤلاء اعتبر أصحابها أعداء، أخذ ما كان على الجمال، وهي بضائع تعود أهل الصحراء مقايضتها بالحبوب، هذه البضائع في العادة تكون تمر وألبسة وغيرها، لما سمع الخليفة خبر الغزوة، وأنها جاءت دون عداوة سابقة، وأن ما كان يسمع من نية الأمير عبد القادر غزو عين ماضي كان مجرد كلام لا يصل اليقين، كتب السيد مُحَمَّد الحبيب رسالة للأمير يسأله السبب في الاعتداء والغزو، رد عليه الأمير عبد القادر أن فعله هذا لم يأتي انتقاما، إنما حصل بدافع الدين ومن أجل حمايته، وأن الجمال التي أخذناها لم

نسرقها، ولم ننهبها هي جمال أخ احتجناها في حربنا المقدسة. الخليفة التجاني قدم السياسة والمصلحة العامة، وأراد جمع كلمة الأمة اقترح على الأمير عبد القادر، ما يعرف بالميعاد، هي عادة يسلكها من أراد الصلح، وتجنب الحرب، رأى الخليفة التجاني أن يكون الميعاد في المدية، يحضر قايد ينوب الخليفة يحمل رسالة سلام، اعلمه في الرسالة أن ما ينقص الأمير السلطة وليس الإرادة في حربه على فرنسا، تم اللقاء بين الوفدين على عادة العرب، ترجاه من حضر من قبل الخليفة التجاني، أن يعيد ما أخذ من القطعان ويردها لأهلها، لأن الفعل الذي قام به الأمير في عرف العرب هو التحقير والازدراء، وهذا الفعل لا يقوم به من يدعي أنه أخذ مال أخيه من أجل الحرب المقدسة. الأمير قبل هدايا الخليفة التجاني ورفض بالمطلق أن يعيد القطعان لأصحابها ثم أعلن أن الأمان بينه وبين الخليفة التجاني قائم، الأمان هذا عادة يعتمدها العرب عندما يقررون إنهاء الحروب والأزمات بينهم، هذا الحدث يقع بالتقريب بين شهر مارس وأفريل من ستة 1838 نذكر فقط أن الأمير يتحرك الآن بأريحية معاهدة التافنة، التي عقدت كما قلنا سنة 1837 هو الآن يمتلك المدافع والبارود بحكم الاتفاقية. يستطيع أن يهاجم ويقاتل من يحب ويشاء، هذا الصنيع لا ينفع مع رجل محب للسلطة لذلك لما أرادوا خداعه وجعله يوقع على معاهداتهم، كانوا أي القادة الفرنسيين يلقبونه بأمير المؤمنين ويتعاملون معه كما تعاملت إنجلترا مع شيوخ قبائل جزيرة العرب، وكما فعلت مع الشريف حسين وآل سعود وغيرهم. أمير المؤمنين قرر أن يزحف ويزيح عين ماضي ليرتاح هو، وينتقم من الطريقة التجانية، التي تنافسه السلطة والحكم والتألق، ويربح من تعاهد معهم وأمدوه بالبارود والمدافع، وينهي عقدتهم التي جاءوا من أجلها وقف مد التجانية و تدجينها وجعلها مثل الطرق الصوفية الأخرى، الأمير عبد القادر لم يسمع ناصحيه من قادته وذوي الرأي عنده، أخبروه أن قتال عين ماضي نهايته خروج الأمير عبد القادر من الصحراء وإلى الأبد، وأن حجته في أنه يجاهد الصليبيين ستسقط سقوط الورقة في الماء. لم يسمع ولم يعي ما قيل له، تحرك بجيشه وعسكر بمنطقة تاقدامت akdimet ،كان يريد أن يُجمع عسكره وفرسانه، وانتظر قدوم حلفاؤه، جاءه أولاد مختار قائدهم ابن عودة، وحضر أولاد الشايب قائدهم الجديد ابن يوسف، وأولاد خليف

قائدهم الخروبي، وقبائل لحرار قائدهم، جلول وقبائل الحشم، قبائل غير منضبطة لا تخضع لسلطة، ولا تقر حكم، كانوا السبب في ظهور الأمير عبد القادر، وكانوا سببا في سقوطه. قوات الأمير عبد القادر تأخذ طريقها أثناء المسير، يأتيه الأنصار ويكبر جيشه وكان يعلم أن حربه ستكون طويلة وشاقة، حمل نفسه بما يستطيع وما مر من منطقة إلا وأخذ منها حاجته، ما ترك التل ودخل الصحراء إلا وكانت حاجته وافية مستوفية لشروط المعركة، سنساير حركة الأمير وجنده، اليوم الأول بات ليلته في بني مدين ليلته، الثانية بات في عين لبرانس قرب la-Mina تعرف الآن بسهول غليزان في منطقة تسمى عين زيد، ثم انتقل إلى منطقة تسمى العكشي، ثم انتقل إلى منطقة تسمى منزل العطش، ثم وصل واد البيضاء. فرنسا لم تكن بعيدة عن الأحداث، فهي تراقب الوضع بل وتحركه، تكفل بهذه المهمة الفرنسي روش Roche تجمعه بالأمير علاقة وثيقة أرسل الأمير عشرين فارسا من قبائل لحرار، ليقولوا للخليفة التجاني ما يلي : « نحن الأمير عبد القادر لا نستطيع إلا أن نحملك جريرة أفعالك وأعمالك، نحملك السوء الذي يتبعك إن عصيت وأبيت، الحق بنا، نطلب منك أن تأتينا وننصحك أن تترك الطيش وغلبة الهوى، هذا أمر أصدرناه بحقك، أنت لست مواطنا في مملكتنا وسلطاننا، أنت مريد يأتي شيخه ويجلس بين قدميه ». الخليفة التجاني أبلغ من جاءه من قبل الأمير أنه يرد عرضه، وأن لا سلطة للأمير عليه، وأن فعله فعل البغي والعدوان، وأنه يأخذ بعادة العرب، ويطلب منك ميعاد عسى ولعل، يجعله الله مخرجا للمسلمين، حتى لا يقعوا في الفتن، وأنه سيرسل قادة كما يقتضي العرف، وتعارفت عليه قبائل العرب، الأمير عبد القادر كان يستشير صديقه روش الذي يعتبره ابنا له، وكان السيد روش يبذل له النصح، إلا أن الأمور لما أخذت في التأزم، قرر السيد روش ترك الأمير ليرى برأيه وحكمته، كان روش يتمنى أن يحضر الميعاد الذي طلبه الخليفة التجاني، إلا أنه لما أخذ طريقه، تقاطعت طريقه مع المكان الذي يفترض فيه وقوع الميعاد في مكان يسمى سيدي بوزيد، وكانت له فرصة أخيرة ليلقى الأمير قبل أن يغادر المكان. بدأ الميعاد في وقته ومكانه المتفق عليه وحضره الأمير عبد القادر، الحاضرون كانوا حكماء وعقلاء وأهل رأي ومشورة، وعالمين بالدين والعرف، كلموا الأمير قائلين : سيدنا ومعلمنا نريد أن

تتفضل علينا وتعلمنا عن السبب الذي أحضرك للصحراء، حركتك ووجهتك فعلك وعملك، يوحي بأنك تريد حربنا وقتالنا، لا نمتلك شيء نمنحك إيا، نحن لا نملك إلا الحصى والرمال، إنك لن تجني من قتالنا إلا العطش والتعب، وبعدهما سيأتيك الندم. لقد أعطيتنا الأمان وهذا عهد أخذناك منك، وعهده قريب وليس بالبعيد، ثم صمت الجميع وانتظروا جواب الأمير لم يعلق على كلامهم، ولم يهتم بما قالوا، وإنما تكلم كلام الشيخ الزاهد الورع قال : جئت أزر أرض منحها الله لي، فهم الحاضرون قصده، وعلموا أنها الحرب وانتهى الميعاد. ترك الأمير مكانه في سيدي بوزيد[1]، وانتقل إلى مكان يسمى العرفة El-R'orfa عسكر به ثم انتقل قرب تاجموت وعسكر بمكان يسمى الدبدابة، ثم وصل قصر عين ماضي ليعسكر أمامه، هذا يقع بتاريخ 12 ربيع الأول 1254 هجرية بوم 5 جوان 1838 ميلادية، مسيرته من تاقدامت حتى عين ماضي احتاجت 11 يوما، كان يمشي ثم يتوقف وهو ينتظر أن يأتيه الخليفة التجاني مستسلما إلا أن هذا لم يقع، بدأ يظهر من تسلسل الأحداث، أن هناك مبارزة واقعة بين شيخين، هما الأمير عبد القادر أو أمير المؤمنين كما كان يناديه القادة الفرنسيون، وبين شاب هو الخليفة التجاني والجميع ينتظر من يحسم المعركة لصالحه. الأمير عسكر بالضبط قريبا من القصر عند منطقة رأس العيون، الخليفة التجاني خارج القصر حضر وليمة رائعة تليق بمقام الأمير، البعض يسميها الدفة وهي الوليمة الفاخرة، يستقبل فيها القادمون وتوضع أمامهم الموائد وتوزع عليهم الهدايا، هذه يعرفها من يعرف كرم العرب وعاداتهم في استقبال الضيف، إلى غاية هذه اللحظة لم يتوقع أحد الخليفة ولا حتى السكان، أن يقدم الأمير على حربهم ،كل ما سبق كان مجرد هواجس والجميع مقتنع، أن هناك مشكلة بين الأمير وبين الخليفة التجاني، ستجد لها حلا في النهاية، وأن المسألة بينهم مجرد تنافس شخصي، وان كان هناك مشكلة مع ابن السيد أحمد التجاني، فان الأمير يراعي هذا القصر الذي ولد فيه الرجل الصالح السيد أحمد التجاني. ان الفعل الذي سيقوم به الأمير سيكون كفعل العثمانيين فيهم، يأتوا ويحاصروا القصر وغايتهم التأديب، وأخذ حقوق الدولة عليهم، كانت القوات العثمانية تحاصر القصر، وتفاوض الحاكم على دفع

[1] قصر واقع بين أفلو وزنينه يحاذي جبل العمور.

الضريبة الزهيدة، ثم تتركه ولما تفرط تعاقب المسؤول وتحاسبه. الظاهر أن الأمير لم يشفع له الملح والطعام، ولا الهدايا التي أخذها، بدأ القلق يسكن الناس، واكتشفوا شخصا آخر غير الذي قيل لهم عن الأمير عبد القادر، أين كانت الدعاية تصوره أنه أمير المؤمنين وحامي حماهم وناصر دينهم، أرسل الأمير عبد القادر فرسان من قبائل لحرار وقبائل لحشم من أجل إحضار سيدي مُحَمَّد الحبيب إليه، للنظر والتفاوض معه فيما يصلح لحماية الدين، السيد مُحَمَّد علم كيده ومكره، وكذلك غايته فامتنع عن لقائه، وهو يعلم ما فعل فرسان قبائل هاشم في أخيه من قبل، وكيف غدروا به، والمؤمن لا يلدغ من الجحر مرتين. أبلغ الخليفة التجاني من أتاه، أن ما يبتغيه الأمير ليس حماية الدين بل الخيانة والغدر والاقتدار على المكر، ثم أعاد الكرة وأرسل له أنه لا ينوي الغدر كل ما يريده، أن يأتي الخليفة عنده، تكررت هذه المساعي، وعلم الخاص والعام، أن غاية الأمير هو رأس الخليفة ويجب أن يخضعه بالاستسلام أو الأسر، يجب إنهاء مشروع قادم والقضاء عليه، ولا يمكن السكوت عن مشروع السيد أحمد التجاني، الذي هو الآن يتمدد في الآفاق، ولم يوقفه أو يقف دونه أحد، رسالة السيد أحمد التجاني، لم تقف عند بلد العرب هي الآن تدخل بلد السند والهند. صير الأمير ثمانية أيام، وهو ينتظر سقوط خصمه، إلا أنه لم يسقط، بل أن تحديه له هو الذي أسقط مشروع الأمير وجعله واضحا معلوما لا تخطئه العين، وانقلب سحر الساحر فعوض أن يخدمه ها هو يقتله، كانت أمنية الأمير أن يأتيه مستسلما، كان يتوقع ذلك في كل لحظة، إلا أن الرد النهائي يأتيه من الخليفة التجاني المفزع المتزلزل غير المتوقع. تحداه أن ينازله منازلة الفرسان العرب، وكما تفعل الأمم المتحضرة، وأن يترك القصر وسكانه ويلقاه، وتحداه بعبارة يعرفها من يعرف العامية الجزائرية و الأغواطية خاصة صدمه بالعبارة التالية تعالى نيف ـ نيف[1] أذكر أن السيد أحمد التجاني أصهاره أصحاب البشرة السوداء، لأن زوجته الكريمة التي أنجبت مُحَمَّد الصغير كانت سوداء. مُحَمَّد الصغير قوي أخذ من أمه الصفات الجسمية كانت له قوة وبسطة في الجسم، فارس لا يقف دونه أحد، اشتد الغضب بالأمير عبد لقادر وقرر الانتقام، وأسرع في ذلك والمعركة لم تبدأ استطلع الأماكن القريبة من القصر

[1] بالفصحى تعني أنف لأنف صيغة تحدي.

والبعيدة نسبيا، ثم أمر بمهاجمتها واحتلالها إلا أن العملية أخفقت، والسبب أن أصحاب المزارع والأشجار، ردوا الهجوم واستبسلوا في الدفاع عن ممتلكاتهم، وعرف الأمير أول خسائره، انسحب ليعاود الكرة من غد جاء هذه المرة وقد ركبه الغضب، وكاد يفقد وعيه، وبدأ حصار جديد للمزارع والبساتين، وتلقى خسائر جديدة، فقد من قواته المحاصرة أربعة فرسان، بدأ الموت يعزف ألحانه، ويفقد الأمير سعادته ويحطم حلمه، ليجعله شظايا متناثرة. تراجع المدافعون أمام تقدم فرسان الأمير، ووجدوا أنه لا مناص من الرجوع إلى القصر، وأخذ وضعية الدفاع. الأمير عبد القادر قواته تتشكل من ألفين فارس مائتين منهم قوات نظامية، أحضر اثنين من المدافع سلاح المدفعية يشرف عليه ثلاثون من العاملين، ذخائر المدفعية 110 كرة حديدية مع 60 قذيفة، قادة الجيش أربع أغات تحت قيادتهم وإشرافهم 1000 فارس، باقي القوات لحقت به من القبائل هم أربعة بالتحديد : أولاد سي مُحَمَّد تبعه منهم 100 فارس، أولاد يحيى ابن سالم لحقه منهم 15، أولاد عيسى لحقه منهم 30، أولاد سعد ابن سالم لحقه منهم 10 لحق به من جبال عمور 60 فارسا، لحق به من أولاد سيدي الشيخ ابن الدين 80 فارسا، أولاد فرج من بوسعادة لحق منهم 20، لحق من الحجاج الأغواط 40، بالمجمل نحن أمام رقم يقترب من العدد 3585 العدد مع قوات المدفعية ومن لحق يكون العدد الإجمالي لجيش الأمير 8000 رجل. الذين لحقوا بالأمير هم صنفان صنف مؤمن أن الأمير عبد القادر نصرته واجبة لأنه يقاتل الفرنسيين، صنف ثان وهم الأغلب هزهم الطمع، وما يمكن أن يجنوه من معركة هي محسومة للأمير سلفا، قوات الخليفة التجاني تتكون من الأهالي وقوات مساعدة، قواته المقاتلة التي جاءته من خارج القصر 166 فارسا من أولاد سيرغين تحت قيادة يحيى ابن سالم أخ خليفة الأغواط أحمد بن سالم، 170 فارسا من أولاد صالح الأرباع 17 فارسا من فرسان الغيشة، 20 فارسا من تاجموت، 22 فارسا من الحويطة، أضف إلى ذلك بعض ساكني أو زائري القصر الذين تطوعوا للدفاع عن القصر، هؤلاء عددهم 710 منهم من ميزاب الزائرين، وبعض السود المتواجدين، وعدد من اليهود هؤلاء كانت لهم تجارة ومصالح اضطروا للدفاع عن أملاكهم وأنفسهم. المهم الجميع وجد نفسه مضطرا ليدافع عن نفسه وعرضه، حاصر الأمير قصر عين ماضي شهر جمادى الأول

شهر جويلية وأوت، بدأ معركته بمحاصرة البساتين المحاذية للقصر، لم يجد صعوبة تذكر لأنها كانت خالية، ثم اتجه ناحية القصر ليقترب من أسواره، غير مجرى العين التي تغذي القصر، إلا أن السكان كانوا قد جهزوا أبارا داخل القصر، تكفي حاجتهم من الماء، حاول، أن يستدرج بعض سكان القصر لصفه ليساعدوه في الاقتحام، كل هذه المحاولات في النهاية فشلت، عول على قادته وواضعي خططه من أجل حسم المعركة لصالحه، كان يعرف أن قواته، لا قدرة لها على السيطرة على القصر سيطرة نهائية، هو يعرف بخبرته، أن المدافع ليس كالمهاجم من يدافع عن بيته وعرضه ودينه، يستبسل ولا خيار له إلا النصر أو الشهادة، على خلاف المهاجم الذي يمتلك فرصة الانسحاب وبالتالي النجاة. تقدم واقتحم البساتين فقد ستة من رجاله، ظن أن فعله هذا أخاف الأهالي أعلن للأهالي أنه يريد السلم وطالبهم بالاستسلام، وأنه مستعد ليسمع من أحد قادتهم، أرسل فارسان وعبدان يحملان رسالته ذكروها للأهالي جاء فيها : « نعطيكم ما تطلبون منها ونلبي رغبتكم » لما عادا إلى الأمير وأخبراه أنهما أديا الرسالة لم يعجبه الرد، لأنه كان ينتظر من الأهالي أن يسلموه الخليفة وهذا لم يقع، وما كان سرا أضحى ظاهرا أصدر أمرا نافذا لأهالي القصر : ليس أمامكم إلا أن يحضر التجاني لخيمتي هذه، ثم تحملن أسلحتكم وذخائركم وتحضروها، ثم تفتحوا بابا من قصركم ليدخل فرساني، هذا الأمر رفضه الخليفة التجاني، ورفضه سكان القصر هي الحرب لا محالة. بدأ الشهر الثاني من الحصار جمادى الثانية أوت وسبتمبر إلى غاية الآن كانت الحرب ومازلت مجرد مناوشات بين الفريقين، كان ثمنها سقوط ثمانية من المدافعين عن القصر. عاد الأمير عبد القادر للمناورة، طلب من خليفة القصر وسكانه دفع مبلغ مالي بصفة تعويضات حرب تعطى للأمير مقدارها 20000 ريو réaux تعادل 37,200 francs فرنسي، إن دفعت الأمير يرفع الحصار وينسحب، ولأنه عالم بأحوال القصر، فانه سيكتفي بنصف المبلغ يأخذه حاضرا والباقي يحدد له موعد دفع هذا الفعل الذي أقدم عليه غايته، أن يظهر أنه رجل إيمان وتقوى وحريص على مصالح المسلمين، وإن اختلف معهم، وحتى لا يضيع حق الأمير ويضيع منه نصف المبلغ المتفق عليه، سيأخذ الأمير رهائن هم شباب من عائلات معروفة داخل القصر وعَدَدَ العائلات وهي : أبناء قدور ابن إبراهيم، الطاهر ابن

بلقاسم، مُحَّد ابن داود، ميلود الشنقيطي، كويرة ابن فكرين، العيمش قرزدالي، العربي ابن تويمي، عطا الله ابن بعيليش، هو الهدوء الذي يسبق العاصفة. يحضر السلام بين الفريقين، ويتدخل أهل الصلح حتى يقول القائل ها نحن قاب قوسين أو أدنى من السلم والعافية، إلا أن العالمين يعرفون أن الأمير يريد أن يخرج من المعركة منتصرا، نصره في إذلال الخليفة التجاني وجعله تابع له، بعد عشرين يوما وبالتحديد في الثلث الأخير من شهر رجب بين يومي التاسع و التاسع عشر من شهر أكتوبر بدأ الأمير يقرع طبول الحرب، ولأنه سياسي أظهر نفسه بمظهر الولي التقي، وأرسل للخليفة التجاني يخبره أنه يريد صلاة الجمعة في مسجد القصر. سيدخله هو وجنده حتى تنزل البركة والرحمات على السكان، وأن أعين السكان تقر وتسعد لما ترى سلطانه وأمير المؤمنين عبد القادر يعلو المنبر ويأخذ البيعة له ويعاقب العصاة والمتمردين[1].

---

1 مرجع مادة الفصل المجلة الافريقية:

Hadj Abd-el-Arnaud Interprète militaire Siege D’ain Madi. Par El Kader b. mo hie Eddine I

أمام تطور الأحداث وتلاحقها قرر الأمير عبد القادر، أن يدعم قواته فأضاف 150 من الجنود النظامية وكذلك 3000 من المقاتلين العرب، هذه إضافة مهمة تمكن من السيطرة النهائية على محيط القصر، لأن المدافعين تقدموا خارج القصر، واحتموا بالأشجار والنخيل وجعلوها جبهة متقدمة، المعارك السابقة علمتهم الأمكنة والمناطق التي تعطيهم القدرة على الرمي المباشر، وتمنع عدوهم من التقدم، وتعلموا من معاركهم السابقة كذلك الدقة والتفوق في الرمي وإصابة الهدف.

الخليفة التجاني لم يكن قاعدا ماكثا في بيته كما يقال، أدار المعركة و نشر الوعي بين مقاتليه، وأظهر لهم حقيقة خصمه، في يوم ولما كان يترصد مواقع وحركة المحاصرين وينشر الأعين، علم أن الأمير عبد القادر، يتفقد جبهته الأمامية، كمن له وأخذ بندقية وانتظر قربه وهكذا كان الأمر، بدقة عالية نشن ورماه برصاصة رغم بعد المسافة اخترقت الرصاصة لجام الحصان وقطعته.

استبسال المدافعين أقلق المحاصِرين، أضحت حركتهم مقيدة بالنهار، هم يظهرون أحيانا في الليل لأن المدافعين في هذا الوقت، يركنون للراحة بعد تعب النهار، الخسائر عند المدافعين محدودة قتل أربعة منهم يهودي وامرأة مسلمة من سكان القصر، المشكلة لم تكن هنا هي في تناقص الذخائر، هذا جعل الخليفة يرسل رجلا يثق به إلى منطقة ميزاب وبالتحديد بني يسغن، يسأل بني ميزاب النصرة، ويرسلون ما استطاعوا من مواد تمكنهم من رد عدوهم، ذهب الرجل وعاد معه ستة من الجمال المحملة بمادة الملح الصخري، هو مادة أولية لصنع ذخائر البنادق، إلا أنه لم يستطع أن يدخل الجمال ولم يجد لذلك حيلة.

لم يكن أمامه إلا أن يتعاون مع رجال من داخل القصر، ويدخلون هذه المواد ليلا مستعملين برانسهم، عدد الرجال الذين تكفلوا بهذه المهمة الصعبة 20 وما كان أمامهم إلا انتظار الليل وتحين الفرص السانحة، هذه المهمة حالفها الحظ ونجحت، لأن هناك قافلة

محملة بالبارود قادمة من بني ميزاب، أكتشفها جنود الأمير، ومنعت من الوصول، عدم وصولها أحزن المدافعين.

الأمير عبد القادر ظهر له الانسداد، وأن الإبقاء على الوضع كما هو غير قابل للاستمرار، وأن الجهد السياسي الذي قام به نهايته كانت الفشل، وأن الحيل والخدع التي انتهجها، لم تحقق غاية ولا هدفا فما كان منه إلا أن جمع قادته وأفراد من عائلته والحكماء وأصحاب الخبرة، نهض وتكلم أمامهم قائلا : « تكلموا لا تصمتوا أنا سامع لنصحكم ومشورتكم، قولوا ماذا يجب أن أفعل وما هو الفعل الذي يجب تركه، كلموني وأخبروني كيف نواجه هذه الحوادث الجسام.

أسألكم عن الحكمة التي تحقق غايتنا لا أخفيكم سرا، لقد جئت بنية هدّ القصر وإسقاط أسواره، ولا أتركه إلا وهذا الخليفة التجاني يطلب العفو والصفح مني، سلوكه معي سابقة تستحق وتستوجب العقاب، وأنا مصمم وعازم على ذلك، كيف أسكت على تصرفاته وتحدياته، وكيف ينظر لنا الأعداء في مستقبل الأيام.

سيزدروننا ويحقروننا بجريرة فعله، ماذا تقول القبائل لما تسمع أن الأمير عبد القادر خذلته أسوار عين ماضي هذا المتمرد حجته عليه واضحة، ماذا يقول عني الناس لما أشاهد راجعا قافلا عاجزا، لم أستطع أن أهزم جدران قصر، إن سعادتي واستعادة شرفي لا ينسفها قصر حقير، لن تكون سعادتي أن أدخل خيمة وليمة وأزهو فيها مع رفقتي».

ما أنهى الأمير عبد القادر كلامه حتى نهض الحاج مصطفى أخ الأمير، وكان أول المتكلمين بعده، وعرض خطة تنهي الإشكال قال : « نتظاهر بالانسحاب ونبتعد مسافة 200 ميل ـ 3760 متر ـ نصل إلى مكان يمكننا من أن نميز بين المرأة والرجل، بهذه الطريقة نمنح فرصة لمن يريد مغادرة القصر، هؤلاء هم عادة غير المسلحين، هم تعبوا من طول الحصار ما يغادر هؤلاء حتى نعاود الحصار، البقية الباقية سيكتشفون ضعفهم ولا يكون أمامهم إلا الاستسلام ».

أجابه الأمير: « هذه الحركة غير مفيدة وتتنافى مع الحذر، هذه الحركة يفهم منها أن الأمير قد انهزم وأن الخليفة انتصر، هذه تغير معادلة الحرب من النصر إلى الهزيمة، وهذا أرفضه».

عاد الحاج مصطفى للكلام : « أريد أن تسمح لي وتجعلني مفاوض وأبلغ الخليفة التجاني هذه المحاذير وسأعطيه من الوعود ما يجعله ينخرط في التفاوض، وتكون النتيجة أن يقبل وأحضره عندك، وأنهي مهمتي ناجحا مكللا بالنجاح».

الأمير وافق أن يكون وسيطا بينه وبين الخليفة التجاني، في المجلس من اعترض، إلا أن الأمير طلب بالإسراع والقيام بالمهمة مهمة التفاوض، الحاج مصطفى كتب للسيد مُحَمَّد الخليفة التجاني : « أعرف وأقدر الشعور بالخوف الذي ينتابك منا، وأن تقع في مكرنا وخديعتنا، اطمئن آتيك في قصرك، ولن أغامر وأخرجك حتى آخذ لك المواثيق ونعطيك الأمان أمان الرجال، وسأشهد كبراء القوم أن لن تتعرض لا للخديعة ولا للمكيدة، ولن يأتيك الشر من قبلنا، سآتي وأحملك من مكانك وأنت في أمن وأمان، وسأسقط كل الأوهام التي تجدها في نفسك، وأول ما تلقانا ما تجد إلا الخير الذي أردته، وستجد أن الذي وقع وحصل بيننا قد طويناه وأنهيناه».

رد عليه الخليفة التجاني : « تطلب مني أن آتيك وأحضر عندك، أنت تعرف أنني لست بالرجل المتهور أو المتسرع، أو غير الحكيم الذي لا يحسب للعواقب حسابها طلبتم منا دفع ضريبة اللزمة وأنت تعرف أنها والجزية سواء، إن حركتنا ودفاعنا عن أنفسنا وأعراضنا جاء ضد مطامعكم، أما عن خروجي من القصر هذا حلم بعيد المنال، ولن يقع إلا في وهمك وخيالك».

ما وصلت رسالة الخليفة التجاني، الحاج مصطفى استشاط غضبا، وأسرع ودخل خيمة أخيه وخاطبه قائلا : « لقد قرأت جوابه هو ليس باللين كما ظننا، هو داهية حذر وليس بالصغير الغر، أظهرن له من العطف والشفقة ما يجعله يرتد لصفنا إلا أنه أبى، هو يحتاج لترويض سنروضه كما تروض الشاة الشاردة وسندفعه ليلحق بنا آجلا أم عاجلا».

الأمير عبد القادر شق عليه مثل هذا الكلام، وشعر بتمزق داخلي وهانت عليه نفسه وها هو كبرياؤه يتساقط وينثر على الأرض، لذلك قضى أن يؤدب هذا الشيخ الصغير ويعرف مقامه، ويحترم من هم أكبر منه.

الأمير قرر الهجوم على القصر، وأوكل المهمة لأخيه الحاج مصطفى، وطلب الأمير من قادته أن يطيعوا أخاه كما يطيعوه، وأن لا يردوا له أمره، ولتأتي المعركة حاسمة.

الأمير دعم قوات المدفعية، أضاف قطعتان جديدتان للقطع الثلاث السابقة، أحضر واحدة من منطقة تاقدامت، وأخرى أحضرها من تلمسان مع ذخائر كافية، قائد بطارية المدفعية يسمى ابن كسكسو، تم التحضير لحسم المعركة، الحاج مصطفى بدأ بوضع قطع المدفعية، وهي على نوعين مدفعية ثقيلة، وأخرى صغيرة، وضعها في المقدمة، هذه الخطة ليست من إبداع الحاج مصطفى، هي خطة تعمل بها القوات الفرنسية، هي خطة تبدأ بدك المواقع وتحطيمها بسلاح المدفعية، ثم تبدأ القوة الغازية في الهجوم باحتلال المواقع ولأن فرنسا كانت تخوض معاركها ضد الجزائريين العزل، المقاتل الفرنسي يجد نفسه في هذه المعارك يقوم بنزهة.

أراد الحاج مصطفى أن يكرر الحدث، ويجعل دخول قواته لقصر عين ماضي نزهة مقاتل وفرجة، يشر مقاتليه أنهم ما يدخلوا القصر حتى تفتح لهم مغارة علي بابا، وسيجدون الكنوز وحور الحين.

بدأ الجميع ينتظر ما يمكن أن تفعله المدفعية، وأخذ الجميع يرقب ابن كسكسو، وما يمكن أن يقدم عليه، وضعت القطع قريبا من المواقع المستهدفة، وبدأ الشروع في الرمي وارتفعت الأصوات وارتفع معها الغبار. شوهد ابن كسكسو يدير معركة حامية الوطيس وتم قذف القصر من الصباح حتى المساء، والمعركة لا تتوقف، وشاهد السكان ارتفاع القذائف في السماء، وصوت صفير المقذوفات، وأصابهم مما شاهدوا للوهلة الأولى الخوف والرعب، حال دام النهار طوله.

ما جاء المساء حتى شاهد الحاج مصطفى قائد المعركة، والأمير أثر القصف على الجدران والأسوار، وكانت المفاجأة، بعد الهرج والمرج وأصوات المدافع وصوت ابن كسكسو يعطي أمر الرمي، كلما حصل هو ثقب صغير لا يتجاوز ثلاثة أمتار ونصف، وتبين أن طاقم المدفعية لابن كسكسو ضعيف ولا يجيد الرمي، ولا علم له بفنون الرماية، ولا يحسن وضع قطع المدفعية وضع الرماية الصحيحة، وتبين أن القذائف كانت تتساقط يمين ويسار القصر وتسقط فوق الرمال والصخور.

ما جاء الليل وحل حتى شاهد الأمير وجنده عجبا عُجابا، نهض كل من كان في القصر الرجال والنساء الصغار والكبار، لإصلاح الجدر والأسوار وليس هذا فقط، لما كان القصف في النهار كان من الرجال من يحسب سقوط القذائف، ويحدد مدى المدفعية والمكان الذي يمكن أن تصله، شاهد الأمير مذهولا وقائده الحاج مصطفى، كيف أن النساء يرفعن الجدر ويضعن سواتر ترابية في الأمكنة الفاصلة، بين الرمي و مواقع الفرسان المدافعين.

ذُهل الجميع وهم يشاهدون النساء، وهن يحملن التراب واللبن والحجر المتوفر ويرصفنه رصفا، الأمير كاد أن يجن من فعلهن وثباتهن ،الواحدة منهن تعدل الرجل و الرجلين، ما جاء الصباح حتى عاد القصر أكثر قوة، وما بزغ الفجر إلا والمدافعون، يأخذون مواقعهم وينتظرون يومهم الجديد.

قبل أن تبدأ معركة المدافع، وتدخل يومها الثاني صعق الأمير، وهو يشاهد الجدر قد ارتفعت وحُصنت، ولأنه أخذ الدرس من اليوم الأول، وهو أن أعداد قطع المدفعية غير كافية، ولا تغطي مجال الرمي، تدبر أمره سريعا استقدم ثلاث قطع جديدة، ولأن الصديق يوم الضيق، قدمها له الصديق الفرنسي المارشال فالي Valée، الآن جيش الأمير يملك عشرة من القطع، تمنحه رمي الحديد والنار على أعدائه وخصومه.

بدا ابن كسكسو يعطي أوامر الرمي، وجاءت أوامره أشد من الأمس، ارتفعت القذائف وارتفع معها الغبار في انتظار فتح فسحة، تمكن الجنود من ولوجها والدخول للقصر، إلا أن هذا لم يحدث مع المساء اقتنع الحاج مصطفى، أن المشكلة ليست في عدد قطع المدفعية.

الأمير استنفد كل القطع التي كانت بحوزته، وأقحمها المعركة، وجاءت نتائج الرمي لليوم الثاني مثلها اليوم الأول، شاهد الأمير الانسداد وإنه إن أبقى هكذا على الوضع سيستنفذ ذخائر المدفعية، وأمر بوقف القصف، واحتار هو وقادته وجنده في أمرهم هذا في الأثناء الفرحة تعم القصر، وخاصة لدى النساء، وفرحن بجهدهن الذي أثمر، كم غمرتهم الفرحة، وهم يشاهدن القذائف توقفها متاريس الرمل واللبن والصخور، وهن يتذكرن العناء الذي بُذل في ليلة واحدة، الأمير أوقف العمليات القتالية، واكتفى

بالحصار والتشديد على المحاصرين، هذا وافق شهر رمضان، يقابله في الميلادي شهري نوفمبر وديسمبر، الإخفاق آلم الحاج مصطفى، غلبه الهم والغم، وطلب من أخيه أن يأذن له بالرجوع لأهله وأذن له الأمير.

قرر الأمير عبد القادر، أن يأخذ زمام المبادرة، وأن يقود هو نفسه جيشه، ويخرجه من المأزق والانسداد، غلبه الهم وخانته الحيلة وفقد من يعطيه النصح، وهو في حيرته دخل عليه رجل لا يعرفه غريب، قال له : مولاي الأمير أعرف رجلا لو استقدمته حل مشكلتك، ونصرك على عدوك، استغرب الأمير حديثه وسأله : من الرجل ؟ أجابه الغريب: هو سيدي مُحَمَّد ابن نونه، قبلك كان سلطان تلمسان، قام وبعجل كتب رسالة لمحمد ابن نونه جاء فيها: « ما تصلك رسالتي حتى تأتيني هنا في عين ماضي» ما وصل الخبر ابن نونه حتى ركب جواده ولحق بالأمير، وبدأ التباحث في مسارات المعركة، أخبره الأمير عبد القادر: « أن الحصار أثقل عليه وأن الأثقل من الثقيل رفع الحصار وإعلان الهزيمة» سمع ابن نونه خبره وهو مغرق في سماعه، ثم فجأة انتفض انتفاض المارد الخارج من قمقمه، وتغير وجهه وشخص ببصره وسأل الأمير : كم تعداد قواتك ؟ قال له : عندي من الجنود النظامية 1200 أنا من أشرف على تدريبهم، أضف إلى ذلك قوات القومية التي تخدمني تكلم ابن نونه : أوكل لي قيادة القوات سأقسمهم 12 فوجا في كل فوج 100 سأدفع بكل فوج إلى نقطة محددة من القصر، وعوض أن تقوم المدفعية بمهمة فتح مداخل في السور، سيكون فعلها ضرب الأهالي داخل القصر، هذه الضربات ستبعثر القوات المدافعة وبالضرورة سيتركون المواقع، يمكننا بواسطتها التسلل داخل القصر.

فرح الأمير بالخطة وشعر بنشوة انتصار قادمة، وخرج لجنده، وأفهمهم أن كل واحد لا يكتفي بحمل سلاحه فقط، بل يجب أن يحمل معه معول هدم، يساعده في نقض الأسوار وإسقاطها، وتم تقسيم القوات كما أراد ابن نونه، وتمت عملية الاقتحام وفق الخطة الجديدة، وبدأت مهاجمة كل المواقع دفعة واحدة.

سكان القصر لم يستسلموا ولم يتبعثروا كما اقتضت خطة ابن نونه، واجه السكان المقتحمين بمقتضى وجودهم أين يكونوا يجدوهم، المحاصرون يتحركون في خفة ونشاط والجميع يتشارك في الرصد والدفاع، حاول المهاجمون وضع السلالم على الجدر، إلا أنهم

أخفقوا، حاولوا رمي كتل نارية على القصر، إلا أن المحاولات باءت بالفشل، حاول البعض البدء في الحفر وثقب الجدران، كل ذلك لم يثبت طويلا مع امتصاص الهجمة الأولى، كسب المحاصرون أسبقية هي اقتراب العدو منهم، سقط الكثير من جند الأمير ما انتهت المنازلة وتراجع المهاجمون، ما سقط قتيل واحد من المحاصرين.
ثمانية أيام وكل شيء متوقف حالة من الجمود والسكينة والترقب، مما قد يحدث ضاقت الأرض بما رحبت على الأمير، وها هو يواجه الانسداد ويجده قائما أمامه، أمير المؤمنين وخليفة المسلمين البطل الهمام الورع التقي، يعجز أمام قصر بالكاد يرى، هكذا كان يكلم نفسه ويخاطب من هم حوله، لم يجد الرجل ولا وجد الحل، وهو في حالته هذه تأتيه أخبار تقع عليه وقع الصواعق، أسمعه قادته تململ المسلمين من فعله وكيف أنهم أنكروا عمله هذا، وأن قبائل الأرباع بدأت في التحرك، وإنها وإن تأخرت عن نصرة عين ماضي لأن جراحهم لم تندمل بعد من أفعال الأمير، مع ذلك تحركوا وأعاقوا إمدادات الأمير ومنعوها من الوصول، بل وصلوا لقادة الأمير وأبلغوهم حقيقته بحكم تجاربهم.
لذلك تراجع بعضهم وطلبوا الإذن من الأمير عبد القادر، أن يسمح لهم بالرجوع لقبائلهم لطول الغيبة والسآمة، من جاء مع الأمير كان ينتظر معركة سهلة ميسورة، زمنها ساعات ويعودون محملين بكنوز الخليفة التجاني، هذا ما جاء في خواطرهم قبل مجيئهم.
بدأ عسكر الأمير يقولون كلاما شق على الأمير قالوا : « إن الله مع الخليفة التجاني الولي، وليس مع خليفتنا الأمير عبد القادر، وأن الله مد التجاني بنصره، ومد الأمير عبد القادر بالخيبة والخذلان». هذا الكلام شق على الأمير سماعه، لأنه بالمختصر المفيد من معانيه أن هزيمة الأمير في عين ماضي تعني نهايته، وأنه سيسلم السلطان والحكم والجاه والرياسة لهذا الشاب مُحَمَّد الصغير أو كما يسميه محبيه مُحَمَّد الحبيب، ابن السيد أحمد التجاني، إذن هي معركة حياة أو موت بقاء أو فناء.
عاد الأمير ليرسم خطة عسكرية تخرجه من مأزقه هذا، أعاد أمره وطلب حضور الذكي الداهية ابن نونه وخاطبه : « عليك أن تعدل خطتك وتستفيد من أخطائك ليقع القصر ونخرج من أزمتنا هذه» أجابه ابن نونه وهو واثق مما سيقدم عليه، وأخبره خطته الجديدة قال : « لقد وجدت الطريق الذي يقودنا للهدف مباشرة، دع الأفواج على حالها

الأول، هم 12 يقومون بوظائفهم كما قاموا بها في معركتهم الأولى مع تغيير كل فوج يواجه ناحية من القصر، ويقوم بحفر أنفاق أرضية حتى نصل الأسوار، ونضع تحتها كميات كبيرة من البارود تنسف الجدر والأسوار وتوقعها وبعون الله هذه المرة سنمسك القصر» تكلم الأمير وقال : « أنا ممتن لذكائك و ابداعك، وستجد عندنا الجزاء الحسن، لحسن تدبيرك وحماستك».

بدأ تنفيذ الخطة، 12 فوجا شرعوا في حفر 12 خندقا تتجه كلها نحو القصر، كان العمل يتم بالتناوب 50 من الرجال يعملون نهارا، ما يأتي الليل حتى يستبدلوا بخمسين آخرين وهكذا عمل مداومة، والأوامر أن تتم الأعمال في سرية مطبقة، الخليفة التجاني يدير معركته بحكمة عالية، هو من يشرف على القوات المقاتلة وما يأتي الليل يتابع مراكز الحراسة ويشرف عليها.

أضاف لأعماله عمل لا يعرفه أحد إلا خاصته، يرسل أعين ترقب حركة جند الأمير ليتوقع فعلهم من غد يرصد حركتهم وتنقلاتهم، في هذه الليلة أرسل هؤلاء الخاصة من جنده، ولأنهم مدربون عارفون بالتحسس والتجسس، سمعوا ضرب المعاول، ولأنهم عرب ولهم خبرة في حفر الآبار، وتمييز ضربات المعاول عرفوا الأمر، وأبلغوا الخليفة التجاني التفاصيل، عما ينوي فعله الأمير، أضحت خطة بنونه مكشوفة أمام الخليفة وقيادته العسكرية.

عرف الخليفة أن العمل قائم منذ ثلاثة أيام، طلب الخليفة التجاني من رجل قوي وذكي أن يندس في جند الأمير ويعلم الخبر اليقين، لأن بناء قرارات على الاحتمال، وإن كان صادقا لا يقبل في المعارك الحاسمة، استطاع هذا الرجل أن يندس، ضمن القوات المحيطة بالأمير، هو رجل مغربي من فجيج قصر يقع جنوب شرق المملكة المغربية، بعدما أنهى مهمته كلم الشيخ التجاني قائلا : « يا سيدي الخطر الذي نواجه محدق وأكيد، نحن نستطيع أن نلغيه أو على الأقل التقليل من أثره، نقوم نحن وبشكل مضاد بحفر ستة أنفاق موازية وحتى نستطيع أن نحدد مواقع الحفر عندهم بدقة نجعل حفر خنادقنا، يتجه إلى ستة من خنادقهم نواجه ونغلق الستة الباقية، ستكون مفاجأة، العدو لما يقترب من عمله في الحفر سيجدنا أمامه».

هذا الاقتراح أثلج صدر الخليفة التجاني، وتكلف المغربي ومجموعة من الرجال بهذه المهمة، وعرفت بعده باسم مهمة الفجيجي وأصحابه، وأضحت حكمة متداولة، تذكر لما تذكر الكنوز والمعادن» ووسائل تحصيلها بالحفر والتنقيب.
حتى يعرف رجال الخليفة التجاني مواقع الحفر، ومعرفة الاتجاه الصحيح والدقيق، اعتمدوا طريقة ذكية، هي طريقة المهراس النحاسي، لما يتجهوا في الحفر المقابل كانوا يضعوا آنية نحاسية تسمى المهراس في اللغة الفصيحة الهراس، إناء من نحاس سعته لتر، يوضع وينظر في اهتزازه من أثر الحفر، ويعدل بواسطته الحفر وفق حركة الاهتزاز، بهذه الآنية النحاسية تم تحديد مواقع الحفر ووجهتها بدقة متناهية.
جند الأمير وهم يحفرون الخنادق يسمعون الأصوات ولأنهم يعتقدون سرية عملهم يفسرونها ويبررونها بأشكال مختلفة، وجاءت اللحظة الحاسمة، لما بدأ جنود الأمير في وضع المتفجرات، فاجأهم رجال الفجيجي وأخذوا المتفجرات، فما كان من الحفارين إلا الهروب، ولم يصدقوا ما وقع وحصل.
شاهد ابن نونه والأمير الجند الحفارين هاربين، وقد تخلوا عن المتفجرات، وتركوها لسكان القصر حتى أصابهم الذهول والحيرة وركبهم العجز، بدأ جند الأمير يتكلمون عن خوارق ومعجزات حصلت أثناء وبعد الحفر، ولم يصدقوا أبدا أن هناك عقلا عسكريا يدير المعركة من داخل القصر، وأن الحساب الذي حسبوه لم يجدوه.
الأمير وقادته غرقوا في حيرتهم، يمنون أنفسهم بانتصار يأتيهم مع نهاية اليوم، فجأة يصاب الأمير بنوبة عصبية وغاب عنه التقدير، وفقد البصيرة والروية وطلب من جنده القيام بعملية انتقامية، دفع فيها بكل جنده وما يمتلك من قوة نارية ووجهها دفعة واحدة ناحية القصر، إلا أن المدافعين استبسلوا في الدفاع وردوا المهاجمين.
بقيت المعركة يوم وليلة دون انقطاع، ما جاء اليوم الثاني وطلع النهار حتى رأى الأمير رأي العين القصر واقفا متماسكا، وزاد ألمه لما شاهد 15 من جنده صرعى، هذا حال أمير المؤمنين مع عسكره، فما حال خليفة المسلمين في قصره، تأكد مُحَمَّد الحبيب أن الأمير لن يترك القصر، ولن يتراجع، وأن مسألة القصر لدى الأمير مسألة حياة أو فناء وأن

قوته يمكن أن تصمد إلا أن الصبر والصمود له نهاية، وأن البقاء على هذا الحال سيكون السبب في إنهاء القصر وساكنيه، لذلك الأمر يحتاج للرأي والمشورة.

جاء الرأي ما يوافق عرف العرب في حروبهم، ولما يشتد البأس بينهم، فليكن الميعاد ويلتقي الخصوم ويحضر الحكماء، ويعرض عليهم الرأي والمشورة والرأي رأي الجماعة، وَكَّل التجاني المهمة لشخص يسمى سي ريان، ليلقى الأمير ويتباحث معه الأمر، تحقق الأمر واجتمع الناس وجرى التباحث وطالت المدة، لتتجاوز الساعات لأيام كاملة.

الأمير عبد القادر رفض التراجع عن قراراته الأولى، واعتبر التنازل غير مقبول، سمع من الحاضرين أقوالهم، ثم أظهر لهم أن المسألة أبسط مما يظنون، وكل ما يريده أن يأتيه ابن الخليفة التجاني، عوض والده عنده للتباحث.

نقل هذه الرغبة سي ريان وأبلغها الخليفة التجاني، الخليفة قبل الأمر واشترط أن يقسم الأمير عبد القادر، أن يرد الابن سالما وأن يذهب ويعود في ظل الأمان الذي تم الدعوة إليه، وجرى التوافق عليه، أمر الخليفة التجاني ابنه أن يلقى الأمير، خرج الابن ومعه فَرَسان وعبدان وأمتان وبندقيتان، وزوج مسدسان مطرزان، وخيمة جديدة فريدة في جمالها، معه أصدقاء يرصدون حركته عن بعد، ما شاهد الأمير ابن الخليفة حتى انفجر غاضبا ساخطا، ثم همزه ولمزه وقال صارخا : « هل مثلي يشترى بهدايا أطلب أن يأتي خليفتكم عندي بالسلم بالحرب يأتي، يأتيني هنا في خيمتي، ولما يأتيني سأغدق عليه من الهدايا والعطايا وسأظهر له أن هداياه هذه لا تساوي عندي شيئا».

ثم نزع من ابن الخليفة ما أتى به وأسكنه خيمة جندي متواضعة قرب خيمته، وليبرر ويشرح موقفه هذا كتب رسالة لشخص فرنسي هو نيكولاس مانيسي Nicolas Manucci مؤرخة بتاريخ 5 رمضان 1254 هجرية الموافق 22 نوفمبر 1833 ميلادية جاء في الرسالة : « نعلمكم بأخبار عين ماضي إن ابن التجاني عندنا رهينة مع 18 من سادة القصر، أعطينا للعبد مالا قيمته 30,000 ريو réaux ـ تعادل قيمتها 55,800 فرنك francs ـ وأعطيناه كذلك كسوة وخيلا وسنبقى أمام عين ماضي، حتى يأتي اليوم الذي يأخذ فيه كل ذي حق حقه، اليوم الذي يعلن فيه السكان الطاعة، يومها يكون لنا الحق الكامل في قطعانهم وأولادهم ويكونوا هم أنفسهم تحت إمرتنا».

الأمير عبد القادر ولأيام ترك الرهينة ولم يوجه له ولو كلمة واحدة، الشاب ظهر عليه القلق وظهر له جليا أنه هو ورفقاؤه أسرى عند الأمير، وبدأ السؤال التالي يفرض نفسه على المحبوسين: ماذا يريد منا الأمير ؟ وانتهزوا فرصة وكلموه : « لماذا تعاملنا هكذا لقد جئناك لأنك رجل ويفترض فيك الثقة، ونحن لا نستطيع أن نذكرك ما ينبغي أن يفعله الرجل العربي الشهم، وقد أقسمت اليمين أمام الملأ ولا يمكنك الحنث، وأنت عالم بحكم اليمين والقسم، من أجل ذلك نطلب منك أن تطلقنا وأن ترفع معسكرك هذا، لأن عهد الله في عنقك وأنت ملزم بتحقيقه».

بعدما سمع مقالتهم تكلم الأمير وأظهر نفسه كأنه الوالد الحنون : « تطلبون مني الرحيل ماذا يقول عني الناس في التل، سيأتي منهم التحقير والازدراء، ماذا تقول عني القبائل سيغضبون ويقولون الأمير عبد القادر حاصر عين ماضي واقتدرت عليه، يا للعار والشؤم، سيقول الناس شيخ التجانية غلبه وقهره». ثم ترك ابن التجاني وخاطب رفاقه : « تستطيعون الذهاب وحدكم ولن أسمح لكم بأخذ الولد» أجابه الشباب : « لا نعود إلا ومعنا ابن سيدي مُحَمَّد» قال الأمير : « أسلمكم الولد بشروط ثلاثة هي : أولا يسمح لي الخليفة بدخول القصر، أدخل من باب وأخرج من آخر حتى يقول الناس الأمير دخل القصر، ويستطيع خليفتكم أن لن يراني ويغلق عليه منزله، ثانيا : خليفتكم يترك المدينة وأعطيه الحق أن يذهب أين يشاء ويستطيع السكان أن يلحقوا به، ولن أتعجل سأتركه يغادر ثم أدخل أنا المدينة، ثالثا : ان أبى سيسمع صوت البارود ولن أترك مكاني هذا حتى يعلن استسلامه».

عرف الجميع وخاصة من راهن على الحكمة والتعقل أن الأمير عبد القادر قد غدر، وجد الخليفة نفسه في انسداد، وعوض أن ينفرج الأمر زاد وضاقت الدنيا على الخليفة التجاني، ولم يكن أمامه إلا الدعاء حتى يأتي الفرج.

يفترض أن يأتي الفرج من الأغواط إلا أن هناك انقسام في الرأي حول الأمير عبد القادر، قدم يحيى ابن سالم العون لعين ماضي حيث قدم 50 بندقية أحضرها من بريان وأرسل فرسان من الأغواط والأرباع للمساعدة، هذا حسب المقتضيات، كان أكبر ما يمكن أن يقدم مع قراءة متأنية للواقع وبعد استشارات عميقة، قرر الخليفة التجاني أن

يفعل ما فعله سيدنا خالد في مؤتة، أن يقف بين مسافتين متساويتين بين النصر والهزيمة، قرر أن ينسحب من المعركة بأقل الخسائر الممكنة، قرر الخليفة التجاني قرار النفي وترك القصر، وأرسل كتابا للأمير جاء فيه : « سأترك القصر ولما أتركه لك الحق أن تدخله، إن هذا يحتاج مني بعض الوقت حتى أعد نفسي للمغادرة، أنتظر رجوع جمالي هي الآن بمناطق ميزاب، حتى تأتي لتحمل متاعي» رد عليه الأمير عبد القادر : «لا قدرة لي على الانتظار أعلمني عدد الجمال التي أنت بحاجة إليها وعجل المغادرة» رد عليه التجاني بأن ما يكفيه 400 من الجمال و 2 من البغال و حصانان رد عليه الأمير : « سأمنحك 50 من الجمال ويمكنها القيام بمهام متكررة» في أثناء المغادرة سيمنح للخليفة 200 من الجمال و 100 من قرب الماء و 40 ظرف عطوش، لمن لا يعرف العطوش في لسان بني لغواط هو الهودج الذي يحمل النساء، ويوضع على الإبل، وسمح كذلك بمائة حبل وبعض الحاجيات البسيطة التي تحتاجها القافلة، وكذلك أهل الخليفة التجاني، منح الأمير الخليفة التجاني 2 من البغال وفرسان وخص فرس بسرج مطرز بالذهب.

لما عزم الخليفة التجاني الخروج توجس من الأمير الخليفة والغدر، فطلب منه أن يترك له مساحة محيط حرة ممتدة حتى مدينة البيضاء شمال جبال العمور، الأمير وافق على الشرط وغادر منطقة عين ماضي، وذهب ليعسكر في سيدي بوزيد، هذا يحصل بتاريخ 18 من شهر شوال يوافق 4 جانفي 1839، قرر الخليفة التجاني، أن يأخذ وجهة الأغواط ويجعلها مقرا له، الأمير عبد القادر طلب من بني لغواط، أن يعدوا سكنا يليق بالخليفة وعائلته.

احتاجت الجمال أربعة سفرات متكررة لحمل المتاع، هذه كانت تتم بحضور الخليفة نفسه في السفرة الأخيرة سكان القصر تركوا قصرهم، ورحلوا مع الخليفة التجاني، وحدث المشهد هكذا : لما حملت الجمال ما تبقى من المتاع، القرار يقضي أن يخرج الخليفة التجاني من باب، ويدخل الأمير من باب آخر، هذه المرة لم يخرج التجاني وحده تبعه قومه في منظر مهيب.

لما سمعت القبائل والقصور القريبة والبعيدة ما حصل مع الأمير، وكيف أنه أرغم الخليفة التجاني على الخروج جاء أنصاره ليباركوا للأمير فعله، وحتى يظهروا له محبتهم انتقموا من

القصر، اقتلعوا أشجاره وقطعوا أربعة نخلات، ولم يكن غيرهن، وعاثوا في الأرض فسادا وإفسادا.

بعد أربعة أيام من دخوله القصر، أرسل الأمير أحد خلفائه ويسمى ابن توفنيش في مهمة خاصة للفرنسيين يحذرهم ويقول لهم : « على المسيحيين أن يحضروا أنفسهم لمعركة عظيمة قادمة» هذا الكلام أسمعه الأمير لأنصاره نهارا، ما جاء الليل حتى خرج الأمير بالكاد وحيدا ودون مرافقة، ليأخذ طريقه ناحية التل.

نهض الرجال والفرسان صباحا ليكملوا عملية هد القصر ونقض جدره وأسواره، ما وجدوا من أحد تفرق الرجال والفرسان في مظهر غريب، تحولوا إلى أشتات، أخذوا طريقهم جماعات، وتركوا القصر مجرد أنقاض، مما تركوه الجواب عن السؤال الذي لم يوجد له جواب إلى يومنا هذا : لما فعل الأمير هذا الفعل ؟ ما تبقى من الجند أطلقوا سراح ابن الخليفة التجاني، وتركوه ليلحق بوالده، أجاب القادة جنودهم وهم في حيرة : أمير المؤمنين عبد القادر ترك الخليفة التجاني والقصر، ليذهب للتل ويرد عدوان النصارى ويحاربهم.

نترك الأمير ونعود لخبر التجاني هو الآن في مدينة الأغواط يعيش حياة هادئة، يجد الاحترام من القريب والبعيد إلا أن هذا الهدوء لم يدم طويلا، لأن الأمير عبد القادر يحدث فتنة عظيمة بين السكان والقصد من فعله الانتقام من الخليفة التجاني، ولأن أولاد سيرغين هم من ضَيف التجاني وأكرمه، وأنزلوه المنزلة التي يستحقها، اغتاظ الأمير من هذا الفعل، وكتب كتابا لأولد سيرغين جاء فيه : « لأن لا ولاء لكم إلا لهذا التجاني أخبركم، أنني سأتولى الأحلاف وأحميهم وأجعلهم ينتفضون ضدكم ويحطمون دوركم وسيأتيكم عقاب ستتذكرونه، ذكرى المتألم المتحسر، عما اقترفت يداه».

ما يقع بعد هذا التهديد والوعيد تمرد بني لغواط على سلطة الأمير، ولم يكن السبب التجاني، التذمر جاء من الضرائب المفروضة على الناس من قبل خليفة الأمير على المدينة سي عبد الباقي الذي خلف الحاج العربي، بداية بدأ التمرد عند أولاد سيرغين مع الزمن لحقت بهم القصور، وانضم لهم في الأخير الأحلاف، وأضحى وجود خليفة الأمير في المدينة غير مرغوب فيه، حتى يعيد النظام للمدينة بعث الأمير عبد القادر خليفته المسمى قدور ابن عبد القادر البصري على رأس قوة لتدخل المدينة وتمنع التمرد، الخليفة

التجاني علمه واسع بما يريد الأمير ويسعى إليه، ولأنه عرف أن الأمير يريد أن يجعله ذريعة ليقتتل بني لغواط، تصرف بحكمته المعهودة، مُحَمَّد الحبيب له جمال عند قبائل الأرباع طلبها وحملها متاعه وغادر المدينة، ولحق بقبائل قريبة من بني ميزاب ليقيم عندها، وبالتالي أسقط ذريعة الأمير عبد القادر، وأظهره على حقيقته.
1255 هجرية 1839 ميلادية عبد الباقي خليفة الأمير، ألزم سكان المدينة بدفع ضريبة اللزمة والخدمة، وحدد قيمتها 25 فرنك يدفعها كل بيت، ثم طلب منهم عبد الباقي أن يفتحوا له المدينة ويسكنونه في أفخر منازل المدينة، وتفتح له منازل للقومية أي الفرسان الذين معه ليجعلوها ثكنات لهم، لأنهم الآن خارج المدينة ينتظرون الإذن بالدخول.
سكان المدينة اعتبروا هذه المطالب لهم بهذه الفجاجة والوقاحة، مهانة يرفضها المسلم العربي الأبي، جاء الرد من عبد الباقي، أمر جنده بغزو أحياء أولاد سيرغين، ما بدأت عملية الغزو حتى قامت انتفاضة شعبية، وتم طرد عبد الباقي وفرسانه، لما شاهد ما حصل له ولقواته، طلب مقابلة كبراء المدينة.
جاءه كبراء الأغواط أحمد ابن سالم وأخوه يحيى ابن سالم وآخرون، حضروا مسالمين دون حراسة، ما رآهم اتهمهم بأنهم من يقف وراء الثورة وأنهم يريدون طرده خارج المدينة، أخضعهم للمساءلة والتحقيق وأمر بتقييدهم، ما جاء الليل أمر حرسه أخذهم إلى تاقدامت عاصمة الأمير ويكون ذهابهم مع ثلاثين من البغال تحمل اللزمة، قلنا اللزمة هي الضريبة.
عبد الباقي وضع حرس وفرسان على مداخل أحياء الأغواط، لمنع الاحتجاج والثورة، لما علم بني لغواط ما حدث لكبرائهم، وما يحصل في أحيائهم، عرفوا غاية الأمير وخليفته فيهم، وعلموا علم اليقين خبر من يدعي أنه أمير المؤمنين، وفضحوا خطته لإثارة الفتنة فيهم، وجعل حربهم بينهم بين الأحلاف وأولاد سيرغين، وتيقن الواهمين منهم أنه واقع بهم ما وقع لقصر عين ماضي.
جمع بني لغواط كلمتهم وحملوا سلاحهم وخرجوا له وأرادوه، لحظتها عبد الباقي في بيته هاجمه السكان تفرق عنه حرسه وجنده وطرد خارج المدينة، الأهالي أطلقوا المسجونين

وأخذوا أسلحة الخليفة وذخائره، من الغنائم التي أخذوها مدفع أحضره عبد الباقي ليقتحم به أسوار المدينة.

سقط في هذه المعركة سنة أفراد منهم زوجة أحمد ابن سالم و اثنين من أولادها فعل ذلك عبد الباقي منتقما[1]، كادت الأمور تأخذ مظهر الحرب المفتوحة وخاصة لما أحاط الثائرين بعبد الباقي وأرادوا قتله انتقاما، هنا تدخل الحكماء حتى لا يقع لمدينة الأغواط ما وقع لعين ماضي، لأن هذا ضمن مخطط الأمير عبد القادر، طلب الحكمة والتعقل جاء من جديد ابن يوسف أغا أولاد الشايب، وتدخل كذلك الخروبي أغا أولاد خليف هؤلاء الحكماء أعادوا الأمر لطبيعته الأولى.

عبد الباقي حمل نفسه وذهب إلى وسط جبال العمور، وطلب النجدة من الأمير عبد القادر، هنا علم الجميع مسعى الأمير عبد القادر وتوحدت قصور بني لغواط وأرباعها على رد عدوان الأمير عبد القادر، ويجب أن تجتمع كلمتهم، وإلا كان مآلهم مآل قصر عين ماضي، ولم يجدوا من يجمع كلمتهم وينصرهم ويثبت أقدامهم، إلا السيد مُحَمَّد الحبيب الخليفة التجاني، وخاصة لما شاهدوا عبد الباقي يعيد جمع شمله على أمل أن يعيد حصار مدينة الأغواط، ويحدث فيها ما حدث في عين ماضي.

لم يكن من الأمر بد كما تقول العرب، أجاب مُحَمَّد الحبيب إخوانه لبس درعه وحمل سلاحه طالب من العرب من لهم عهد ونصرة مع الزاوية التجانية أن ينضموا له، لحظتها هو يقيم في منطقة الشبكة القريبة من بني ميزاب، جمع جيشه وهيأ نفسه قرب مناطق بني ميزاب، حلفاء بني لغواط التاريخيين، وفروا له الأمن والأمان، زحف نحو مدينة الأغواط ما وصلها حتى قتل جيشه اثنين من قوات عبد الباقي.

ما شاهد فرسان الأمير عبد القادر الخليفة التجاني في هيبته، وهو يقود فرسان بني لغواط وقبائل الأرباع، ومن جاورهم حتى فروا، دون سابق إنذار تظهر قوات موالية للأمير عبد القادر تحت قيادة سي الحاج العربي ابن المرابط الحاج عيسى.

---

[1] هو يريد بقتل زوجة أحمد بن سالم وولديه ايقاع سكان المدينة في حرب داخلية غايتهم دائمًا نشر الفتنة في أي مكان حلوا فيه.

الحاج العربي هو السبب في إحداث فتنة بإيعاز من الأمير عبد القادر بين الأحلاف وأولاد سيرغين هو كذلك من أسباب اضطرابات الجنوب سنة 1256 هجرية شهر أفريل 1840 ميلادية، حاول الحاج العربي الوصول لعين ماضي، الخليفة التجاني يرقب حركته ويعلم خطره، أراد أن يخرجه من المنطقة، وأمام تراجع قوة الأمير في المنطقة الحاج العربي يعاني نقص الإمداد، هو وجنده اقتاتوا بها وجدوه في حدائق تاجموت، حتى ينهي التجاني حكاية الحاج العربي، ويبعد المنطقة عن نفوذ الأمير عبد القادر، طلب أنصاره من بني لغواط وكذا من الأرباع الحضور، كانت معركة فاصلة مع سي العربي المعركة دامت يوما كاملا فقد فيها التجاني اثنين وعشرين من الفرسان وخسر واحد وعشرين من الخيل، اندحر الحاج العربي وانهزم وفقد 16 من فرسانه والكثير من خيله، جاءت الإصابات في مقاتليه كبيرة.

أعطى مُحَمَّد الحبيب لفرسانه راحة يومين في اليوم الثالث، قرر ملاحقة الحاج العربي هذا الأخير كان قد أعاد بناء قواته، و تحصن داخل قصر تاجموت.

ما وصل مُحَمَّد الحبيب تاجموت حتى فر الحاج العربي وجنده، لحقهم الفرسان أسروا منهم 25 واسترجعوا بعض قطعان الماشية المنهوبة، ولأن قوات التجاني محدودة استطاع الحاج العربي، أن يعود مع ما تبقى من جنده إلى تاجموت، وتحصن بها من جديد.

وقع التجاني في حيرة كبيرة هو لا يمتلك القوة ولا الخبرة التي تعطيه القدرة على الحصار وهو في حيرته هذه جاءه بعض المريدين ومحبي التجانية، وقالوا له: لا تحزن الله معنا غدا ستدخل تاجموت بإذن الله، أبشر غدا سنكون مع السكان، ونفتح لك الأبواب ونرحب بك.

جاء الغد التجاني اقتحم الباب الشرقي، فتح له السكان القصر، دخل القصر وتجاوزه ناحية الغرب، أين وجد فرسانه في انتظاره، العملية تمت بكل يسر، هذا الفعل فاجأ فرسان الحاج العربي، عمتهم الفوضى وأصابهم الخوف، اتجهوا ناحية الباب الغربي للهروب، وجدوا فرسان الخليفة التجاني في انتظارهم تم أسرهم كلهم.

استطاع الحاج العربي هو و ثمانية وعشرون من الفرسان النجاة والهرب، فرح مُحَمَّد الحبيب هو وفرسانه وأهالي تاجموت بهذا الانتصار، وأصدر عقوبة بحق عائلتين تعاونت

مع الحاج العربي هما عائلة العربي ابن بركة، وعائلة قويدر ابن غدور، عقابهما أن يتركا المدينة حتى تهدأ الأنفس، وتعود المياه إلى مجاريها، وتنتهي الفتنة.

الحاج العربي هو من أبناء الحاج عيسى، بينه وبين سلطان مدينة الأغواط أحمد ابن سالم ثأر سببه أن أحمد ابن سالم، أخرج عائلة الحاج العربي من الأغواط، أولاد بوزيان قائدهم الشطي أرادوا منافسة أحمد ابن سالم في الحكم والرياسة، ولأن أحمد ابن سالم رجل داهية وسياسي دفع أولاد بوزيان لترك المدينة واللجوء إلى قصر لا لمية وقصر تاجرونة، ليكونوا في حماية أولاد سيدي الشيخ. الثأر دفع الحاج العربي أن يذهب ناحية قصر زنينه، ويجدد طاعته للأمير عبد القادر، ويقترح عليه أن يكون خليفته في الجنوب ويمهد لحكم الأمير في الصحراء.

هكذا انتهت حرب عين ماضي بدأها الأمير عبد القادر شهر ربيع الأول سنة 1254 هجرية توافق شهر جوان 1838 وانتهت شهر شوال 1254 هجرية يوافق شهري ديسمبر 1838 جانفي 1839 ميلادية، حرب الأمير أحدثت غضبا شديدا وعارما، بين المسلمين حاصر عين ماضي لمدة سبعة أشهر، بعد مرور 22 شهرا وقصر عين ماضي أطلال وأنقاض السيد مُحَّمد التجاني شرع في إعادة بناء القصر، ورفع الجدر والأسوار، خضعت عين ماضي كما خضعت الأغواط لسلطة فرنسا، توفي السيد مُحَّمد الحبيب التجاني في شهر جمادى الأولى 1269 هجرية بين شهري فيفري ومارس 1852 ميلادية قبل سقوط مدينة الأغواط بزمن قليل، ما تسبب في تفرق جمعها، وتشتت أمرها، وضياع أهلها وتبدل حالها من حال إلى حال، الله مقدر الليل والنهار، العالم بالخفايا والأسرار، الواحد القهار له عقبى الدار[1].

---

[1] Arnaud Interprète militaire Siege D'Ain Madi Arnaud Interprète militaire. Par El - Hadj Abd-el-Kader b. mo hie Eddine II

نقرأ في كتاب طلع سعد السعود الجزء الثاني الفصل الأمير يخرب حصن عين ماضي ويخربه يعطينا رواية في غاية الأهمية وشهد شاهد من أهلها: 173 و174: « فاختار الأمير عند ذلك عين ماضي بالصحراء التي غزتها الأتراك المرة بعد الأخرى ـ كذا ـ ظنا منه أنها لبعدها من وهران وحصنها محل منع، فذهب لها بجيشه وحاصرها ثمانية أشهر وعشرين يوما إلى أن قل ما بيده من الزاد وامتنع من النفع، ولم يطق عليها ولا وجد سبيلا لكبيرها التجيني، وهو السيد مُحَّد الصغير بن القطب المكتوم العلامة السيد الحاج أحمد بن سالم التجيني وكان نزوله عليها في اليوم الرابع من ربيع الأول سنة أربعة وخمسين ومئتين وألف، الموافق لسنة ثمان وثلاثين وثمان مائة ألف.

ولما لم يطق على الدخول إليها، استعمل الحيلة التي توصله لدخولها والاحتواء عليها فبعث جماعة من العلماء والمرابطين ومعهم صهره خليفته الحاج بن التهامي وهو الخليفة بالمعسكر ذات الانتظامي فدخلوها بالأذن من صاحبها وقالوا له أن الأمير المجاهد في سبيل الله لم يرد مقاتلتك ولا العتو عليك، وإنما أنت أبيت من دخوله عليك، لأن النصارى إذا سمعوا بمقاتلتكما يضحكون عليه وعليك، وإنما أراد الملاقاة ـ كذا ـ معك للتبرك بك والاقتباس مما لديك، لما سمع بك أنك شريف النسب ناسك متعبد وأنك موصوف بالفضل والخير وقد ستر الله عليك وعلى من معك في بلدك مما أنظم إليك فلذاك أراد الدخول لمدينتك بجيشه ويمكث بها أياما بالتعبد والصلاة بمساجدها، ويسأل الله ـ كذا ـ فيها أن يعينه على النصارى مع مشاركتك له في الدعاء بذلك وتأمين جيشك وجيشه عليكما بأورادها، ثم يذهب لمقاتلة العدو، الذي بغى عليه وشرع في العتو فرضي التجيني بذلك وأذن له في الدخول وذهب لموضع آخر من الصحراء وتركه دخلها في السابع والعشرين من شوال من السنة المذكورة، الموافق للثاني عشر من شهر جانفي فاتح سنة تسع وثلاثين من المسيحية المشهورة، وبمجرد أن دخلها شرع في هدم صورها

وتخريبها، فلم يطل بها بل أخرج منها جبرا[1] بقيام أهل الصحراء عليه مع ولد التجيني في تخريبها، ورجع لبلده تاقدامت واستقر فيها بحسب الامكان، ورامى نقض الصلح بينه وبين الدولة والدخول في حالة الميدان[2]، فأمر خليفته البوحميدي بالذهاب للدواير والزمالة يتكلم معهم على نقض الصلح في السر والاعلان، وذهب هو لناحية بجاية في تلك السنة في شهر جوان، واشتغل بجمع الجيش يقصد المحلابة والافتان.
ولما رجع من الجهة الشرقية استيقظ مننوه وفطن و فطن من غفلته التي بها قد كان واطلع يقينا على أن التخلاط الواقع إنما هو بأسره من اليهودي بن دران، فسقاه كأس سم بمليانة واستراح من هم اليهودي كثير البهتان، فيا ليته لو تمادى على الصلح وتعضد بالمخزن بأجمعه من أول حاله لكان أهل الاحسان.»

[1] أخرجه أهل الصحراء، لما عرفوا غدره وطردوه، وولى هاربا مهزوما ناحية عاصمته تاقدامت، ثم طردوا خليفته من الأغواط، وكانت آخر أيامه، أن جاء طالبا للحماية من خليفته سي الشريف بالحرش، إلا أنه تركه وآثر خدمة الفرنسيين وفشل، وكانت له آخر وقفة عند سيدي مخلوف.

[2] أي نقض معاهدة التافنة وبدأ في حرب العصابات.

لويس غاستون دو نوسيس، ولد ببلدية فرنسية اسمها بوانت بيتر Pointe-à-Pitre يوم 25 أوت 1825 ميلادية، وتوفي يوم 15 أوت 1887 ميلادية ضابط فرنسي، عرف أكثر أثناء معركة دو لواني أثناء حرب 1870 ميلادية هي حرب ألمانية ـ فرنسية استمرت بين سنتي 1870 ـ 1871 المعروفة كذلك بالحرب البروسية، فيها فقد رجلا بعد إصابة، هو من عائلة برجوازية، والده ضابط مدرس بمدرسة عسكرية فرنسية. التحق بالكلية جولي ثم انتقل إلى مدرسة عسكرية متخصصة سانت سير Saint-Cyr دفعة 1844 ـ 1846 ميلادية، بعد تخرجه التحق بالمدرسة التطبيقية للخيالة الواقعة في البلدية الفرنسية المسماة سومير Saumur، تخرج برتبة ملازم أول، انضم إلى الفوج الخامس فرسان، مقره كاستر سنة 1848 ميلادية شجعه أصدقاؤه لكي ينضم للمحفل الماسوني، تجاهل تحذيرات الكنيسة. بدأ حياته بالمحفل الماسوني الفرنسي المسمى الشرق الكبير، ثم ترقى وانضم للمحفل الماسوني الجمهوري سنة 1848 ميلادية، أضحى من كبراء المحفل العالمي في كاستر، ناب عن المراقب الأول للمحفل، وبعدها تم انتخابه الرئيس الثاني للطقوس الماسونية، اليوم السادس عشر من الشهر العاشر، ما يوافق 5848 بالطقوس الماسونية، تقابل تاريخ 16 ديسمبر 1848 ميلادية ثم اختفى المحفل وأغلقت أبوابه.

بعد العمل في باريس ثم في ليموج Limoges، تم ترقيته لرتبة نقيب وقائد لفرقة الفرسان، ثم انتقل واستقر في الجزائر، شارك في الحملة العسكرية في منطقة القبائل سنة 1857 ميلادية، بعد الهجوم على منطقة الحميس، وخضوع قبائل بني راتن. شارك في الحملة الإيطالية شهري ماي و أوت سنة 1859 ميلادية، شهر أكتوبر 1859 ميلادية تشجع متطوعا، ليشارك في الحملة العسكرية ضد المغرب سنة 1860 ميلادية، تعرف على عدو جديد هو الكوليرا، بعد حملة المغرب تم تعيينه القائد الأعلى للقطاع العسكري بمنطقة تنس الجزائرية، ثم تم تعيينه القائد الأعلى للقطاع العسكري بمدينة الأغواط ثم القائد الأعلى للقطاع العسكري بمدينة سعيدة، سنة 1865 ميلادية شارك في معركة

متليلي، لما قاد حملة عسكرية في الصحراء، هذا واقع بين سنتي 1866 ـ 1869 ميلادية، ثم خاض معركة عين ماضي، حياته الخاصة والعسكرية جمعت ورتبت في مؤلف عنوانه أوراق دو نوسيس.

أوراق دو نوسيس وثيقة تاريخية، لا تفهم إلا في سياق تاريخي، نتكلم فيما يخص تاريخ الأغواط، هو الحاكم العسكري الأعلى الثاني للقطاع العسكري بمدينة الأغواط، سبقه دو بريل لما سقطت مدينة الأغواط سنة 1852 ميلادية، الحاكم العام في الجزائر العاصمة أمر بقلع النخيل وتجريف البساتين وهد كل البيوت، ورمي من تبقى من السكان في جبل العمور. بدأ تنفيذ الأمر، تم هد المدينة، وتم التوقف عند حي الشطيط، وبدأ فتح طريق وذلك بقلع النخيل، وظهر ما يعرف بحي المقطع الظهراوي، إلا أن رجال الدين المسيحيين المرافقين للحملة، رفضوا ذلك، وطالبوا بجعل مدينة الأغواط منارة للتبشير بالمسيحية. الحاكم دو بريل وافق على المقترح، فقدم أرضية مسجد بن بوطة، وهو المسجد الكبير في المدينة هدية بعد هده للقسس حتى يشيدوا كنيسة، وهذا ما وقع ويعود الفضل لبقاء مدينة الأغواط، وعدم إزالتها للشيخ شيخ علي رحمه الله ابن الخليفة أحمد بن سالم، حيث تمكن بدهاء سياسي فريد، أن يقنع دو براي بعودة الحياة لمدينة الأغواط، وهو أول من شرع في البناء، وهناك فصل كامل للحاكم دو نوسيس يتكلم عن الحياة المسيحية في مدينة الأغواط، وكيف كان حلمه أن يفعل الفعل الذي فعله السيد أحمد التجاني، أن تكون الأغواط بداية لحياة مسيحية، ومن الأعمال التي قام بها تحرير العبيد، وأخذ اليتامى ضحايا اقتحام مدينة الأغواط من أجل تمسيحهم، وادخالهم الديانة المسيحية. هذا الفعل لم يأتي عبثا هو عمل له منهج وقواعد عملية، وهذا في حد ذاته يحتاج لبحث علمي طويل، كنت أتمنى لو أنقل الفصل الذي كتبه دو نوسيس عن حياته المسيحية وكيف يظهر نفسه اليسوع المخلص، طبعا يريد تخليص المسلمين من دينهم ولذلك هو يوافق حلفاؤه الماسونيين في أن المسلم، يستحق القتل والسبي وانتهاك

عرضه، لأنه ضال عند المسيحيين، أنه لا يؤمن بنظرية الخلاص المسيحي، وعند الشيعة المجوس وقرنائهم الصوفية المتفلسفة، أته ضال لأنه لا يؤمن بنظرية الولاية، وبالتالي هو من النواصب. المنهج المعتمد في فلسفة التاريخ، أن لا تستوعب دلالة الحدث التاريخي، إلا بالنظر لمساره التاريخي والايديولوجية التي يؤمن بها، حتى تفهم دو نوسيس أنظر في مساره التاريخي، وحياته اليومية، واستعن على الفهم بالأيديولوجية التي حملها هو مساره الفكري العملي، غاية الفعل الحرب عل الاسلام وأهله، هذه أيدولوجيته ماسونية المؤمن بها كان مسيحيا، مسلما، يهوديا، هذا مؤشر دلالته في الحدث ضعيفة، ما يهم هو تحقق الهدف، اكتفيت بترجمة فصلين فقط هما: الأول معركة متليلي حملة الصحراء 1865 ـ 1866 ميلادية، الفصل الثاني المترجم معركة عين ماضي سنة 1869 ميلادية الكتاب[1]:

نقرأ في الفصل معركة حملة الصحراء 1865 ـ 1866 ميلادية:

« شهر أكتوبر المقدم دو نوسيس، يعود لمدينة الأغواط التي تركها سنة 1861 ميلادية الأحداث المحزنة تفاقمت واتسعت، وخاصة أن أحداثها تواترت في مدينة هي مركز متقدم للعمليات العسكرية الميدانية، التي تنظر إليها القيادة العسكرية الفرنسية، نظرة حرص واهتمام في هذه الدائرة، احتدم الوضع وزاد التمرد، وظهرت الأعمال العدائية بشكل فاق التمردات، التي قام بها العرب في أنحاء أخرى من المناطق المتمردة على السلطة الفرنسية هذا يقتضي الصرامة والفعل السريع، لإيقاف العنف وعقاب فاعليه، ظهر لنا في البداية

---

[1] Le Général de Sonis, d'après ses papiers et sa correspondance par Mgr Baunard -[1] RECTEUR DES FACULTÉS CATHOLIQUES DE LILLE - PARIS LIBRAIRIE CHARLES POUSSIELGUE RUE CASSETTE, 15 - 1891 TRENTIÈME ÉDITION.

على أنه فعل معزول، يمكن تطويقه واستيعابه، إلا أن الأمر خرج عن الاستطاعة، كل المناطق برميل بارود مشتعل، هذا شاهدناه سنة 1864 ميلادية، رأينا النار تحرق كل شيء، ولا سيما أيام الخريف والصيف. شاهدنا فصلي الخريف والصيف مجموعات دموية وقطاع طرق استحوذوا على الطريق، الواصل بين بوغار والجلفة، واحتلوا مراكز التوقف المخصصة للقوافل، ليلة الثالث عشر و الرابع عشر من شهر أوت، محطة توقف القوافل بعين وسارة، تعرضت لأعمال وحشية من قبل المتمرين، وقاموا بأبشع الأعمال حتى أنهم قتلوا الفرنسيين القاطنين في منطقة عين وسارة، هذه المناطق عرفت التمرد والعنف منذ سنتين، حتى تفاقم الموقف وخرج عن السيطرة. الأغواط المدينة محاطة بالفرسان الأعداء، ينتظرون الفرصة السانحة لاجتياحها، ما منع السقوط هو تواجد الجنرال يوسف1 هو وقواته داخل المدينة، وكانت المناوشات بينه وبين المتمردين مستمرة، وبشكل يومي.

لتخفيف العبء، القيادة العسكرية ترسل لمدينة الأغواط المقدم دو نوسيس من أجل استعادة الأمن، ولو تدريجيا، أخطر القبائل المتمردة قبائل أولاد سيدي الشيخ[2]، منذ

---

[1] مهندس احتلال الجزائر واقتحام مدينة الأغواط، رجل يهودي يتقن اللغة العربية والخبير في الدين الاسلامي والتصوف، طبق نظرية التحالف الصليبي الماسوني، يعبر عنها عوام الناس بقولهم: العربي يقتل العربي.

[2] عائلة أولاد سيدي الشيخ حلت بالصحراء الجزائرية قادمة من تونس، الأب الروحي لهذه القبيلة هو سيدي الشيخ 1534 ـ 1615 ميلادية، هو من أكسب القبيلة اسمها لعبت أدوارا خطيرة في تاريخ الجزار، ولا سيما الناحية الغربية لوهران، الشيوخ الذين تعاقبوا على القبيلة هم: سي الحاج بوحفص وسي الحاج عبد الحاكم و سيدي شيخ بن الدين و سي العربي مولاي العافرة و سي أبو بكر بن سيدي العربي وسيدي العربي بن

قرون عديدة سكنوا الصحراء، هذه المرة قائدهم وزعيمهم شاب، لم يتجاوز العشرين من عمره، هو سي أحمد بن حمزة بن سيدي أبي بكر، هذا يقف وراءه عمه، رجل فارس متفرس في الحروب وقيادة المعارك، إلا أن خطره أكبر من ذلك، هو عالم يعلم الجغرافية الطبيعية والسكانية للصحراء، والهضاب استطاع سي لعلا، أن يجمع حوله قبيلته وحلفاؤه، ما جمع شملهم ووحد صفهم التعصب للإسلام. هذا الدين وحدهم وجمع كلمتهم هذه القبائل أقسى ما تمتلك قطعان هزيلة، لا تسمن ولا تغني من جوع، بدو رحل يتحركون في أراض قاحلة جرداء، تمتد من تونس حتى تصل المغرب، يبحثون عن المراعي وخاصة أيام الصيف المحرقة، يواجهون الجفاف وقلة الماء والعشب بالتنقل الدائم وهم يحملون معهم الخيم المتردية، عسى ولعل تحميهم برد الشتاء ولحف الصيف، يفتقدون الماء والغذاء. نحن جنود فرنسا نشاهدهم لما نترصدهم، ونراقب حركة تنقلاتهم، الأشقياء يؤثرون حياة البادية القاسية، ويتركوا حياة الحضارة التي نعرفها نحن، اعتقادهم زيف لهم الحقائق، أحبوا دينهم، واعتقدوا أنه حرية، وتركوا حب فرنسا وقيمها. الأيام التي عرفوها قبل وجودنا عندهم يسمونها أيام الحرية، هي حلم من أحلامهم، ووهم من أوهامهم، أبى الوهم أن يتركهم ويخلي سبيلهم، ليعرفوا من نحن فيقتدوا بنا، ما يظهر فيهم مرابط ولي

أبو بكر و سي أبو بكر بن سيدي العربي و أخيرا سي حمزة بن سيدي أبي بكر هذا له دور خطير، حيث مكن الفرنسيين من الصحراء لصلاته الوثيقة بسلطان المغرب، تزوج السلطان أخته الياقوت بعد سنة 1850 ميلادية، حسم سي حمزة بن سيدي أبي بكر معركة الأغواط والصحراء لصالح فرنسا، هو ووالده وبعض من إخوته، وبعض من أبنائه، ومن الذين قادوا الجهاد ضد فرنسا من العائلة سي لعلا بن أبي بكر وآخرين نعرفهم في سياق الأحداث.

يخبرهم، ما قال الله والرسول يهرعون لأسلحتهم، ويفعلون الأفعال القبيحة ضدنا، هم ينهبون يذبحون، لما نحضر لنعاقبهم، ينتشرون في الصحاري ويختفون.

لما وقع تمرد أولاد سيدي الشيخ السابق سنة 1864 ميلادية، هربوا ناحية المغرب ومكثوا سنة، يعالجون خسائرهم، ويحضروا أنفسهم للثأر والانتقام خريف 1865 ميلادية، ظهروا دون حين موعد في مناطق وهران، واستنهضوا القبائل المتواجدة وطلبوا منهم الثورة والعصيان ضد فرنسا. الدعوة للتمرد ليقيت الآذان الصاغية استجابت بعض القبائل وأهمها الحميان، وتأكد لدى القيادة العسكرية الفرنسية، أن الصحراء مقبلة على انتفاضة عارمة وشاهدنا قائد الثوار يصل قصر عين ماضي، جنوب العاصمة الجزائرية ليخبر الخليفة التجاني، أن هناك ثورة قادمة، ستقوم بها كل القبائل المتواجدة بمحيط مدينة الأغواط، والمنتشرة بين هذه المدينة، ومدينة بوغار[1].

هذا الخبر المفزع اعتبره المقدم دو نوسيس إنذارا خطيرا، وشرع في التحضير لهجوم مضاد، وعلم أن القيادة العسكرية العليا حركت الأفواج المقاتلة، وهي ليست بالقليلة وتم أمر المقدم سلوسيتا sollicita بالتحرك بقواته، من أجل الضغط على قصر عين ماضي. لأن احتوائه ومنعه من التمرد، يؤمن جبل العمور، ويمنع المتردين من الوصول إليه ويمكن أن يتحقق ذلك بالحركة شرقا، والوصول لقصر تاجرونة، المعلومات المتواترة لدى القيادة العسكرية، تقول أن العصيان والتمرد وصل قصور بني ميزاب، وأن قبائل الشعانبة استقبلت رسل المتمردين، واستمعت ولبت دعوتهم.

[1] هي القبائل المنتشرة جنوب المدية ومنها قبائل أولاد نايل المعروفة تاريخيا أولاد نايل جنوب المدية.

وصلت الأوامر من القيادة العليا، قبل أن تصل هذه الأوامر العليا، قائد مدينة الأغواط جمع ما يقرب من ألفين من الجمال، وظيفتها تحميل المؤن والأمتعة وحوايا الماء وإن لزم الأمر تستعمل لحمل أفراد المشاة. هذا يقع أي حمل المشاة، حين تقع مطارة الفارين من المتمردين، تجميع قوة الجمالة والاشراف عليها، هو تحت قيادة الدائرة العسكرية لمدينة الأغواط، ويعود الفضل في هذا العمل الرائع للمشرف على القطاع العسكري المقدم دو نوسيس، وهي بحق من أعظم إنجازاته.

الفوج القتالي المشكل لم يستقر داخل مدينة الأغواط، هو خارج المدينة بمسافة تقدر بين كيلومتر أو كيلومتر ونصف، بمحاذاة الناحية المؤدية للصحراء، إذا شاهدت الفوج وهو منتشر ومبعثر على شكل أكواخ مصنوعة ومركبة، مما هو موجود في الطبيعة من مواد أولية، هذا الصنع الجميل العجيب، ذكرني برحالة هولندي، لما شاهد قرية تصنعها قوارض القنادس من أجل ذلك، أحد الضباط كتب: « لم نجد الأخشاب ولا مواد البناء لتشييد أكواخنا، كنا نصنع اللبن من مزج الطين بالماء، ثم نتركه يجف في الشمس، هذه الطريقة العجيبة في البناء هي من عوائد أهل البلد في لمح البصر، الأكواخ تتكاثر ويتزايد عددها، هي أشكال متباينة مختلفة الارتفاع والأطوال. كل بَنَاء يراهن على موهبته وكفاءة خياله، هذا يبني سكنا ريفيا، والأخر يبني قلعة تناسبه وآخر بنى بيتا على شكل سرداب وهكذا، مع تناغم في هندسة البناء، هذا يحيي المعمار القوطي، وآخر الهندسة الاسلامية وهلم جرا. البناؤون يلتقطون أي شيء أمامهم، لصناعة النوافذ والأبواب وجدوا كفايتهم في صناديق البسكويت، الأمور الصعبة أسعفتنا فيها الدوائر الحديدية هذه سحبناها من البراميل الملقاة، غير الصالحة للاستعمال. لم نترك أكواخنا دون تجميل صنعنا الشرفات والمداخل من القصب، ولأن نبات الحلفاء وافر هو كذلك، دخل في مواد البناء، صنعت منه الحبال، واستفدنا من هذا النبات، لما جعلنا منه حواجز وقاية وأمان، وأضفى على المكان جمالية، جاءت من اللون الأخضر لهذا النبات العجيب. رغم

عبثية البناء مع ذلك تم تنظيمه، فأضحى لكل فوج وفيلق منطقته الخاصة به، وهذا احتاج منا تنظيم الشوارع، ووضع المعالم وبيان الأماكن التي يسكنها الضباط، الحي الجديد مفعم بالحيوية والنشاط، وتم إحضار الغزلان من قبل المجندين، واستطاع الجنود أن يروضوا الغزلان على الرقص، فلا تتعجب وأنت ترى غزالة جميلة، ترقص وتقف على رجليها الرقيقتين، كأنهما قُطعتا من حديد صلب[1]. »

الفوج القتالي المكلف بالبعثة العسكرية، يتشكل من 12 كتيبة مطارة مشاة، كتيبة واحدة زواف، وفصيل من القوة الرابعة مطارة خيالة، وقطعتان من قطع المدفعية مع مجموعة من قوة السبايسية، وأخيرا عمال إدارة وممرضين. مجموع هذه القوة 1379 بندقية 245 سيفا، هذه القوة مدعومة بالقومية قومية أولاد نايل والأرباع في المجموع هو 600 خيال، القافلة العسكرية مكونة من 1700 جمل، قوة الجمالة مكلفة بحمل الأمتعة وكذلك المؤن.

القومية العرب[2] التابعين للقافلة العسكرية، هم مسخرون بحكم أن قبائلهم استسلمت ومن شروط الاستسلام أن كل قبيلة تسلم مسخرون، يعملون تحت القيادة العسكرية ومنهم من هو يعمل حبا في العلم الفرنسي الذي يحمله، وهناك شيء أكبر من ذلك يدفعهم للعمل معنا، وهو ما يحصلون عليه من الغنائم، بعد حسم المعارك لصالحنا القيادة العسكرية تتكفل بتسليحهم، وتوفر لهم المركوب، لا يخضعون للتنظيمات العسكرية الصارمة، هم منظمون حسب القبائل، يرفعون رايات ملونة تخصهم. القيادة العسكرية لا

[1] Charles Lagarde, Une promenade dans le Sahara, p. 110.

[2] التحالف الماسوني الصليبي مع بداية الغزو استعان بقوة الزواف في حسم معاركه وهي قوة نظامية من بقايا الدولة العثمانية ثم تخلى عنها ليستبدلها بقوة الرماة التي حسمت كل المعارك إلى جانب قوة القومية كلها وغيرها مشكلة من الأهالي.

تتكفل بحاجاتهم الغذائية، هم مستغنون، لا يحملون المتاع، يسوقون مواشي يجعلونها للاستهلاك، حكماء في تصرفاتهم، يطيعون قاداتهم لما يؤمروا بمهام في الصحراء، يتفوقون على القطاعات العسكرية النظامية في السرعة، وتحقيق الهدف المطلوب. فروسيتهم لا تقارن بفرساننا في القوات النظامية، هم يسبقون الأفواج المقاتلة لمسافات تتعدى 29 كيلومتر، عبر كل الاتجاهات وأعظم أعمالهم، أنهم يتجسسوا على العدو، ويباغتوه ويسلبوه الغنائم، ويأسرون فرسانه، ومن أعمالهم الجليلة، اكتشاف طلائع العدو ورصد تحركاتهم، وهم يقدمون المعلومات الحاسمة، وينقذون قواتنا في المواقع الخطيرة والحاسمة. المقدم دو نوسيس الرجل العادل الفاضل، المفعم العامر بالأخوة والانسانية، المؤمن بتعاليم المسيح، الفارس هو في العطاء والفروسية كالقومية، يشاطرهم هذا الفضل من أجل ذلك، القومية هو عندهم صادق ووفي، بل هم له أوفياء المقدم دو نوسيس، لما يحتاجهم يجدهم، وهم محل ثقة عنده.

القطاعات العسكرية بدأت الاستعداد والتحرك خارج معسكراتها، هذا استغرق زمنا بين 22 شهر أكتوبر حتى 22 من شهر نوفمبر، أول ما تحرك الفوج القتالي، أخذ طريقه ناحية جبل العمور، وقام بمهام استطلاعية للمناطق الواقعة، بين قصر عين ماضي ومدينة جيري فيل[1] بعد انتهاء هذه المهمة عاد أدراجه ناحية الأغواط ليتزود بالمؤن، لم يبق في مدينة الأغواط إلا ثلاثة أيام فقط، يوم 25 نوفمبر قام بعمليات جنوب وهران وبقي على حاله حتى يوم 27 ديسمبر على حسب ما كتبه تريمليت Trumelet[2] : «ان مهمة هذه القطاعات العسكرية، هو منع المتمردين من الذهاب ناحية الشرق، وهم مطاردون من قبل القوات العسكرية المتمركزة في كولومب، و لاكرتيل Lacretelle

---

[1] مدينة البيض الآن.

[2] Colonel Trumelet, Histoire de l'insurrection des Ouled-sidi- Cheikh, 2 partie, p. 281.

واستطاع الفوج القتالي أن يصل قصر سيدي الحاج الدين يوم 3 ديسمبر. الفوج وصل فرقة أولاد زيان في بيقة، الواقعة يسار ضفة واد زقار. تم سلب أولاد زيان قطعانهم وتم إخضاعهم واجبارهم على الاستسلام، وهم يقولون شكرا. كل العمليات السريعة والخاطفة والباسلة الحاسمة المنظمة، التي تؤتي أكلها عاجلة، يعود فيها الفضل لقوة القومية، هم من يحسم المعركة قبل أن تلتحم القوات النظامية بالأعداء، بمسافات بعيدة هم من يسبق ويهزم العدو، ويحقق النصر لنا، ولأفواجنا النظامية. »

الفوج العسكري ما اقترب من العودة، والدخول لمدينة الأغواط، حتى سمعت القيادة في القطاع العسكري التابع للمدينة، أن سي لعلا القائد العَلَم قائد أولاد سيدي الشيح هو الآن بالقرب من متليلي الشعانبة، وهو الآن يستنهض الرجال، ويعلن النفير، وحتى يؤكد الشعانبة صدق نيتهم، غزوا أولاد صالح الذين هم في حلفنا، لما علم المقدم دو نوسيس خبر الغزوة، وعرف مكان وقوعها، أخذ طريقه نحوها.

لما تنظر إلى خريطة انتشار قواتنا، وتنظر إلى النقطة النهائية ناحية الجنوب، ستجد أسفل مدينة الأغواط المركز العسكري متليلي، ولما تمعن النظر ستعرف أنه يظهر استيطاننا، ووجودنا كقوة تبغي التوسع والانتشار في هذه البؤرة الاستيطانية، وصل الفوج القتالي يوم التاسع جانفي، والغاية من تواجدنا هو مباغتة سي لعلا، للأسف قبل أن نصله علم خبرنا انسحب، وهذه المرة لم يكن وحيدا، انسحبت معه مجاميع من الشعانبة مع قطعانهم.

ما جاء الغد ومع طلائع الفجر، المقدم دو نوسيس أعطى الأوامر لستمائة من فرسان القومية، القيام بعملية استطلاع، وأمرهم باللحاق بالعدو وسلبه قطعانه، خرج القومية مسرعين لكي يقوموا بالمطاردة، فجأة ودون علم مسبق، سمعوا إطلاق نار كثيف. هذا وقع الساعة الثامنة صباحا، زمن قليل وحضر رجل عربي من قوة القومية، ليظهر

الاصابات التي لحقته وأخبر قيادة الفوج، أن المتمردين كمنوا لهم عند صخور شبة، هي واقعة على ضفة واد سيدي الشيخ، النقيب لورو Leroux المسؤول عن مكتب العرب، وعد بأن يعطي الأمان، إذا سلم المتمردون قطعانهم، وتخلوا عنها. ما توقف عن الكلام، حتى سمع الحاضرون صوت إطلاق رصاص، أمام المفاجأة، القومية تراجعوا بقي ثلاثون منهم لأنهم أبطال وشجعان، وواجهوا إطلاق النار وثبتوا، هنا قام النقيب لورو وأبلغ المقدم دو نوسيس الخبر، وطلب منه النجدة، في هذا الوقت النقيب ثبت مع القومية، جمع حوله مجموعة من رجاله وقام بهجوم مضاد، تقدم ناحية الأمام، واستطاع أن يستولي على ضفاف واد مسكل، ثم أخذ له موقعا عند مصب للوادي تحوطه النخيل، هنا وقف لينتظر مرور المتمردين، لأنه كان يعرف أن لا طريق للمتمردين إلا هذا المسلك، وأنه لما يبسط السيطرة عليه، لا خيار للمتمردين إلا الفرار ناحية الأمام.

المقدم دو نوسيس وصل النقيب في مكانه الذي تحصن به، وصله مع فرسانه وكتيبتين من قوة المشاة المطاردة، وكتيبة زواف، هذه القوة هي مسرعة ولا تحمل إلا السلاح والذخائر، هذه القوة المتحركة الخفيفة بعد ربع ساعة، قطعتها في الضفة العليا لواد متليلي شاهدت يسارها، فرأت أن المرتفعات محتلة من قبل المتمردين، قوة المشاة المشكلة من كتيبتين، بدأت في تسلق الصخور، مستخدمة الأيادي من أجل الوصول للأعداء ليكن التلاحم فوق الهضبة الصخرية.

قوة المطارة المشاة وصلت الهضبة الصخرية، بدأت المعركة الشرسة، أين يغيب التعب ويبقى الجهد البدني هو الذي يحسم المعارك، كل تلة وهضبة ومرتفع وضفة، إلا وكانت مسرحا للمعارك. المتمردون هربوا في كل الأنحاء، وخلفوا وراءهم القتلى منتشرون على الطرق والممرات. خطة المقدم دو نوسيس أن يتقاطع مع قوة القومية، إلا أنه تخلى عنها لما شاهد يساره غير بعيد قوة من المتمردين، تحاول إنقاذ القطعان، وإخراجها من ساحة

المعركة، ترك قوة المشاة المطاردة، وأمرهم أن يلحقوا به في أسرع وقت ممكن، بعدما ينهوا مهمتهم، ثم حرك فرسانه ناحية القطعان، ووصلهم بعد زمن، وأدركهم عند كاف محصر ما شاهده المتمردون ضحكوا منه، لأنهم في مناطق صخرية، يستحيل على الخيول تسلقها. المقدم دو نوسيس ترجل فرسه، وأمر فرسانه أن يترجلوا، وأمر قوة السبايسية1 أن تفعل نفس الفعل، وأبقى بعض الحرس لحراسة الخيول، المقدم أعاد تنظيم القوة من جديد، وطلبهم بالقيام بهجوم على المتمردين، حتى أن فرسان الشعانبة الشرسين، ما استطاعوا أن يواجهوا هذه القوة، حتى فرسانهم الأشداء ما ثبتوا، تركوا مواقعهم، واحتموا بالصخور، حماية لأنفسهم، وتركوا قطعانهم وهربوا. هنا وصلت الكتائب الثلاثة للمشاة وبدأت مطاردة المتمردين، وفي منظر مهيب مشرق مفعم بالحيوية والنشاط، كتيبة الزواف وقوة المطاردة، حملت الخيول من موقع حراستاها، لتعيدها للفرسان الذين هم الآن مترجلون، ليلحقوا بالمتمردين من أجل قتلهم وأسرهم، لما اجتمعت قواتنا، كانت قوة العدو تنتشر في الأرض وتلوذ بالفرار، وتبحث عن النجاة والأمان، المقدم دو نوسيس ترك الهضبة الصخرية، ليأخذ طريقه ناحية معسكر متليلي، ودخل المعسكر منتصرا ظافرا على السابعة ونصف مساء.

فرسان القومية وصلوا قبله بساعة، ليدخلوا المعسكر، يحملون الغنائم الجزيلة، نعم هؤلاء الفرسان هم من الأهالي قاتلوا بشدة، ولهم الحق في هذه الغنائم الوفيرة، لا تصدق كم غنموا: سبعة آلاف وثلاثمائة وخمسون رأسا من الغنم، ومائتان وستون جملا، وثمانية وخمسون حمارا. من ناحية أخرى الفوج الصغير الفرنسي غنم خمسة آلاف رأس غنم مائة

[1] السبايسية أو الصبايحية قوة من الأهالي جدد نظامها الجنرال يوسف منذ الأيام الأولى لسقوط العاصمة وهي قوة ضاربة حسمت المعارك ضد المسلمين وتبقى قوة الرماة هي المتقدمة دائما كل هذه القوات جندها الماسون لخدمة مشروع الاحتلال.

وثلاثة وثلاثون جملا، وثمانية وأربعون حمارا1 العدو ترك في أرض المعركة خمسة وأربعون قتيلا، الفوج القتالي خرج معافى، لا قتلى ولا جرحي بشكل كبير، والفضل في ذلك يعود للتدابير الاحترازية التي أخذت بها القيادة العسكرية، وأنها لا تسمح للقوة النظامية من النزول إلى أرض المعركة، إلا بعد أخذ احتياطات الأمان، المشكلة أن قوة القومية مندفعون وغير حريصين على قواعد الأمان من أجل ذلك، قُتل خمسة منهم، وجرح ستة، وقتل من الأحصنة خمسة وجرح واحد وعشرون، جروحهم كلها قاتلة.

مكث المقدم دو نوسيس في متليلي من يوم 11 إلى يوم 19 جانفي، هو مركز عسكري يفتقر لأبسط مناحي الحياة، موجود في واد أرضيته رملية تحته النخيل، ينتهي بمنحدرات صخرية هي صور طبيعي يحميه، الداخل هو عبارة عن أزقة ضيقة ومتعرجة، تكثر فيها الأقذار والأوكار. قبيلة الشعانبة وهم بدو رحل، يمتلكون غابة النخل الكبيرة، وبها بساتين منتجة للغلة، تتحصل عليها القبيلة، المقدم أراد أن يعاقب قبيلة الشعانبة عقوبة تبقى راسخة في أذهانهم: فرض عليهم ضريبة مقدارها مائة ألف فرنك، جمع الشعانبة المستسلمين داخل المسجد، وأعلن من هو القايد الجديد الذي سيحل محل القديم الذي وقف وتحالف مع الأعداء، القايد الجديد لا يمارس وظائفه، إلا بعد موافقة السلطات العليا الفرنسية. يوم الخامس عشر علمنا أن الولي الصالح الكبير ناصر بن شهرة، هو موجود قريبا، والمسافة لا تتجاوز العشرين كيلومتر، هو يتواجد في منطقة برقاوي واقعة على طريق المنيعة، معه مائة فارس وثلاثمائة مقاتل، هذا الوجود يستدعي التدخل، إلا أن الأوامر تمنعنا من تجاوز مسافات معينة خارج متليلي، المقدم دو نوسيس احترم

[1] لما نحسب الغنائم كلها هي: الغنم: 12350 الجمال 293 الحمير 98. لما نقوم بحسابها بسعر السوق اليوم ونأخذ بالقيم الحقيقية للنقد في ذلك الوقت نحن نتكلم عن رقم خيالي يفصل فيه علماء الاقتصاد وهذا يفتح لنا دراسة علمية تُقَيم لنا كم قدم الحلف الماسوني لحليفه الصليبي.

التعليمات، وقفل راجعا ناحية مدينة الأغواط، وصل مع فوجه القتالي يوم 28 جانفي 1866 ميلادية.

المقدم دو نوسيس أثناء العمليات القتالية أسر عبدا أسودا وأمة سوداء، يملكهما الولي ناصر بن شهرة[1]، المقدم أمر بتحريرهما، وقدم معهما أعداد أخرى من العبيد، المقدم وزعهم على البيوت التي يسكنها الفرنسيون، من أجل العمل وتحويلهم إلى المسيحية.

المقدم وأثناء أعماله اليومية، وجد في بيت أحد زعماء التمرد سيدي عبة، عشرة آلاف قطعة المسماة دورو الاسبانية، ويعود الفضل للضابط العربي لخضر بن مُحَمَّد آغا الأرباع وهو يحدثنا عن هذه الواقعة الشيقة، التي مكنت من اكتشاف هذا المبلغ المعتبر، وهو يكلم المقدم الذي تجمعهما علاقة صدق وثقة متبادلة: « قلت له: سي لخصر بن مُحَمَّد، ماذا كنت ستفعل لما اكتشفت هذا الكنز العظيم ؟ قال لخضر: سيدي الأمر في منتهى البساطة سأحمل هذا المال، وأضعه في الخزينة العامة. أظهرت له انزعاجي، وقلت له: سي لخضر الخزينة عامرة بالمال، نحن ندفع يوميا عشرة آلاف فرنك من أجل فقط تهيئة الفوج للأعمال القتالية، هذا مبلغ عندنا زهيد، أظن يا سي لخضر قد ضيعت غنيمة نفيسة، وأنت تشرف على بيت تعداد من فيه إحدى عشرة فردا. سي لخضر نظر نظرة حادة وقال للمقدم: لن يقع هذا أبدا ثم أجاب، وهو يظهر ازدرائه للمال قائلا: هذا لا ينفعني لما أوضع في قبري.[2] »

---

[1] المؤلف غرضه تحقير المجاهد ناصر بن شهرة رحمه الله.

[2] قتل المسلمين حلال وسرقة الصليبي حرام هو يعتقد أن فعله هذا يخدم دينه لأن الدعاية الماسونية قادت حربا نفسية على الضعفاء أوهمتهم أن الحكم العثماني فاسد وأن الحق مع الصليبيين.

البعثة التي احتاجت ثلاثة أشهر من المقدم، لم يذكر منها إلا بعض الأسطر، وردت في رسالة كتبها لصديق:

« أخبرك صديقي أنني أعيش حياة الغجر، وهي حقيقة تروقني، الأكيد أنها لم تلحق الضرر لا بنفسي ولا بروحي، وهذا من فضل الرب علي، أنا لم أستلقي على سرير منذ ثلاثة أشهر، وأخوض طريقي مع فوج قتالي تعداده ألف وسبعمائة مقاتل، تشكيلاته رائعة. هذه الأيام القليلة حققت نصرا رائعا في متليلي، خسرت خمسة رجال فقط وجرح من جندي ستة، وقتل مائة وواحد من الأحصنة، نعم قتلنا من الأعداء خمسة وأربعون رجلا، هم أعداؤنا هذا النصر استسلم بعده من تمرد في مناطق الشرق فيما سبق، لم تستطع كتيبة فرنسية الدخول إلى متليلي، ونحن استطعنا. »

راسلت القيادة العليا وزارة الحربية، بحكم أنها عارفة بالوقائع، وتمتلك من المعلومات الدقيقة، ما جعلها تصرح: « الشعوب الصحراوية بعدما رأت وشاهدت الانتصارات، لن تمنح للمتمردين الأمان في أراضيها، من يسكن الصحراء الآن، يقول لنا شكرا، بل يطلبون العذر والسماح. »

انتهت الحملة العسكرية، المقدم دو نوسيس ذهب للعاصمة، وبالتحديد إلى ميناء الجزائر كي يستقبل عائلته زوجته وأبناؤه، ليحملهم إلى مدينة الأغواط، ليجد الدفء العائلي وهذا لا يعني التخلي عن الواجبات، والمقاصد العليا للدولة الفرنسية.

الطريق التي سلكها المقدم حتى يصل مدينة الأغواط، لها شواهد عما فعل المتمردون خلال السنتين الماضيتين، يتحدث المقدم ويقول: « طول الطريق التي سلكناها المتمردون لهم أثر، هؤلاء العرب أحرقوا محطات التوقف، الكثير من الحراس قتل وعلمنا أن المتمردين العرب، اختطفوا بنتا فرنسية وأخذوها ناحية الصحراء، نحن نسكن المنازل

المدمرة، أقل ما يقال عنها أنها آثارا بالية، هذه المنازل شاهدناها أثناء التوقف وشاهدنا الحراس، وهم في هذه الحالة المزرية، حتى هذه المنازل المتهالكة، لم يسكنها الجنود والحرس، إلا منذ أيام قليلة. »

نعم العدو لم يترك سلاحه بعد، لما عاد المقدم لمدينة الأغواط، لم يمكث طويلا مع عائلته لأن انتهاء الشتاء وقدوم الربيع، يعني لنا أن صوت البارود سنسمعه لا محالة، هذه المرة لن نصمت، ولن نتراجع، سنوجه بعثتنا العسكرية إلى أبعد نقطة ممكنة، وسنستغل كل امكانية متاحة لخدمة هذه الغاية المرجوة. العائق الذي يؤرقنا هو قلة الماء في الصحراء وندرته بل وانعدامه أحيانا. العدو الحقيقي الذي نواجه ليس العرب بل هو العطش، لما توغل في الصحراء، لا تستطيع أن تؤمن أي مكان، ما تشاهده على الخرائط من وديان ومسارات للمياه هي خطوط وهمية، ما تصلها حتى تجدها جافة قاحلة مقفرة، أحسن الوديان تعرف التدفق مرتان، ثلاث مرات في السنة، هذا التدفق يحصل قويا وسريعا، سرعان ما تتبخر المياه بعده، وتجف أراضيها ما يبقى البرك المائية، هذه لا تدم طويلا، القوافل تأتيها بعد زمن قليل، تستنفذ وتجف ويتبخر ما بقي فيها من ماء قليل.

المصدر الوحيد والأمل الأخير هو الآبار، وبعض الحاويات الطبيعية التي تحوي المياه بعضها عميق في الأرض، المشكلة أن المسافات بين هذه الآبار كبيرة لقطع مسافاتها تحتاج إلى أيام كاملة، لما نقم بهذه الرحلات الصحراوية، لا خيار لنا إلا أن نحمل الماء معنا لسد حاجة القافلة والفوج القتالي.

هذه المرة الفوج القتالي مشكل من ألف مقاتل مشاة، وخمسمائة من الفرسان، مائة وخمسون من قوة المدفعية، وتسعمائة من القومية في المجموع نحن نتكلم عن قوة تعدادها ألفين وستمائة وستون مقاتلا، ونحن لم نحسب طاقم الجمالة مع العلم، أن عدد الجمال ألف وتسعمائة، تشكل القافلة العسكرية.

المقدم دو نوسيس تعجل أمره في التحضير والاستعداد، لأن الأخبار السيئة والمقلقة بدأت في التواتر، السادس عشر من شهر مارس، الشاب سي أحمد تقدم مع فرسانه شمال مدينة جيري فيل، لما وصل منطقة بن حطاب، تجرأ وهاجم ملحقة عسكرية، تابعة للفوج القتالي التابع للعقيد دو كولمب de Colomb، قتل اثنين وعشرين من القوة التابعة للملحقة منهم ضابط، وجرج أربعة وثلاثين. بعد هذا العمل الدموي الاجرامي عصابة الولي سي أحمد نزلت ناحية الجنوب، أمام هذه الأخطار المحدقة كان على المقدم دو نوسيس ملاحقة هذا المتمرد، ومنعه قبل أن يتقاطع ويصل متمردا آخر هو ناصر بن شهرة، هو الآن في قصور بني ميزاب، يحتمي بها هو وفرسانه وكثير من أتباعه ومؤيديه تم وضع خطة عسكرية بحيث يتحرك فوج الأغواط مع حركة فوج جيري فيل، لقطع طرق الغرب، ومنع الأعداء من الهروب إلى المغرب.

البعثة العسكرية لسنة 1866 ميلادية، حكاها ضابط من ضباط البعثة، وهو السيد برنارد هار كور Bernard d'Harcourt كتبها على شكل مقالة رائعة في مجلة عالمان Deux-Mondes، هو ليس بالمقال بل هو لوحة فنية مزينة بأجمل الألوان الحية، هذه البصمات الجمالية سنقتبس منها إيحاءات ونكملها بمشاهد أخرى.

« يوم 25 مارس هو يوم البشارة، تجسد ربنا اليسوع، هذا اليوم الجليل جعله المقدم يوم الخروج، وفعل كما تعود دائما، قدم القرابين وشارك في القداس وجمع حوله الضباط وعائلاتهم وآثروا أن يرافقوه الخروج كلهم. خرجوا يتبعون الفوج القتالي لمدة ساعة كاملة ثم عادوا أدراجهم ناحية مدينة الأغواط، خروج هذا الموكب المهيب، المشكل من ألفين وستمائة من قوة المشاة والفرسان وألف وستمائة من الجمال، هذا العدد العظيم يملأ الآفاق، ما سارت القافلة حتى رسمت خطا أبيضا، أخذ مساره ناحية اليمين، الخط رسم معلما بين الأرض والسماء.»

« يكلمنا السيد هار كور بكل حماسة عن الخروج، إلا أنه يتأسف عما وقع في معركة بن حطاب، هذا الاخفاق يحفزنا للنصر، وللقاء العدو في كل الأحوال هو إخفاق صغير ونحن لن نترك بل سننتقم، الشجاعة والقوة تأتينا من القائد المقدم دو نوسيس، إن الثقة التي يجدها هو في نفسه، نحن كذلك نجدها، هذا الشعور بالثقة صاحبني، حتى ارتفع بوق الانذار.»

« بعد سبر دام ثلاثة أيام في سهل ممتد يغطيه نبات الحلفاء، وصلنا قصر تاجرونة هو صغير لونه رمادي، يسكنه ما بين مائتين و ثلاثمائة نسمة، تقل بل تنعدم الأشجار، ما هو موجود بالقصر عين تغذي بعض المحاصيل. جنودنا لا أمل لهم في ساكنة القصر القليل الموجود من غذاء وماء، أخذ منهم في لحظات، لما كنا نترك القصر قلنا وداعا، لما تبق من حضارة هي قليلة بالكاد تشاهد، احتجنا ثلاث أيام أخرى ،ونحن نمشي مع مسار واد زقوم، كل مساء نضع الخيم على حافة الوادي حتى نمنح فرصة للخيل، لكي تجد حاجتها من العشب الرطب، وهو يكفيها وقتا طويلا.»

المقدم دو نوسيس الحذر الجاد في أعماله، يأخذ ترتيباته القتالية، يوم 31 أعطى الأوامر لمجموعة من القومية للتوجه إلى قصور بني ميزاب، ليعلم الشعانبة أنهم مستسلمون، ثم يقوم القومية بهجوم على ناصر بن شهرة ومن هم معه، بصورة توهمهم أن الهجوم جاءهم من قبل المقدم وفوجه القتالي. لما يرى ناصر بن شهرة القومية تباغته، فهو لا يشك أن الفوج موجود بالقرب منه، وهذا سيفسد خططه ومشاريعه في قصور بني ميزاب وسيتيقن أن القافلة العسكرية الفرنسية التي يخشاها، هي أقرب إليه من حبل الوريد. لما ينجح القومية في هذه المعركة الوهمية، ويحافظون على أسرارها، يعودون إلى مكانهم الأول الذي تركوا فيه المقدم دو نوسيس، نجاح القومية في هذه المهمة السرية والوهمية ستترك سي لعلا يعتقد أن الفوج القتالي، هو عند قصور بني ميزاب، وأن هدفهم هو

ناصر بن شهرة، ومن ثمة سيشعر بالراحة والأمان، هذه الخطة ستخرج سي لعلا من ملاذه الآمن، الموجود عند مياه الواد الغربي، ما يترك الواد حتى تأتيه المفاجأة، سيجدنا أمامه. سمع القومية الأوامر وشرعوا في تنفيذها، المقدم دو نوسيس استغل فترة المهمة ليرتاح قليلا في معسكره الواقع في منطقة طير الحبشي، قام بهذا الفعل في سرية مطلقة حتى لا يعلم الأعداء خبره، وتفشل خطة القومية السرية، ثم خرج كما دخل في سرية تامة، ليعلن بداية العمليات العسكرية، هذه المرة سيكون التوجه ناحية الجنوب.

محاربة المتمردين أمر مرعب، ومنازلتهم في الصحراء أرعب، بدأت العمليات اليوم الرابع من شهر أفريل، فجأة بدأت الرياح العاصفة، وارتفع الغبار ومعه الرمال، وتشكلت سحابة داكنة، لحظة من الزمن غشينا الغبار وأطبق علينا، نحن بالكاد نتحرك أو نمشي من شاهد فعل العواصف، وارتفاع العبار المحمل بالرمال قال السيد هار كور : « الظلام الدامس غطى كل شيء، فقدنا خاصية التعرف على الآخرين الأقربين، قبل الأبعدين، ما عدنا نسمع وقع الأقدام هي مغمورة في الرمال القادمة المتحركة، صفير الرياح يصم الأذان، من أراد أن يتكلم أو يطلب المساعدة صوته أشج، بالكاد أحدنا يخرج صوتا ضعيفا مبحوحا، ذرات الرمل دخلت الحناجر، سعال حابس وحشرجة يجدها كل من عايش هذا اليوم التعيس. حاولنا أن نتواصل مع بعضا، فقدنا الرؤية، بعدما فقدنا الصوت والحركة هو العمى، بصيص البصر نجده لما تغير الريح وجهتها، ذلك الوميض الخافت الذي ترسله الريح، يشعرنا بأننا ما زلنا أحياء، وميض الريح الخافت، أعطانا القدرة على تمييز خيال الفارس من فرسه. ساعتان كاملتان في ظل زوابع رملية ورياح عظيمة، تقتلع كل شيء يقف لها في طريقها مع الزمن خفت العاصفة، وبدأت غيوم الرمل المرتفعة فوق رؤوسنا تنزل ناحية الأرض، هذه الأمواج الساقطة، رسمت على الأرض زخرفة رملية، لما رأيت هذا التنميق الزخرفي، قلت في نفسي: هي الرمال التي صفعتني هذا الصباح. »

قررنا أن نقيم معسكرنا، طُلب منا التوقف وقمنا بالمناداة رجل لم يرد على اسمه، ارتفعت الأصوات تطالب بالبحث عنه، تم تفتيش المعسكر لا شيء أين هو الرجل ؟ المقدم طلب من مفرزة مشاة ركوب الخيل، والبحث عن المفقود بعد ساعتين، عادوا ولم يعد معهم الرجل، قمنا بإشعال النار في حشائش وبقايا أحراش طوال الليل، عسى ولعل تساعد المفقود في العودة.

التحرك أضحى ضروريا والحركة حسب الخطة، تندرج في مراحل حركة وتوقف بين أربعين كيلومتر و خمسين كيلومتر يوميا، ما يعيق حركة الفوج بطء قوة المدفعية، حركتها بطيئة مع ثبات وعدم تغير.

يحدثنا السيد برنارد هار كور: « أرض نقطعها لا شجر فيها ولا حزمة عشب، تقنعنا أننا في أرض جرداء من بعيد نبصر سلسلة تلال صخرية، ممتدة بلا نهاية تتجاوز الأفق لتعانق زرقة السماء، كنا سنفرح لو وجدنا بركة ماء أو مصب واد، لعله يذكرنا بجمال الطبيعة الذي نحن نفتقده الآن، هذه التلال الصخرية التي بعثت في النفوس الأمل، ما هي إلا سراب مخادع، تخفي أعماق ومتاهات، هي أكبر من الوهم والخيال. »

يعلق السيد برنارد هار كور عما شاهد، وأبصر قائلا: « مناظر الصحراء تشعرك بأن هناك شيئا نحن لا نفقه، هو الخلود. »

« لما وصلنا للمرحلة الأخيرة من الوقف، المقدم أبى أن يرتاح وشرع في تخطيط المعسكر الجديد الذي سنأوي إليه، حدد بداياته وكذلك نهاياته، وحدد موقع كل تخصص، وبين الأماكن التي تخصص لراحة الرجال، وكذلك المخصصة لراحة الحيوانات وخاصة الأحصنة. وبدأ في تحديد حصص الماء والغذاء لتسلم من غد لضباط الأوامر، لما أنهى مهمة التوزيع لم يخلد للنوم والراحة، المقدم قام بجولة بين الخيام من أجل التفقد طاقم

الجمالة أوقد المواقد في أماكن متفرقة ومتباينة، ومنع المقدم أن توقد النار داخل الخيم وأن لا يعود الأفراد لخيمهم إلا بعد الانتهاء من الطهي، وما يطهى يغلف ويحفظ في جلد شاة محظر لهذا الغرض. آن الأوان للمقدم ليختار له مكانا على الأرض، ويخلد لنوم عميق قبل أن يهجع، المقدم دو نوسيس يسترسل مع التراتيل المقدسة يناجي الرب، يطلب منه العون. قلبه عامر بالإيمان، هو يرتفع عن هؤلاء بمحبة اليسوع المخلص، لما يناجي الرب ينظر ويتأمل حوله مرات عديدة، يجتمع مع شاب محب مفعم بالإيمان، يتناجيان مناجاة الرب، هؤلاء هم القلوب الرحيمة المعطاءة، ما تنظر إليها حتى تعرف ما هي هذه القلوب المؤمنة، المحبة للرب اليسوع[1].»

« احتجنا أربعة أيام بعد خروجنا من قصر تاجرونة، لنجد أنفسنا نتخطى ضفة واد هو عبارة عن حوض كبير شديد الانحدار، هذا الحوض غطت سحابة من الغبار المتطاير أنحاؤه، ما سكن حتى شاهدنا على مسافة قليلة تلة رمال يرتفع عليها قصر سيدي الحاج الدين. هذا القصر في عز أيامه لا يجمع إلا بين خمسة عشر وعشرين مسكنا مساكنه تبنى من اللبن ومادته الطين، رغم بساطة القصر هو عند أولاد سيدي الشيخ مقدس لأنه يضم قبر جدهم وشيخهم الأول وهو شيخ القبيلة. أراد المتمردون أن يجعلوه مقرا لتجمعاتهم، ليعلنوا الحرب ضدنا، هذا القصر حطمه فوج عسكري فرنسي، ويفترض أن لا تبقى له باقية، لولا ضريحين بقيا مرتفعين، تم طلائهما بالجير الأبيض الناصع، تحاذيه دور فقيرة بالكاد ترى وتتشاهد، ما قمنا به للتو هو إصلاح بعض الآبار، ورفع عنها الرمال من أجل أخذ، ما هو متبقي فيها من مياه.»

[1] الله المنتقم الجبار هزم الفرنسيس وأذلهم في كل حروبهم، هزمتهم بروسيا وعرفوا المجاعات في تاريخهم الحديث والمعاصر، وهزموا في كل حروبهم ومنها الحربين العالميتين من نصرهم ليس ربهم، بل الدجاجلة وعتاة الماسونية الذين جندوا لهم الجنود، وفتحوا لهم المدن، وسخروا لهم الرجال والنساء لخدمتهم، ألا لعنة الله على الظالمين.

آثر المقدم دو نوسيس، أن يجعل قصر سيدي الحاج الدين مكانا يرتاح فيه، مع العلم أن المؤن المتاحة للفوج القتالي، لا تسمح بحركة جديدة للفوج، المقدم أرسل مفرزة من قوة المطاردة، معها طاقم جمال مشكل من أربعمائة وخمسين جملا من أجل إحضار المخزون الغذائي، الذي ترك في قصر تاجرونة ما استقر عند ضباط الفوج القتالي، أن الفوج بهذه الطريقة هو بطيء الحركة، وليس بمقدوره اللحاق بالأعداء. لتجاوز هذا العائق هو فصل المشاة وقافلة المؤن عن حركة الفوج، وبالتالي يتحرك الفوج القتالي بمفارزه الثلاث، وكتائب الزواف، وعددها ثلاثة، النتيجة نحن أمام فوج قتالي متحرك، أفراده لا يحملون إلا أسلحتهم، وبعض البسكويت، ويتم اختيار أفضل الجمال لحمل المؤن والمياه، هكذا وبعد هذا التجديد، البعثة العسكرية عرفت مرحلة جديدة هي خلاف الأولى.

السيد برنارد هار كور يقول: « يوم الخامس عشر أفريل مع طلائع اليوم الجديد الفوج القتالي المتحرك بدأ حركته، لم يتوقف إلا عند الساعة الرابعة مساء، عسكر ليلته ليواصل حركته مع الفجر، إلا أن الحرارة ارتفعت بشكل كبير، وأضحى تحملها فوق طاقة البشر، الحر الشديد أرهق الرجال وحصص الماء الموزعة لا تكفيهم مع السير والحركة. أضحى ما يعيق ليس هو التعب، بل هو العطش، اليوم الموالي تأزم الوضع، وارتفعت حدة العطش، وبدأ الجنود في التساقط. سقط أكثر من أربعين على الأرض من شدة الظمأ، هؤلاء وغيرهم ما كان بمقدورهم التقدم خطوة واحدة، ترجل الفرسان ليحملوا الساقطين أرضا على صهوات خيولهم، إلا أن الساقطين أرضا، رفضوا الركوب وآثروا الفرسان على أنفسهم. رجل كبير برتبة ملازم صرخ قائلا: لو ركب الضباط الخيول لن نجد مقاتلا واحدا واقفا، هنا لم يبق من بد إلا التوقف عن المسير، ما جاء الليل حتى بدأ تحضير العشاء من كثرة الجهد والتعب والعطش، لم يكن أمام من يرد الحركة، إلا أن يزحف ويحاول قدر الامكان، أن يرصف بعض الحصى، ليشكل له فراشا ينام عليه

مستعينا بالمعطف الذي يرتديه، ليعينه على التمدد، ليحمي جسمه من الحصى الظاهر على التربة. لما ألقيت نفسي أرضا، ووضعت معطفي على وجهي، نظرت من بين ثناياه ناحية السماء الصافية العامرة بالنجوم هي سماء صافية استوائية، هذه المشاهدة الماتعة حركت في نفسي شجون النفس، وكدت أن أكون شاعرا وجاء في نفسي، لو أصف هذا الصفاء الواقع فوق رؤوسنا، وأخذت بيني وبين نفسي، أردد أبيات من الشعر أقول فيها: سماء بلا سحاب هي عميقة عمق الكون الفسيح، حتى أنني من شوقي رأيت الرب يتجسد، ويظهر كما أعرفه فوق أديم السماء. »

المقدم دو نوسيس القائد تحمل أضعاف ما تحمله الجنود، وجعل نفسه القدوة والأسوة التي يقتدي ويتأسى بها الجميع، عرفنا منه ذلك لأننا تعايشنا معه في هذا المعسكر وغيره وعرفنا حقيقة نفسه العالية الشريفة.

السيد برنارد هار كور يقول: « المقدم قسى على نفسه، قبل أن يقسى على الآخرين نعم نحن من يكتب تاريخ الوحدة الأولى للمطاردة الإفريقية[1] ويؤرخ ملاحمها، نحن لما نقصد الأمل نبحث عنه، ونسعى إليه، نحن لا نتعب، ولا نعرف التوقف، نحن أول من يمتطي الفرس، وآخر من يترجل، لما نحط الرحال، نشد الخيام، ونوثق الخيول. نحن قوة

---

[1] اول مارس 1832 ميلادية، وبموجب مرسوم ملكي تاريخه 17 نوفمبر 1831 ميلادية مع فوج واحد قوة المطاردة الجزائرية و 300 رجل من مختلف أفواج الفرسان و 40 متطوعا و 20 رجلا من فوج المطاردة الثاني مع فرسان عرب، يرتدون اللباس الرسمي ومجهزون من قبل الدولة، من هؤلاء الفرسان العرب 120 من بقايا الدولة العثمانية هؤلاء خدموا بأوامر الجنرال يوسف، وهم يشكلون نواة السرب، شاركوا في معارك حاسمة من أهمها معركة الزعاطشة، واقتحام مدينة الأغواط. ويكيبيديا الفرنسية.

المطاردة الافريقية، الطعام القليل يكفينا، لا نحتاج إلا لما يسد رمقنا، نحن لا نفضل أنفسنا عن الآخرين هم مثلنا، ونحن مثلهم، طعامنا طعامهم، قليل من الأرز يكفينا الحركة والتنقل طول اليوم لا نثبت في مكان واحد، نحن ننتقل دون أن نثقل أنفسنا بالأحمال حظنا من الطعام كل يوم بسكويت الحرب وحصة من طعام الأرز، الوجبة بكل المقاييس غير كافية في يوم واحد. جندي من كتيبة الزواف، وهو في حالة إحباط ودون دراية منه قال: « المقدم يترك جنوده يتضورون جوعا، وهو يتمتع بأطايب الطعام. » هذا الكلام نُقل للمقدم وعلم مقالة الزواف المحبط، وطلب إحضاره ليشاركه طعامه الزواف شعر بالشرف الذي حضي به من قبل المقدم، ما حل المساء حتى حمل الزواف نفسه ليلقى قائده جالسا على بطانية فأجلسه قربه، وانتظرا قدوم الطعام، وجاءت المفاجأة قطعتان من البسكويت وحصة أرز، وقليل من الماء. حصة الأرز يمدحها الجنود ويسمونها الأرز بمرق الماء، ما يضاف للمقدم قليل من الماء موضوع في قربة، صنعت من جلد الماعز، هي يوميات المقدم دو نوسيس، لمن لا يعرفها، وهذا أقسى ما يمكن أن يجده الضيف عنده، لما سمعت الكتائب والمفارز خبر الزواف المحبط، ووليمته عند قائده ضحك الجميع، وسرهم الخبر. »

يوم السابع عشر من شهر أفريل، يصل للمعسكر جاسوس، يخبر المقدم دو نوسيس أخبر أن سي لعلا حط معسكره قرب مرتفع بوعروة على ضفاف الواد الغربي. الجاسوس تطوع للقيام بعمل عظيم، وهو أن يقود التشكيلات المقاتلة نحو الهدف، خلال ساعات محدودة، الساعة الرابعة مساء وحدة المشاة في تحرك، وبدأ تحركها صباحا على الساعة الرابعة صباحا، المقدم ترك الماء مع حراسة مع غروب الشمس، ومع وجود الجاسوس الذي أضحى دليلا. وجدنا أنفسنا تتوق للوصول للعدو، ومباغتته على حين غرة منه الساعة الثامنة مساء وصلنا الواد الغربي، وكان علينا نزول المنحدرات الصخرية استطاع الفرسان النزول إلى أرضية الواد في هدوء، يفعلون فعل الذئاب في الحركة

والإياب، نبات التماريس غطى حركة الفرسان، المقدم ولذكائه أمر بالهدوء وعدم الكلام واحداث الجلبة، حتى لا يكتشفنا العدو، ما ساعدنا انتشار الظلام. لاحظ المقدم أن حلقة الفوج إنقسمت إلى حلقتين، وهذا الانقسام ستكون أضراره واضحة، إذا ما بقي هكذا على حاله، رغم وجود الجاسوس الدليل، شعر المقدم أنه في أزمة حقيقة، وأن بقاءها سيحدث كارثة لا محالة، ولأنه عارف بجنده، استدعى من الكتائب المقاتلة شابا عربيا ذكيا. أمره أن يعيد الانسجام للفوج مع العلم أن الكتيبة، التي انفصلت هي كتيبة الملازم برنارد هار كور، وهو سيحكي لنا وقائعها يقول: « لما كنا نساير حركة الفوج وصلنا إلى بركة ماء، أرشدنا إليها الجاسوس الدليل، لما وصلنا كانت الكارثة هي جافة وكان الأمل أن نأخذ منها حاجتنا من الماء نحن والحيوانات، هذا الأمل تبخر وتلاشى لما ترجل الفرسان، غاصت أرجلهم في الطين من الجزع، وضعوا أياديهم على عيونهم، كان الأمل أن نجد لنا مصدرا آخر يغذي العطشى بالماء. الساعة الآن الحادية عشر الخيل لم تشرب منذ البارحة، وقطعت عشرون ساعة من المستحيل أن تواصل طريقها، ونحن الآن قاب قوسين أو أدنى من لقاء العدو، لو وقعت المعركة الآن، العدو سيجدنا صيدا سهلا، وسيقنصنا كما تقنص الطرائد. يعني ذلك أننا مقبلون على الفناء حتما، نحن نشاهد المنحدرات الصخرية لبوعروة، وهي مجاورة للوادي السؤال: كم هي المسافة الفاصلة بيننا ؟ المسافة هي صحاري قاحلة مقفرة، كم هي المسافة بيننا وبين آبار المنقوب مع العلم أنها تبعد حوالي خمسين كيلومتر ناحية الشمال. »

المقدم دو نوسيس سمع مقالة الجنود، وشعر بثقل المسؤولية، وهو يحاور الجنود وهو وافقهم، أن حياة الآلاف هي في خطر محدق، المقدم حدق ونظر للجميع، وكان عليه أن يتخذ القرار الصحيح: حدث المقدم جنده فقال: نعم الحر شديد والمنحدرات الصخرية الصعبة الولوج، هذا أمر نتوجس منه ونخاف عواقبه، ولأنه حكيم عالم بالمعارك، نادى من يثق فيهم، وهم ذخره في النائبات، طلب حضور فرسان عرب يعرفهم حق المعرفة

أبطال لا يوقفهم أحد أشداء صبورين، طلبهم ركوب الخيل والركض السريع، والوصول إلى بوعروة في مأمورية حددها لهم المقدم، لم يستطع أن يكتم حزنه نظر لهؤلاء العرب الأشاوس الأبطال، وقال لهم وكله ثقة: اجعلوا ثقتكم في الرب يد اليسوع تمتد لكم.

هذه اللحظات القاسية، دونتها زوجة المقدم، وكتبتها لتبقى شاهدة على فعل الرجال تقول السيدة: « زوجي كلمني عن هذه الساعات العصيبة التي عايشها، هو وجنده وهم في حالة انتظار وترقب لما هو آتي، هذه اللحظات العصيبة زوجي تكتنفه قداسة وروحانية القديس يوسف، دخل في حالة خشوع وابتهال، هو طقس ديني يظلله فيض المسيح الدافق، وهو منغمس في الرؤى اللاهوتية الفياضة. حضر العرب الشجعان الأشاوس الأبطال ليفرحوا قائدهم، وينقلون له البشارة: سيدي المقدم عثرنا على آبار بوعروة هي قريبة من هنا، المسافة بيننا لا تزيد عن عشرة كلومترات فقط، وهي عامرة بالمياه مع هذه الأخبار السارة، امتطى الجميع خيولهم، بعد ثلاث ساعات وصلنا منحدرا صخريا وجدنا الماء، ورغم أنه كان ممزوجا بصفرة هي صفرة التراب استطعنا تخليصه وسد حاجتنا نحن وحيواناتنا. »

ما أصبح الصبح حتى أضاءت الشمس مكانا، ليس المكان الذي نزلنا به الليلة البارحة هي صحراء سيناء والماء المتدفق هي عيون موسى التي انفجرت، وحال المقدم هو حال النبي موسى، لما فجر لقومه عيون الماء، السيد برنارد هار كور يحكي لنا الحكاية يقول:

« بدأ تحميل الحوايا التي تحملها البغال، رأيتهم وهم يتسلقون المنحدرات الصخرية ورأيت العاملين يضربون البغال ليبعدوها، لتفسح المجال أمام الرجال ليحملوا حاجتهم من الماء. »

سمع المقدم دو نوسيس مقاتل من زواف يكلم صديق له قائلا: « أتى اليوم الذي يكون فيه حمل ماء جمل أغلى من حمل جمل محمل بالخمر»

برنارد هار كور يرسم لنا لوحة فنية، لما دار بين الزواف والمقدم: « لما كنت في الرمق الأخير كنت أنظر للخيل، وقد شدت لأغصان أشجار التماريس وهي تتمايل من العطش وتبحث لها في البركة الجافة قطرة ماء تحييها، هذه الخيول وبقدرة قادر، جال الماء حواليها والفرسان ينقعون قطع البسكويت في الأواني، ما زاد الفرح فرحة حضور الإبل منتشيه، وهي تهرول كي تملأ الحوايا والبراميل والقرب بالماء. أخذنا الماء بل وصلنا ما تحت الطين، نبحث ما بعده لنمسك قطع الطين الرخوة، ونعصر منها الماء الصافي الزلال من شهد الوقيعة، يقول هي لوحة فنية معطرة بالبخار الذي ارتفع فوق رؤوسنا، ونحن نحمل الماء المنعش، ونأخذ طريقنا متسلقين المنحدرات الصخرية. »

الساعة الخامسة تحرك الفوج الخفيف، الخيول أخذت حاجتها من الماء والراحة، فهي على غير عادتها بالأمس تهرول مسرعة، المقدم كان يسمع تقرير الجاسوس، الذي هو الآن دليلنا ومن يعرفنا بالمسالك، نطق الجاسوس العربي قائلا: سيدي هذا هو المكان الذي يتواجد فيه سي لعلا، بدأت الأحلام الجميلة تراودنا، سنغافله ونهاجمه، ونفتك به وأن أول عمل نقوم به هو مهاجمة المعسكر، هي الغزوة والاغارة كما يقول العرب سنلقي القبض على هذا المتمرد، بعدها سنعود نحن لمعسكرنا، سنجد الراحة والأمن والغنائم الوفيرة، الأهم من كل ذلك أن فرنسا ستنتقم من أعدائها، هو مشروعنا هذا اليوم وقبل تحقيقه أستطيع القول، أنه حلم هو يراودنا الآن.

حركة الفوج الحذرة الصامتة، استمرت ثلاث ساعات، تسلق الجنود مرتفعات الواد الغربي، بعد التسلق شاهدوا المرج، هو المكان الذي يفترض أن يكون معسكرا لسي لعلا وجنده، المتسلقون انتظروا سماع طلق الرصاص، إلا أن هذا لم يحدث، تقدم

المتسلقون ووضعوا خيولهم وضعية قتال، ليرصدوا أية حركة قد تقع في المرج، تقدموا أكثر، العجيب لا أثر لمعسكر سي لعلا، ما خيم إلا الصمت الرهيب للصحراء، هي خيبة الأمل لا محالة، هو الحزن الدفين الذي سكن الأنفس، وأخذ مكان الفرح والترقب وانتظار الانتصار.

المقدم دو نوسيس علم اليقين، أن الفرصة المرجوة فاتت وتبخرت، خيم الحزن العميق على الجميع، تبدد الفرح وضاعت مغامرة الانتصار المرجوة وعاودنا الحزن، الأشد حزنا لم نجده ساعات فقدان الماء، هذا الحدث جمع كل الأحزان والمحن، التي نجدها نغامر في أرض صحراء، لا ماء فيها تواجهنا الأمراض المستعصية العصية عن العلاج، نشعر بالعزلة، نحن في بلد لا نعرفه، عدونا وحش يختبئ لا يظهر، يترصد اللحظة السانحة لينهينا.

ما زاد الطين بلة ارتفاع درجة الحرارة، تجاوزت 32 درجة ما بدأ اليوم كنا نمشي ولا نتوقف، لا أحد يعرف الوجهة، كنا نسأل أنفسنا: أي مكان نريد الوصول إليه ؟ الجهل بما يقع زرع في قلوبنا الشك، وبدأت الثقة في التلاشي، المقدم دو نوسيس يحمل في نفسه ألف سؤال وسؤال، وهو عاجز عن الاجابة، هو صامت لا ينطق، ساعة بعد ساعة يعلن التوقف لترتاح الخيول لمدة خمس دقائق، ويلتحق من تأخر عن السير.

« ها نحن نتساقط أرضا، الجندي يستظل بظل فرسه، ظل قصير بالكاد يمنع لفيح الشمس في هذه الهاجرة المستلقي، يبحث عن الظل المتنقل المستلقي أرضا، ينقل رأسه ليضعه تحت بطن فرسه، الظل المتبقي لا يكفي إلا الرأس، هي فرصة للمتعب، أن يغط في نوم عميق، لأن القاعدة اليومية، تقول بعد التوقف الحركة، وبعد الحركة التوقف، وهكذا دواليك.»

مشينا ست وثلاثين ساعة زمن متواصل دون انقطاع، الانسان والحيوان هم على شفا حفرة من نار، ما يؤكد ذلك أن آبار بوعروة ليست بالقريبة، الآن البارحة بالكاد سد الماء حاجتنا، لما كنا نتناول وجبة العشاء، تم تقليص حصص الماء أربع لترات فقط للحصان الواحد، الرجل حصته لتر واحد من الماء موحل، إذا أراد شربه يجب أن يغلق مداخل التنفس، حتى يمنع وصول الرائحة الكريهة، هذه الحصة تكفيه من لحظة العشاء إلى وقتنا هذا.

المقدم شعر بتمزق داخلي، وهو يقود هذه البعثة، رغم حكمته، وحسن إدارته، الشيء الذي لم يحسب حسابه، هو ذكاء هذا العربي المناور وكيف استطاع، أن يخلص نفسه وعائلته وجنده وقطعانه من مصير، كنا نعتقد أنه محتوم. بعد انقشاع هذه اللحظة المأساوية، بدأت تباشير الفرج، الجواسيس العرب يرسلون الرسائل، ويبلغون أن سي لعلا وجنده وقطعانه، هو غير بعيد من هنا، نعم هي لذة الصيد والفريسة، علمنا الآن خبرها، القائد الملتزم بالقوانين السامية، يتجاوز الحزن والاحباط، ولا ينظر في الوقائع بل ينظر في المآل، ولأن المقدم استحضر فرنسا، وتجلى في يقينه الرب، وفي وجدانه الضمير، أخذ قراره العصي الصعب، وهو ضرورة التوقف، التفت المقدم لجنده، وقال لهم: « اماتة خواطر النفس، تهدي لفعل الواجب».

الساعة الرابع يحكي الملازم برنارد هار كور: « الساعة الرابعة رغم الأسى والحزن، الذي سكن النفوس وتبدد الحلم، الذي رجوناه، السيد المقدم أعلن التوقف.»

هذه الرحلة يصدق عليها القول هي رحلة العذاب والعطش، والموت الذي كان يخفق بأجنحته، ذهابا وإيابا.

قبل الرجوع أراد المقدم، أن يرسل رسالة لهذا العربي سي لعلا، ليفك رموزها ويقرأها القراءة الصحيحة، طلب حضور خيار القومية الفوارس الأشاوس يمتطون الفرس الأصيلة، أن يلحقوا هذا المتمرد، ليعلم أن يد فرنسا ستصله، ما بدأ الفوارس الأشاوس مهمتهم، حتى قفل المقدم راجعا هو وفوجه ناحية آبار منقوب، ليأخذ حاجته من الماء وينقذ الفوج المتحرك من مصير محتوم.

الملازم برنارد هار كور يقول: « اليوم الذي رجعنا فيه الخيل فقدت القدرة على الحركة هي اليوم أسوء من الأمس، لا تتحرك إلا تحت تأثير المهاز بعضها سقط وما استطاع الحركة، الخيل المطيعة بالكاد تلبي طلب سيدها، وهو يحاول أن يدفعها للتقدم ناحية الأمام، الأمل المتبقي هو الوصول لبوعروة عسى ولعل نملأ الحوايا والقرب. وصلنا منحدرات بوعروة، وتوقفنا من المساء حتى طلع الفجر، قوة المطاردة بدأت في تأمين المكان، إلا أن منابع الماء هي جافة موحلة، وبدأت تظهر عليها طبقات الطين الجافة، ما وجدناه الطين المتعفن كريه الرائحة، رأيت من يتجادل حول صلاحية هذا الماء، ومنهم من شرع في وضع الطين المبلل كريه الرائحة في مناديل، ليخرج منه الماء القليل ويشربونه بشراهة، شرب الظمآن المشرف على الهلاك. »

ما ظهرت طلائع يوم جديد، خرج القومية لمطاردة العدو وسلبه الغنائم، احتاجوا ساعتين من الزمن حتى وصلوا عدوهم، صباح التاسع عشر وصلوه وجدوا سي لعلا في معسكره قتلوا من رجاله عشرة وغنموا أربعمائة من الجمال ومثلها من الغنم أحضروا الغنائم للمعسكر فرحين مستبشرين، استغرق الأمر ساعتين فقط، احتاجوا قليل من الماء غادروا عدوهم وهو في حالة ذهول، لا يصدق ما حصل وما وقع.

الغزوة والغنائم هي النجاح الأول فقط، لأن القبائل التي غزاها القومية، فرت ناحية حاسي الشيخ، وجدوا القسم الثاني من القومية في انتظارهم وطاردوهم حتى وصلوا

الرأس المحروق، سلبهم القومية مائتان وخمسة وسبعون جملا، وأسروا من الرجال إحدى عشرة مع ذلك، الفوج القتالي المتحرك ما زالت معاناته مع التعب والعطش، وارتفاع درجة الحر.

الملازم برنارد هار كور يقول: « لا أعتقد أننا نصل بخيولنا منطقة المنقوب، بقي الرهان الوحيد، هو تدخل العناية الالهية».

الأوقات العصيبة نفعل كما يفعل المقدم قائدنا، وهو التعلق بالصلاة ومناجاة الرب ليخفف عنا هذا الحمل الثقيل.

الملازم برنارد هار كور يقول: « الساعة الثالثة الحكاية تعيد نفسها، الأرض قاحلة الجفون كأن الرمد غزاها هي ثقيلة بالكاد تفتح وتغلق، الصمت الرهيب المطبق، كل واحد بصره مشدود ناحية رقبة فرسه، الخيل تمشي متثاقلة، رؤوسها تتمايل ناحية الأرض، بين الحين تتعثر وتكاد أن تسقط أرضا من الجهد. ما استطاع الفرسان أن يرفعوا أياديهم، هي مترهلة واقعة على سرج الخيل، مسكينة هي الحيوانات المرهقة المتعبة، ودون توقع بدأت الخيول في الهرولة بل وفي الركض، وأخذت طريقها ناحية غابة أشجار التماريس واقتحمتها، لتقف على بركة ماء تحفها أشجار الدفلة المزهرة، لم أشهد في حياتي فرحة كهذه أين نحن ؟ نحن في جنة عدن مياهها متدفقة، رؤية الماء شد العزيمة والثقة فينا، وجعلنا قادرين أن نفعل أي شيء، هو الأمل يتقدم وإحباط البارحة يتراجع، ويتلاشى في نفوسنا. »

يواصل الملازم برنارد هار كور حكايته فرحا مستبشرا: « تأسفت عما خالجني البارحة من وساوس الاخفاق، إن ليلة السابع عشر غيرت مجرى حياتنا نستطيع الآن أن نغير

معادلة المعركة، ونحسمها لصالحنا، إن المسافة بيننا وبين عدونا هي الآن قصيرة، سنهزمه شر هزيمة.

ما يفصلنا عن لقاء هذا المتمرد هي عشرون كيلومتر هي المسافة، التي توصلنا منطقة المنقوب، وكما فكرت وقع، سارعنا الخطة وصلنا المنقوب الساعة السابعة، وجدنا قوة المشاة متحصنة في غابة التماريس، تواجد قوة المشاة هي خطة وضعها المقدم، لرصد ومتابعة حركة سي لعلا، راهن المقدم على الفعل العظيم الذي يقوم به القومية في مطاردة سي لعلا، رجعوا يوم الثاني والعشرين فائزين منتصرين، محملين بالغنائم وكلهم استعداد على معاودة الاغارة والغزوة من جديد. »

الساعة الآن هي ساعة الحسم، لقد آن للمقدم أن يبدأ الهجوم المضاد، بقينا ثلاثة أيام في جنتنا هذه، تزودنا بالزاد الكافي، وقام الجواسيس بعملهم نقلوا لنا المعلومات وحركة المتمردين صغيرها وكبيرها، طلب المقدم من مفرزة تسريح الخيول وأركب كتيبة زواف كاملة الجمال، وأمر كتيبة المطاردة بالتحرك ليلا لمنع سي لعلا من ترك مكانه قرب الآبار.

ليلتنا هذه مقمرة، نور القمر يضيء الدروب والمسالك، توقفنا بأمر الجواسيس، الأدلاء قالوا أن القمر أفسد رؤيتهم، وهم غير قادرين على تحديد معالم الأرض، ولأن لهم خبرة بمعرفة الأرض، طلبوا انتظار طلوع الفجر، ما لاحت بوادر الضياء، بدأنا الحركة. مشينا اليوم أكمله، ما انتهى اليوم حتى وصلنا رأس المحروق، أين يضع سي لعلا معسكره، وكما توقعنا قبل أن نصل حمل معسكره وغادر تاركا مكانه، علمنا أنه تركه صباحا لما وصلنا الأطلال عرفنا مكان خيم القادة والسادة، عرفنا ذلك بآثار المواقد، شاهدنا جملين أو ثلاثة موتى، هذا كل ما تركه هؤلاء البدو الرحل، علق أحد ضباط الفوج الأول للمطاردة قائلا: « مطاردة العرب في الصحراء واللحاق بهم أمر لن يتحقق أبدا، هم يتحركون في الصحاري بخفة، ولا يمنعهم مانع، يصبرون على العطش لا يتزودون بالماء

فترات هي بين خمسة وستة أيام، نحن هذه المدة تقتل رجالنا وخيولنا، العرب أذكياء ولأن لا سلاح عندهم يردنا، حربهم علينا حرب التنقل في الصحاري والعطش، مثلنا مثل الطائر الذي يغرق في بركة ماء، والصياد يرقبه عند الشاطئ. »

لما كنا نتكلم ونتجادل القومية لم يقصروا، الجواسيس أبلغوا عن حركة قافلة تابعة لعدونا سي لعلا ومن أجل استنزافه، المقدم طلب من القومية اللحاق بالقافلة، وأن يحضروا لغزو القافلة المحملة بالمؤن. يوم الرابع والعشرين تحرك القومية، ويسندهم عن بعد الفوج القتالي وصل القومية واد الناموس، ولم يأتي في خيال سي لعلا، أن هؤلاء الأبطال سيصلوه، باغتوه في خيمته وسلبوه سرج فرسه، وأمواله وكنوزه ومجوهرات نسائه وأغلى ما يملك[1]من الغنائم قطعان غنم، وأربعمائة وخمسون من الجمال، تحصل عليها القومية غنائم، إلا أن معظمها هلك في الصحراء عطشا، ووصل بعضها المعسكر، من شاهد طريق العودة قال: بداية من خيمة سي لعلا المنهوبة حتى المعسكر، جثث الحيوانات النافقة كانت من معالم الطريق، العدد الذي وصل سالما مائتان وخمسون جملا، وألف فقط من الغنم، ونحن نشاهد هذه الأعمال البطولية المفعمة بالعزة، يكتب الملازم برنارد هار كور: « مطاردة القبائل العربية وسلبها قوتها وقطعانها وأسر رجالها وجعلهم يتيهون في الصحراء جلب لنا الراحة في الصحراء، وأضحى الجنوب الجزائري غنيمة لنا، ما تحققت هذه الانتصارات حتى عشنا أياما سعيدة[2].»

---

[1] واد الناموس أعرفه لما كنت في الخدمة العسكرية وأثناء تحرك اللواء من تندوف ناحية الشمال توقفنا عنده وعرفنا معنى الصحراء مكان بالكاد تصله المعدات المتطورة القومية هذه قوة ضاربة تحسم المعارك الكبرى أوصلوا فرنسا جبال الهقار أقصى الصحراء.

[2] السيد برنارد هار كور ملازم في الفوج الأول مطاردة الافريقية: بعثة الفوج القتالي في الصحراء مجلة العالمان أول مارس 1869 ميلادية يمكن مراجعة كذلك:

اليوم الثاني من شهر ماي الفوج يدخل مدينة الأغواط، للأعمال الجليلة التي قام بها المقدم، تم تشريفه بوسام جوقة الشرف، تقلده رسميا يوم العاشر جوان 1866 ميلادية يوم 27 جويلية يراسل المقدم صديق له ويكتب له كتابة، حملها روح الإيمان والأبدية: « لا أخفيك التعب الذي عرفناه في الصحراء زكى أجسادنا، وملأ أرواحنا، لما ينتهي الفعل بالانتصار، لا قيمة للجهد والتعب، ما يبقى هو وسام الصليب الذي يزين صدري بكل إيمان وتواضع، أضعه تحت أقدام السيدة الافريقية في العاصمة الجزائر[1] لقد وضعت وسام الفارس في كنيسة سيدة الانتصارات في باريس.»

الرب وحده من يجازي المقدم عن خدماه الجليلة، وعن صدقه وتضحياته النبيلة.

الغنائم التي سلبها القومية من سي لعلا، ما كانت إلا تتويجا لأعمالنا التي قام بها فوجنا القتالي، لقد رأينا ذلك الشاب من قوة المطاردة، وهو يستحضر مريم العذراء، هذه الملاحم الإلهية نراها نحن فقط، قرأنا رسالة المقدم التي أرسلها إلى السيد لامي دو لا شبيل M. Lamy de la Chapelle : « أيام البعثة العسكرية الأخيرة في الصحراء كان عزائي الكبير ولمدة شهرين متتابعين، أن روحي استيقظت من سباتها العميق وعرفت ذلك التدفق المتعاظم من المشاعر الايمانية الخفاقة، رأيت فعل الرب في نفسي. زادني بهجة وهو يكبر في نفسي ويتنامى، لا أخفيك سرا عرفته، سأطلعك عليه، هو الشاب الملازم من قوة الزواف، تخرج السنة الماضية من المدرسة العسكرية السهم، لما تراه تقول هو لم يتجاوز خمس عشرة سنة أظهر التقوى، وأثناء الاستراحة كان يتردد

V. aussi le colonel Trumelet : Histoire de l'insurrection des Oulad-Sidi-Cheikh, de i864 à i880. II« partie, XV, p. 331 et suiv.

[1] السيدة الافريقية Notre Dame d'Afrique هي كاتدرائية كاثوليكية تقع في العاصمة الجزائرية، تأسست عام 1872 ميلادية.

على المعبد، لما تخرج من المدرسة حمل معه روح التقوى والسلام، إلا أن أصدقاء الشؤم حوله أفسدوه، وخربوا عقيدته الجديدة ومع ذلك، بقي هذا الشاب يحافظ على نقائه العذري، وأن على يقين أنه سيتحول لديانة الرب اليسوع.

الرب حضر هذه النفس الطاهرة لترتقي وتشرف ديننا العظيم، هذا الشاب لا قدرة له على تحمل هذا الثقل من التجارب والمعارف التي تلقاها، المعارف اللاهوتية لا قدرة له على تحملها، هو صغير وتجربته في الحياة لا تقاس بما تحمله من مفاهيم جديدة، الدين الذي نشأ عليه عقد أفكاره، وملأ نفسه بالكراهية، المسكين من الصعب أن يهتدي إلى الإيمان الذي نرجو، أن يجده في النهاية.

جاءني اليقين أن هذا الشاب سيصل إلى اليقين الشافي، لم أخفيه مشاعري وشاطرني حب اليسوع الرب، قاوم نفسه ثلاث شهور كاملة، ثم رست سفينته عند ميناء الخلاص، الرب يباركه ! لما انتهت البعثة العسكرية، تركني ليذهب للعاصمة الجزائرية وأمرته أن يذهب، ويلقى رئيس اليسوعيين في العاصمة، ليجد هذا الخروف الضائع ضالته عند هذا الأب العطوف الحنون.

الشاب حكى لي حكايته مع الأب، وأراد أن يفتح لي أبواب سعادته الغامرة، وأرسل لي رسالة من عشرين ورقة، قرأتها وأعدت قراءتها مع شعور بالفرح الذي تشاركنا فيه هي الأرواح يا صديقي ! ما أعظم الأشياء التي ننجزها ! ان القرن الذي نعيشه، سيمنح لهم مكانا وان كان صغيرا ! ».

هذه الكلمات الخالدة التي كتبها المقدم دو نوسيس تذكر الخدمات الجليلة التي سعى لها في نشر تعاليم المسيح، وما يشهد على ذلك شهادة الكاهن راعي مدينة الأغواط المبشر لازاري lazariste يكتب قائلا: « قبل أن أغادر مدينة الأغواط، لفت انتباهي أثناء

القداس شاب ملازم، لما تراه ترى الحيرة تغمر محياه، قلت في نفسي: هذه روح تتألم يجب أن نبادر لإسعافها واحيائها، هنا يتدخل المقدم دو نوسيس، ليلقى الشاب الملازم ويطلبه في بيته ويجالسه ويفتح له قلبه، وبعد حوارات عميقة عرفتها بعد زمن، ومع نهاية شهر ماي 1866 ميلادية، الشاب الملازم غادر المدينة، وذهب إلى العاصمة ولم ينتظر وقام بزيارة للآباء اليسوعيين، لأن المقدم طلب منه ذلك، وكانوا سعداء وهم يستقبلون هذا الشاب القادم من مدينة الاغواط ! سألوه لماذا جئت هنا ؟ أجاب الشاب: لأقوم بالاعتراف المسيحي، أقوم بالاعتراف لأنني وعدت المقدم، ويجب أن أصدق في الوعد هكذا عاد هذا الولد الضائع لحضيرة الرب، ليؤدي واجباته. »

خدمة الرب من الأعمال الجليلة التي قام بها المقدم، والتي عبر عنها في رسالته المؤرخة ليوم 27 جويلية: « عزيزي هنري نعم أنت تبحر في المياه الهادئة الساكنة، أما أنا تكتنفني العواصف الهوجاء من يستطع إيقافها، نحن نخضع لإرادة الرب لتكن الحياة كل الحياة هي حياة من أجل المسيح.»

السنة 1869 ميلادية الجنوب في حالة ثورة وتمرد، أولاد سيدي الشيخ يستعدون للثأر بعد مقتل الشاب سي أحمد بن حمزة، خلفه أخوه سي قدور، هو خامس أبناء سي حمزة المعروف خبره، والدة سي قدور أمة سوداء، هو الآن زعيم القبيلة وسيدها مع بقاء سي لعلا متوليا المهام العسكرية، أصبح هذا القائد العسكري، هو صوت المؤمنين في الصحراء الجزائرية.

قبل هذا التاريخ، ظهرت مؤشرات على خطورة الوضع، سُمع صوت الرصاص قرب المحيط العسكري لمدينة الأغواط، المقدم دو نوسيس كان غائبا، هو في مهمة عمل بالعاصمة الجزائرية. ظن في البداية أن الخبر ما هو إلا إشاعة، وقفل راجعا، لما وصل مدينة الجلفة، وصله تلغراف، يؤكد صحة الخبر، وأعلمه ما هو أخطر من ذلك، قبائل الأرباع بقضها وقضيضها ارتحلت ناحية قصور ميزاب، وهي تعلن الثورة والتمرد، وهم الآن يحتمون بغابات النخل، لتكون حصونا وقلاعا لهم، ينتظرون قدوم فرنسا وحلفاؤها المقدم استغل وجوده في الجلفة، ليطلب من حلفائه من أولاد نايل التحرك، والتجمع وجمع ما يحتاجونه من المؤن، تسد حاجتهم لمدة شهرا كاملا، وأن يتجمعوا في تعضميت وأعلمهم، أن طاقم الجمالة هو الآن في أحسن أحواله، وأن المقدم قد طلب تجميع الجمال لتشكل طاقما واحدا. بعدما أنهى المقدم هذه العمليات العاجلة والطارئة، قرر العودة لمدينة الأغواط، يوم السابع والعشرين من شهر جانفي أكمل التحضيرات، الفوج القتالي وهو الآن على أهبة الاستعداد للتحرك، وهو في وضعية قتال، وما بقي إلا أن ينتظر لحظة التحرك.

الظاهر أن الأحداث تتسارع، بعد يوم واحد قضاه وفي اليوم التالي، يوم الثامن والعشرين، المقدم يتلقى رسالة من قبل نائب الحاكم العام للمقاطعة، يبلغه بواسطة التلغراف، أنه وقع حادث في الغرب الجزائري. حيث قام فرسان أعداء بالهجوم على دورية تابعة لقبائل لحرار، قرب ضفة الشط الشرقي، وأنهم قتلوا عشرة من رجالنا في نفس اليوم، تلغراف الجلفة أخبر أن سي لعلا قام بغزوة مع مجاميع من المتمردين، قادته ناحية جبل العمور، وبالخصوص ناحية قبيلة حليفة لنا، وأن الأغا الحاج قدور جمع فرسانه من القومية، واجهت طلائع الاستكشاف، التي أرسلها سي لعلا، واشتبكت معها، ونتيجة الاشتباك وقوع قتلى من الطرفين. أمام هذه الأخطار، الأغا الدين أغا جبل العمور، ترك هو ومجاميع من القبائل العاملة معنا مناطقهم، وهربوا، ووصلوا قصر الشارف، والسبب أن المتمردين هاجموا وهددوا القبائل الحليفة لنا. الأحداث تتسارع النقيب سان مارتن Saint –Martin يعلم القيادة العسكرية، أن هناك حالة ذعر كبيرة سادت السكان القاطنين غرب ملحقة مدينة الجلفة، لخوفهم هم يتدافعون، هم وقطعانهم ناحية المراكز الأمنية، طلبا للحماية.

يوم التاسع والعشرين من شهر جانفي، وقع ما لم يكن متوقعا، انقطع التلغراف الواصل بين جيري فيل، ومدينة فرندة، أبلغ الجواسيس عن تقدم مجموعة من الفرسان الأعداء تعدادها ستمائة فارس، ودخولها سيدي علي، وحركتها تتجه ناحية الشرق. يوم الثلاثين من الشهر ظهر العدو من جديد، هذه المرة غرب طاقين هي الحدود الجديدة، التي فتح فيها جبهة للقتال، العدو أظهر نفسه في مناطق متفرقة، وأين يظهر هو القوة الضاربة القاهرة والمستبدة، لا يرحمنا ولا يرحم من حالفنا من القبائل المستسلمة، اكتشفنا أننا أمام عدو شرس، لا يرحم متعطش للدماء.

المقدم دو نوسيس بعد دراسة الوضع المستجد، ظهر له أن العدو بتشكل من ثلاث مجموعات، تعمل في نظام وتوافق يجمعها ثلاثة قادة. المجموعة الأولى يقودها سي لعلا المجموعة الثانية يقودها ابن أخيه سي قدور، الثالثة يقودها سي الحاج العربي، هذا المتمرد جاءنا من منفاه في المغرب، وتسلل إلى مناطقنا الواقعة بين الشط الغربي ومدينة جيري فيل، من مكانه هذا غزا قبائل كثيرة في جبل العمور، ولم يرتدع بما حاز وغنم بل واصل تقدمه، حتى وصل هضاب الأطلس.

لما علم المقدم خطة العدو وتقسيماته العسكرية، قرر التحرك، وجه الفوج القتالي ناحية الغرب، ووصل لحناية، ليجعلها مخزنا للمؤن والذخائر، وما تحتاجه الحرب القادمة، ومن أهدافه السريعة، التي أراد تحقيقها هو أن يبسط نفوذه على السهل، الممتد من لحناية وصولا إلى طويلة ـ الماخما. هذا يساعد في مراقبة حركة القطعان وتنقلاتها، التي غنمها المتمردون، وحتى تتحقق هذه الغاية، أمر المقدم دو نوسيس، المقدم كولوني Colonieu أن يمنع المتمردين من الانسحاب ناحية وهران ومقاطعاتها، بالطريقة هذه يمكن محاصرة المتمردين، ومنعهم من الوصول لوهران، وعدم السماح لهم بالفرار ناحية المغرب، إلا أن الأحداث القادمة ستغير مجرى المشروع، ويضحى غير قابل للتطبيق في الواقع.

اليوم الثامن والعشرون أرسل المقدم قايد المخازنية لمدينة الأغواط، لخضر بن مُحَمَّد وأمره أن يجمع كل فرسان الأرباع العاملين، تحت القيادة العسكرية الفرنسية، وأمره بأن يرسل الجواسيس العرب أمامه، لجمع المعلومات، هذا لخضر هو الشهم المخلص يكتب عنه المقدم دو نسيس: « التقيت الضابط العربي لخضر له وجود وقيمة، يحمل صفات التحضر لرجل الصحراء، هو شاب في الثلاثينيات، يجمع صفات النبل مع الشجاعة والاقدام، يجمع في نفسه حبه الشديد لنا، وتعلقه بالقوانين مع المحافظة على سمات البدوي، من يعرفه يعرف كيف هو يقبل القيم الأوروبية، هو متحضر بالفطرة، يسمو

بنفسه ليكون مثلا للآخرين.» المقدم دونو سيس أحب روح هذا العربي، وأرادها أن تخدم اليسوع، لخضر هو من أخلص القومية، الذين عرفتهم هنا في الدائرة العسكرية لمدينة الأغواط.

من الأوامر التي أصدرها المقدم لمراكز المراقبة والتوقف، هو أن يحضر الجميع لمواقعهم وأن يستعدوا لمواجهة العدو القادم، من الأوامر العاجلة كذلك، إحضار الجمال على عجل والشروع في تشكيل طاقم الجمالة. تم جمع الاحتياط من المؤن، وما يتبع الفوج القتالي من هذا اليوم حتى يوم الخامس عشر من شهر فيفري، الكل سمع الأوامر و تم الأخذ بها خرج المقدم مع فوجه القتالي يوم السبت، الموافق لثلاثين من شهر فيفري، المقدم احتاج إلى يومين وليلتين منذ قدومه من العاصمة الجزائر، لكي ينهي تحضيراته.

الفوج القتالي هذه المرة يتكون من: واحد وأربعون ضابطا، تسعمائة رجل من كل التشكيلات العسكرية: قوة المطاردة الافريقية، قوة الرماة، قوة السبايسية، المدفعية وتجهيزاتها، قوة الهندسة العسكرية، قوة مشاة، مائتان واثنين من الخيل، ثمانية وثمانون من البغال، ثمانمائة وستة وستون من الجمال، وما يحتاجه طاقم الجمالة، قطع مدفعية اثنان قطع رمي مباشر، وأربع قطع مدفعية ميدان. ما ذكر هي القوة الرئيسية الضاربة، ما تبقى تركه المقدم ليقوم بوظائف أخرى، كالتأمين والحراسة والاسناد، وكذلك حراسة المعسكر.

يعرف المقدم أن قوة هذا الفوج هي أقل من الماضي، عبر عن هذه الحالة والقلق الذي وجده، لما راسل صديقه السيد تور بان شامبلي de la Tour du Pin- Chambly:
« ما تركت أحدا إلا وجلبته للفوج، قائد مكتب العرب، قائد التنظيم، وما تركت ضابطا إلا وطلبت منه الالتحاق السريع بالفوج، حتى أنني استدعيت ضابطا شابا، جاء ليعمل قائدا لمكتب العرب هذا الشاب، لم يرى في حياته الجنوب، هو شاب متميز، حتى

الضباط النواب هم كذلك شباب، لا أحد فيهم ينطق كلمة واحدة باللغة العربية بالمختصر المفيد، أنا عاجز أن أشكل الفوج تشكيلا صحيحا، لأنني أفتقد الرجال من أجل ذلك قلصت الفوج، هذه هي يا صديقي قوتي، وأنا أخرج، لأواجه ثلاثة من الأولياء الصالحين، اجتمعت كلمتهم علي. »

السيدة دو نوسيس آلمها فراق زوجها، وهي تكتب عن هذه المرحلة العصيبة تقول: « لما كان زوجي يغادر، كنت أنتظر قدوم مولود جديد، تذكرت أيام الصيف الماضية العصيبة وما وقع فيها، ولأن ما هو قادم صعب، قررت وأنا في حالة تعب وارهاق من هذا الحمل أن أتخلى، وأموت بعيدة عن الغالي غاستون. »

المقدم يشاطر زوجته آلامها ويكتب معبرا: « شعرت بالأسى وأنا أترك زوجتي مريضة شاهدتها وهي تودعني، كأنه الوداع الأخير، لا أستطيع أن أوقف نارا اشتعلت بداخلي ولم أستطع أن أتحملها. »

أراد المقدم أن يعوض النقص، الذي وجده في الفوج القتالي، يكتب لصديقه تور بان شامبلي: « أردت أن تكون حركة الفوج، كما نفعل عادة أثناء التدريبات، ولم أغير شيء أنت تعلم أنني أبعد نفسي عن الظهور أمام الناس، ولا أخص نفسي بأي شيء، وبالقدر الذي شعرت بالخطر، كانت يدي قوية ماسكة بالأمور، متيقن بأن النصر حليفي لا محالة.»

التقرير الذي تركه دو نوسيس، مكننا من معرفة مجريات اليوم الأول، وما وقع بالتفاصيل، اليوم الأول الفوج القتالي يتوقف في منطقة الرشق، علم المقدم ليلا أن العدو

قد دخل الخضرة[1] وهو الآن يهدد عين ماضي، هو بعيد عن مدينة الأغواط بمسافة اثنان وثمانين كيلومتر، هذا القصر له حضور في تاريخنا العسكري، حيث قاوم غزو الأمير عبد القادر بشكل رائع، وقع ذلك سنة 1838 ميلادية. الولي الخليفة التجاني حليفنا القوي صمد لمدة سنة كاملة، ليوقف الأمير عبد القادر، وليمنع نفسه من السقوط في حكم الأمير. اليوم من يحكم القصر هو ابنه سي أحمد التجاني، يشاركه أخوه سي البشير، سي أحمد هو الخليفة الشرعي للطريقة والزاوية التجانية، لها مريدين وأتباع من تونس حتى المغرب، كل الأتباع لهم سيد واحد يتبعونه هو الخليفة التجاني، إن مصير الحملة العسكرية التي نقوم بها الآن، مصيرها معلق في يد هذا الخليفة التجاني.

« أبلغنا السيد أحمد التجاني عن غرباء، ظهروا في السهول القريبة من القصر، وأنهم سرقوا بعض القطعان، ومجموعات كثيرة من الجمال، وأن الذي أعانهم في عملية السلب أفراد من قبيلة الأرباع، وأن السكان اندفعوا لرد المعتدين، وتكمنوا من استعادة القطعان، و لم يحصلوا على الجمال. بعد هذا البلاغ سي أحمد يطلب البارود، وكذلك خراطيش البنادق، طلب البارود والخراطيش يدفع للاستغراب والتعجب. أجبت الخليفة التجاني، أن المطلوب منه أن يثبت ويتحصن في قصره، وهو متاح له، لأن أسوار القصر تمنح الخليفة والسكان مقاومة، وتمنع عنهم اعتداء المعتدي، وأبلغته أنني قريب منه وهو يعرف، أن المعسكر أنا واضعه في الرشق، وهو قريب من القصر، وأنني

[1] لعله يقصد مدينة الخضرة القريبة من الشارف، التي جمع فيها المجاهد سي موسى بن حسن قواته، وبدأ في تجميع قبائل أولاد نايل، إلا أن الماسوني سي المختار امتنع عن نصرته، وطالب أولاد نايل عدم الانضمام إليه، وقال أن النبي وجبريل أمراه بذلك.

سأبدأ الحركة من غد، سأوقف حركة المتمردين، وأبلغته أنني سأرسل له قافلة البارود رغم علمي أن هذا المطلب تكتنفه الشكوك[1]. »

اليوم الموالي وما طلع الفجر، وافق يوم الأحد الواحد والثلاثين من الشهر، تحرك الفوج القتالي ناحية الغرب، ووصل مرتفعات قرن الستاويتا، هنا حدثت كارثة غير متوقعة وخبر نزل على القيادة نزول الصاعقة، قصر عين ماضي هو مفصول عن الفوج القتالي بحاجز صخري طبيعي عمودي، وأن هذا الحاجز الصخري تحاصره قوة قومية أعداء، وأن السكان حاولوا ردهم، وأن أحد المدافعين قتل، ومع ذلك استطاع الأهالي منع قطعانهم من الوقوع في يد المعتدين.

يكتب المقدم في تقريره: « أمام هذه التغيرات، كان من المحال أن آأمر الفوج بمواصلة التحرك، وأن أترك ورائي وحولي أعداء منتشرون، وهذا العدو قتل رجلا من القصر يفترض أنه في حمايتنا، وأن هذا العدو لا يتردد في الاعتداء على تشكيلاتنا القتالية من أجل ذلك، أمرت بالتوقف في المكان الذي أنا متواجد فيه، ويسمى مدراي ـ النارون وضعت معسكري، وأخذت موقع الدفاع، وركبت فرسي مع أفراد من الفرسان لأقوم بنفسي بحركة استطلاع، ما اقتربت من عين ماضي حتى شاهدت، ما يقارب من ثلاثين من الفرسان، يتركون قصر عين ماضي ويظهر عليهم القلق والتردد، وفهمت من حركتهم أنه يتجهون ناحية المعسكر مدراي ـ النارون، وقررت أن أقف دونهم وأتصدى لهم، إلا أنني أوقفت حركة المواجهة، لأتحين فرصة سانحة للهجوم.»

يكتب دو نوسيس: « آثرت أن أتقدم نحوهم بهدوء وحذر، شاهدت الفرسان يخفون أنفسهم بين الانكسارات الصخرية، ومع ذلك تقدمت ووجدت نفسي مواجها لهم، وكنت

[1] هذه الفقرات منقولة من التقارير العسكرية التي كتبها دو نسيس للقيادة العليا.

أحضر نفسي ومن معي لبدء الهجوم. وما كدت أفعل حتى توقفت، هؤلاء ليسوا غرباء هم من تشكيلاتنا القتالية، هم فرسان الأرباع وقائدهم لخضر، بالكاد أوقفت إطلاق النار على جنودنا، وتداركت الوضع رغم دقته، ومنعت حدوث الكارثة.»

أخبرني لخضر عن الوضع والمستجدات: ما قاله خطير، وله نتائج وخيمة، يجب أن نتداركها، مما ذكر لخضر أن فرسانه عددهم ثلاثة وعشرون، وأنهم حضروا في مهمة استطلاعية، وأن الغرض من وجودهم انهاء مهمتهم، ثم الالتحاق بالفوج القتالي، لما وصل قصر عين ماضي. القائد لخضر شاهد الفرسان ينتشرون في السهل، يلبسون البرانس المختلفة، ظننا في البداية أنهم منا، ومن تشكيلاتنا القتالية، إلا أن الأمر اختلف، لما كدنا نصل قصر عين ماضي، وما بقي من المسافة إلا كيلومتر واحد فقط تعرفنا على أنهم أعداء، وقلنا ماذا يريد هؤلاء من القصر ؟ عرفنا أنهم عازمون على حصاره، ونحن لم نقف مكتوفي الأيدي، حاولنا أن نصدهم ونقف دونهم، ودون القصر. لما اقتربنا من باب القصر، تعرفنا على قطعان سي قدور بن حمزة، سألنا أحد الرعاة وأعلمنا خبر سي قدور وقطعانه. الذي بات مؤكدا، أن الخليفة التجاني ومن معه، أعلنوا الطاعة لأولاد سيدي الشيخ، وقصر عين ماضي هو الآن تحت سلطتهم، وما لم يكن في البال أن سي لعلا هو الآن في ضيافة صاحب القصر سي أحمد التجاني، وهم الآن قادة للتمرد والثورة ضد فرنسا، لما علم لخضر الخبر تسلل هاربا هو وفرسانه، لأن الآن هناك قيادة جديدة تدير القصر، وبعدما كان الخليفة وقصره خاضعا للحكم الفرنسي، هو الآن يعلن الثورة والتمرد.

يكتب دو نوسيس في تقريره العسكري: « الخيانة التي قام بها الخليفة التجاني ومن هم معه من أولياء الله، هي خيانة عظمى، سي أحمد التجاني لا يعرف أنني قريب منه، وأن الفوج القتالي سيزيل ملكه، الكذاب هو عنده ما يكفيه من البارود واستغفلني، لأمنحه

كميات إضافية، كنت أعرف أن الأسوار والجدر تحميه، كان يمكنه الانتظار، نصل إليه وننقذه من الأعداء.»

يكتب دو نوسيس: « عدت إلى المعسكر مباشرة برفقة لخضر و قومية الأرباع، جمعت الضباط، وأبلغتهم المستجدات الطارئة، وطلبت منهم القيام، بأقسى الجهد المتاح.»

سي لعلا هو الآن في أبهج أيامه، هو الآن داخل قصر عين ماضي في ضيافة سي أحمد التجاني، ما زاده فخرا أنه وصل إلى هنا دون عوائق تذكر، من يدخل عين ماضي هو منتصر، لأنه الآن جالس مرتاح بين أولياء الله، حولهم المؤمنون، آمنوا بأن الله ناصرهم سي لعلا توعدنا بالهلاك، وقال لمريديه أنه ما ينتهي من القضاء على الفوج القتالي سينتقل مباشرة ليغزو مدينة الأغواط، ثم يأخذ طريقه ناحية الجلفة، ومنها يصل بوسعادة، ومنها لمدن الجنوب، ويحرمنا السعادة التي وجدناها في صحرائه. هذا اليوم ثلاث مفارز تابعة لسي لعلا، انتشرت في جبل العمور، طلب من هذه المفارز الحضور لعين ماضي، لتكن قوة اضافية للمتمردين، أمر سي لعلا فرسان الاستكشاف بالتراجع وأن يكون ذلك ليلا. ما عقد وضعنا أن الناس معه، وهو قاب قوسين أو أدنى أن يصلنا، يكفيه شرفا مكانه المقدس عين ماضي، هي حالة ثورة مقدسة، تجتاح العقول والمخيلة، العرب من هم الآن معنا يشكلون المفارز العسكرية العربية، يأتيهم الشك أننا نتراجع، وأن الذين يرفعون علمنا، هم عرب يحملون عقائد وتقاليد خصومنا، هم كذلك ولقداسة المكان وقداسة القادة، يعتقدون أن الله مع المتمردين، وهو ناصرهم علينا لا محالة.

يكتب دو نوسيس يتكلم عن هذه اللحظات الحرجة: « لما كنت في حيرتي، جاءني لخضر والقومية الذين هم معه، لما عادوا من مهمة تجسس ومراقبة، التفوا حولي وهم

الرجال الشجعان، ووضعوا أياديهم على يدي ضاغطين، قائلين بصوت واحد: سيدي نموت من أجلك وإن لزم الأمر نموت دونك.»

« كنت أنتظر هذه الليلة هجوما ليليا هي ليلة 31 من شهر جانفي، الفاتح من فيفري هو يوم هواجس وقلق، وهو كذلك بوم تكثر فيه الأعمال، شددت الحراسة التي تخصني وأصدرت الأوامر الصارمة، وحددت المواقع بدقة، ووضعت خطة بديلة للانسحاب، إلا أن الأمر الذي أقلقني، هو الفعل الذي يمكن أن تقوم به الجمال، لو تعرضنا لهجوم مباغت. الفوضى التي تحدثها، أين يعجز طاقم الجمالة على التحكم، والجميع بعرف ما يمكن أن تفعله الجمال، وهي في حالة هيجان، أمرت الجمالة أن يستعينوا بالحبال، لشد الجمال ومنعها من الحركة، وأن يبقى كل جمال مع جمله، وأن يناموا قرب الحيوانات، ولا يتركوها ويلتزمون الصمت، والحكمة في المعالجة، الآن أستطيع أن أقول أننا على أهبة الاستعداد لاستقبال العدو.»

لما جن الليل جاء للمعسكر فارس، هو شاوش سي أحمد التجاني يخبر عن سيده، يريد أن يبرر الأسباب التي دفعته للخضوع، وقبول دخول المتمردين، وخاصة أولاد سيدي الشيخ، وأنه خاف أن يقوموا بتجريف البساتين، وقلع الأشجار المثمرة، وهو تعامل بالحكمة، ويتمنى من المقدم، أن يجد له العذر في العمل الذي قام به.

المقدم له خبرة في شؤون العرب وحيلهم، هو يعلم أن أحمد التجاني يلعب لعبة السياسي ذو الوجهين، هو يريد أن يحصن نفسه ضد إخفاق قد يقع، ويريد كذلك أن يحمي ثروته.

المقدم دو نوسيس أجاب الشاوش متوعدا مهددا، ومع ذلك فتح له باب الرجوع قائلا: «قل لسيدك بصفتك مواطنا فرنسيا، الفعل الذي قمت به هو عندنا خيانة للوطن وستحاسب الحساب العسير من قبل المسؤولين، أما أن يقول أنه خائف من المتمردين

قل له مثلك لا يخاف، وكان عليه أن يتذكر والده وكيف أوقف قوة الأمير عبد القادر عند أبواب قصره، وأبى الخنوع والاستسلام، قل له من غد يتحرك الفوج القتالي التابع لمدينة الأغواط، والرب من يعيننا عليكم، سنستعيد مواقعنا، ونعيد توقفنا، ومع ذلك أنا لسيدك ناصح أمين: قل له تب واشتري خطيئتك يفعل، يدفعنا للصفح عنك، لأن الصفح عن الخيانة، يتطلب من مقترف الجرم، أن يقوم بالأعمال الجليلة.»

الشاوش لما سمع مقالة المقدم، وسمع التهديد والوعيد، ظهر عليه القلق ولاضطراب وظهر عليه السلوك المرتبك، المقدم بما يمتلك من معلومات كان يعرف، أن ما قاله الشاوش هو جزء من الحقيقة الكاملة، التي لا غبار عليها، كما ستؤكدها الأخبار المقبلة في قادم الأيام أن سي أحمد وأخيه البشير، قدموا الضيافة لسي لعلا وابن أخيه، ومن المعلومات أن الجمال التي أخذها المتمردون، تم تسليمها لأصحاب القصر وعددها خمسمائة. شاهدها الناس تنتقل من ناحية الغرب، لتصل قصر عين ماضي، ونقلت الأعين أن يوم 31 جانفي، وقبل طلوع الشمس، سي أجمد التجاني ركب فرسه، وادعى أنه سيلقى المقدم إلا أن الحقيقة أنه اخذ طريقه ناحية أولاد تياد، وهم من أتباعه وأفاد الجواسيس أنه شكل منهم قومية تنصر الأعداء، وكدليل الرضى، أولاد تياد ولفرحهم بالخبر قدموا له هدية هي بغل وفرس من الخيل الأصيلة قياد، وقام بأخطر من ذلك، لما أدخل قومية أولاد تياد القصر كاستعراض عسكري.

الشاوش عرف أن سيده سي أحمد حقيقة قام بفعل الخيانة، وهو لا ريب سينال العقاب الذي يستحقه، ومن باب حب الشاوش لسيده، أراد أن يستعطف المقدم، ويظهر له أن سيده له أواصر صداقة مع المقدم، هذا الكلام أزعج المقدم وجعله غاضبا وطرده ورد عليه قائلا، مضيفا لكلامه الشتيمة: « أنقل ما قلته لك لسيدك أيها الغادر! »

ليلتي هذه ورغم الانتظار الأعداء، لم يهاجموا، قضوا ليلتهم يوحدون وحداتهم الثلاث وينسقون عملهم، ويحضرون خططهم، الشاوش قدم معلومات مهمة للمقدم « سأله المقدم: كم عدد الرجال الأعداء في القصر ؟ أداب الشاوش: أخبرنا سي لعلا أنه أحضر ستة آلاف من الفرسان، وثلاثة آلاف قوة مشاة.»[1] المعلومة أخذها المقدم بتحفظ العرب يبالغون دائما، ما هو معروف عندنا وحسب معطيات الرصد والمراقبة، ما هو موجود هو ثلاثة آلاف من الفرسان، وألف من المشاة، معادلة الأعداد أن واحد في الفوج يقابل أربعة من المتمردين.

يوم الاثنين يوافق الفاتح من شهر فيفري، ما طلع الفجر بدأ الفوج في التحرك والغاية مواجهة العدو، ما قمنا به أن جعلنا تشكيلات الفوج على شكل مربعات، وضعنا الكتيبة الافريقية على شكل مربع واجهة، وضعنا كتيبة الرماة الأولى على شكل مربع تحيط بالمربعات الثلاث الأخرى[2] داخل المربع الكبير، النواة هي مربع مشكل من كتيبة الرماة كذلك، وظيفتها حماية وحراسة المدفعية والذخائر والاسعاف والمستلزمات الأساسية والحيوية للفوج. قوة المطاردة الافريقية تتشكل من كتيبة، معها كتيبة السبايسية وضعت على شكل مقابل داخل المربع الكبير، حيث تكون واحدة على اليمين والأخرى

---

[1] سي أحمد الخليفة التجاني لم يكن يعرف أن الشاوش الخاص به الذي يحضر لقاءاته واجتماعاته جاسوس بل كانت هناك خلية جواسيس داخل القصر هذا موضوع آخر.

[2] قوة الرماة قوة عسكرية نظامية مشكلة من العرب، أي المسلمين على حسب المصطلح الفرنسي، هي من حسمت معارك فرنسا في الجزائر وخارجها شعارهم: تبكي أمك ولا تبكي أمي وقوتها لا تعادل أية قوة عسكرية فرنسية نظامية لها انتصارات عظيمة في الجزائر، وحاربت تحت العلم الفرنسي في كل مكان حتى فلسطين والشام، وهي تحتاج لدراسة وافية حتى يعرف المسلمون ماذا فعلت هذه القوة الرهيبة، وبقيت هكذا حتى استقلال الجزائر.

على اليسار، وظيفة الكتيبتين سد الفراغ وتعبئة الأماكن الرخوة، لما يقع الهجوم المضاد على المربع ككل المربع كله، يقاتل مترجلا، وإن استطاع العدو اختراق المربع، يخرج الفرسان ويردون العدو بالتلاحم، وبالأسلحة البيضاء وفي مقدمتها السيوف[1]. وحتى يتجنب المقدم ما قد يقع من الفوضى في حالة وقوع هجوم، أمر أن تقيد الجمال وتشد لبعضها البعض، لتحرير المسالك بين المربعات، وطالب بالهدوء والصمت التام، وأنذر طاقم الجمالة، أن أي خطأ يأتي من قبلهم، مآله العقاب الشديد.

يذكر المقدم دو نسيس هذه الأحداث فيقول: « تشكيل الفوج بهذه الطريقة يجعله قلعة متحركة في حركة متوازنة ومحسوبة، وأن الفوج لن يتوقف إلا لما يصل معسكر الأعداء هذا التشكيل، أنه يقلص الفارق العددي بيننا وبين العدو، والخطة أن الدفاع هو من يحسم نتيجة المعركة. تركنا المبادرة لقوة الفرسان هي من تبدأ القتال في الوقت، الذي ترى أنه هو المناسب، وتتبعها مباشرة قوة المشاة، بمعنى أن الفرسان يفتحوا الطريق

[1] هذه الاستراتيجية العسكرية المسماة حرب المربعات، جربتها فرنسا وكانت نتائجها وخيمة، وأذاقها الله هي وحلفها الماسوني سوء العذاب والعقاب، ومن باب ذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين نذكر بهذا اليوم: يوم 22 أغسطس سنة 1914 ميلادية أيام الحرب العالمية الأولى خسرت في يوم واحد 27 ألف جندي فرنسي في كل من اللأردين وشاليروا وروسينيول وهو عدد يعادل عدد الجنود الفرنسيين الذين قتلوا في حرب التحرير، والتي استمرت أكثر من سبع سنوات، والله المنتقم الجبار.

والمشاة يؤمنونها، القوة هذه تحمل البندقية شاس بوت[1] سلاح جديد، ولم يعرفه المتمردون من قبل.

جاء يوم الحسم هو يوم العرض، كل واحد سيظهر ما يمتلك، وستحسم المعركة لمن يحسن إدارتها، نحن الآن نعتلي خشبة المسرح، المخرج الجيد هو الذي يحسن الإخراج ويوزع الأدوار على الممثلين، لأن نهاية القصة حسمت مسبقا، أقول وأنا أشعر بالعزة نحن المنظمون ندافع عن وطننا الجديد، ضد هؤلاء البرابرة.[2] »

التشكيل الجديد يتحرك بنظام وانتظام، وفي صمت مطبق بين اللحظة والأخرى، يتم التوقف لرص الصفوف، وإعادة الانسجام، والتوجه الحذر نحو العدو.

يكتب دو نوسيس عن هذه المرحلة: « مرت بالكاد ساعة من حركة التشكيل القتالي عناصر المراقبة المتقدمة، أعلنوا خروج العدو من معسكره، هم كذلك يتقدمون في خطوط منتظمة، والآن يمكننا سماع وقع أقدام المشاة الأعداء، وجدنا أنفسنا في واد عميق واقع على شكل حوض، تحثه الصخور من كل جانب، السبيل الوحيد للخروج من الحوض هو مضيق ضيق، عرضه بين الخمسين والستين مترا، هو مضيق اعتادت

---

[1] armés de chassepots بندقية نموذجية فرنسية، صنعت سنة 1866 ميلادية ودخلت الخدمة نفس السنة، وأول استعمال لها كان في معركة عين ماضي البندقية المسماة Chassepot سميت على اسم مبتكرها أنطوان ألفونس تشاسيبوت حسمت تقنيا حروب المقاومة الشعبية، ولم يصبح بإمكان البنادق المحلية مواجهة هذا التحول التقني الكبير، وهي تشبه البندقية التي يسميها الجزائريون بندقية الأمير عبد القادر وهي مزودة بحربة.

[2] كلام مهم يحتاج تأمل وقراءة فلسفية عميقة.

القوافل جعله مسلكا وممرا، يخرجها من حواف الوادي المتعرجة، وصخوره الصلدة، العدو أمسك هذا المخرج، وتمت حيازته بمجموعة فرسان أعداء. أحصيت ثلاثين منهم فوق مرتفع المضيق، أما تشكيلات العدو بقيت وراء الجبل، تنتظر مرورنا لتنقض علينا الخطر الذي كان في نفسي أنا الآن أراه حقيقة وواقعا، ومع ذلك كنت أعرف أنني لما أقترب من العدو، وأحاذي المضيق بمسافة رمي تتحها البندقية الجديدة، لن يكون أمام العدو إلا الهروب والفرار، وأنا على يقين أن المفاجأة ستكون كبيرة، وأن الضرر الكبير سيلحق العدو. »

المقدم يعرف أن ما سيقوم به هو مغامرة لا غير، إلا أن صرخة المؤمن برسالة الرب تجعل صرخته تخترق السموات والأرض، وتُنزل نور المسيح على فؤاده، المقدم تكلم عن هذه الومضة اليسوعية قال: « نعم هو تأزم الوضع، لو واصل التشكيل مساره سيصل إلى واد واسع وعميق، وسعه وعمقه أكبر من الوادي الذي حوصرنا فيه الآن، والمسافة بين الوادين هي انكسارات صخرية شديدة الانحدار. خروجنا من الوادي هذا هو الخلاص، ولا يتم إلا بحركة مدروسة وسريعة، تضعنا أمام العدو مباشرة، الأمل المتبقي الآن أن آخذ مساري ناحية اليسار، وهكذا أفسد خطة الانتظار عند المضيق التي أرادها لنا العدو في هذا الوقت المستقطع، الذي أنا فيه جمعت القيادات، وقلت لهم: « ما تبدأ الاشارة مني تبدأ الطبول وأدوات النفخ في العمل، هذا يعني أن كل التشكيلات تأخذ ناحية اليمين وتتجه للمرتفع الذي أحدده لكم، تبدأ التشكيلات عملية التسلق لتصل القمة.»

المقدم تكلم عن هذه الحركة الالتفافية قائلا: « المسافة التي تفصلنا عن العدو هي ستون مترا، سيظن أننا في متناول يده، لما نصلها سيرتفع وقف الطبول، وترتفع آلات النفخ، هنا يجب أن يستدير التشكيل ناحية اليمين، الحركة تمت بنجاح جمعت بين

السرعة والنظام في دقائق معدودة، الوجه الثاني للمربع وصل قمة الجبل، وأحاط بها ثم تجاوزوها أي القمة، وشكلوا كلهم تشكيلا مقابلا لتشكيل العدو، الوجه الثالث للمربع دفع أمامه الجمال، لتساعده على تأمين مساحة من جنبات الجبل، هكذا تشكل مربعنا على منحدري السلسلة الجبلية، هذا الموقع يجعلنا نشرف مباشرة على ضفتي الوادين اليمنى واليسرى.

يقول المقدم: « قمة الجبل منفتحة بمسافة مترين إلى ثلاثة أمتار، أعطتنا وضعية قتال خاصة، هي لنا سفينة النجاة.»

القمة جعلها المقدم مكانا له يدير بواسطته العمليات العسكرية، يقول المقدم: « هذه القمة سهلت أمورنا، ورغم صغرها سعت الفوج القتالي، رغم التعداد الكبير لقواته.»

يقول المقدم: « لما شاهد العدو هذا الوضع الجديد، تراجع ليعيد تنظيم قوته على شكل ثلاث مجموعات، المسافة التي تراجع بها تقدر بأربعة عشرة مترا، وضعت قطعتي مدفعية جبال في وضعية قتال، وشرعت في الرمي، وبدأ طلق نار متبادل بيننا وبين العرب الأعداء، الساعة الآن الرابعة إلا ربع.»

مقاتل برتبة عريف تابع لقوة المطاردة الأولى، رسم لوحة فنية جسدت هذا اليوم العظيم والقائد الذي صنع مجده، يقول على لسان المقدم: « الهدف من تحركنا هو احتلال المكان الذي يمنحنا التفوق، وهذا أمر حققناه بعد ساعة من الزمن، وجدنا أنفسنا وسط الأعداء، هم ثلاثة آلاف فارس وسبعمائة أو ثمانمائة من قوة المشاة، قمنا بتصحيح مسافات الرمي، وتعديل المواقع لنقف دون العدو بمسافة، هو لا يستطيع الوصول بها لنا، من يحدد النصر هو مدى البنادق في هذه الحالة، البندقية لا تخطئ هدفها أبدا لما

يقترب العدو، ويدخل مجال الرمي، يركب الفرسان خيولهم، ويقتحمون جبهة العدو المتقدمة.

العرب الأعداء بدأوا حركة سريعة، قام بها الفرسان، وشملت كل الاتجاهات، تركنا العرب الأعداء يتقدموا، حتى وصلوا مسافة فاصلة مقدارها مائة متر، هم لا يعرفون سلاحنا الجديد، وجاءتهم المفاجأة من حيث لم يحتسبوا، ما بدأنا بطلق النار حتى تساقط المهاجمون، ولا يعرفون من أسقطهم. ما كان بأيديهم من بنادق الرش هي الآن عديمة الفائدة والجدوى، تساقط العرب الأعداء، ما كان على الباقي إلا الانسحاب والتراجع، وما شرعوا في الانسحاب، بدأ الطلق الثاني المنظم من بنادقنا الجديدة بهذه المفاجأة، أوقفنا زحفهم.»

يكتب المقدم قائلا: « هؤلاء العرب الأعداء ما انتهى الطلق الثاني، استغلوا الفرصة واقتحموا واجهات المربع القتالي، وقللوا المسافة الفاصلة إلى خمسين مترا فقط، وبدأوا الهجوم المضاد، أطلقوا بارود بنادقهم ومسكوا بالوضع، ونزلوا ليحملوا قتلاهم، ويسعفون جرحاهم، وعادوا أدراجهم ليحضروا هجوما جديدا.»

شاهد آخر حضر المعركة يقول: « الفرسان العرب الأعداء اندفعوا في تشكيل قتالي رائع ومنسجم، ما لم يحسبوا حسابه بندقية Chassepot وخراطيشها المغلفة، وهي تتطاير حوالي هذا الجدار الهادر للعرب الأعداء، وهم يعتقدون أن مسكها متاح لهم[1] أي نعم بنادقنا الرهيبة الجديدة، تهشم أجساد العرب الأعداء، وهم يهجمون علينا في تشكيل كالبنيان المرصوص، نعم الفتك يلحقهم، هم يتساقطون بقوة، رجالنا الأشاوس الشجعان

[1] معركة عين ماضي ملحمة الاسلام والمسلمين ضد الحلف الماسوني الذي جند له كل قواته لنصرة الصليبيين، شاهد المسلمون لأول مرة الرصاص النحاسي الذي نعرفه نحن الآن، والله مقدر الأقدار العالم بالخفايا والأسرار.

هو يوم الحصاد، تحصد فيه رؤوس وأرواح العرب الأعداء. فرسانهم أمام بنادقنا، هم فقراء للسلاح عزل، وحتى يشجعوا بعضهم بعضا، يقتحموا المساكين تشكيلاتنا في مجموعات، ليشدوا بعضهم بعضا، ويموتوا كذلك مع بعضهم البعض، أقسى ما يفعلونه الآن يفرغون بنادقهم في الهواء ثم يتراجعون، المساكين ما استطاعوا أن يصلوا للمسافة الفاصلة بيننا، وهي مسافة مائتي متر لتعطيهم القدرة على الحركة والمواجهة. ينتظرهم الغبار وطلق الرصاص، هذه المعجزة الصغيرة، جعلت معركة هؤلاء العرب الأعداء لعبة طفولية، الرصاص النحاسي يترك أحافير في أجساد هؤلاء العرب البرابرة الهمج، وهم يشاهدون نظامنا وتفوقنا العسكري.»

السيد المقدم كتب عن هذه المرحلة بكل ثبات يقول: « البداية تقدم العدو ليهاجم الواجهة الأولى للمربع القتالي، وبعد ذلك سارع من هجومه ليشمل الواجهات الثلاث المتبقية، ثم جمع قوته ليهاجم الواجهة الرابعة. ما بدأ الهجوم على الواجهة الرابعة، حتى قام قائدها بالتقدم ناحية الأمام بمسافة مائة متر، ليطرد مجموعة من الأعداء، تحتمي بخرق صخري، هذا التحرك أحدث فراغا، جعل الجمال التابعة للفوج تندفع نحوه، هذا الفعل الخاطئ هدد الفوج، وجعله في مرمى العدو، وكدنا أن نفقد الانتصار الذي جاءنا من استعمال البندقية المفاجأة.»

عرف التشكيل القتالي لحظات قلق وارتباك، العرب الأعداء تسللوا للفراغ بحيلة وهي اشعال خصلات من نبات الحلفاء، وأشعلوا الأرض المغطاة بهذا النبات لإعاقة رمي بنادق الفوج، واستغلال الدخان للوصول للمشاة والفرسان، و الماسكين هذه البنادق الرائعة، القائد عرف الخطر المحدق، نظر إلى مسار المعركة، وهو راكب حصانه، تحوطه قوة القومية والرماة و السبايسية. طالب بإخراج الجمال من ساحة المعركة، لإعادة النظام وأمر المدفعية أن تقصف ناحية الهجوم المباغت، العرب الأعداء الأشداء أرادوا

تغيير ميزان المعركة لصالحهم، وذلك بالهجوم المباشر على قوة المشاة، والفرسان لسلبهم بنادقهم لعلمهم أن المعركة لا يحسمها العدد، ولا الشجاعة، تحسمها البندقية الجديدة وتقدموا حتى وصلوا قوة المدفعية المحمية من قبل قوة الرماة، ومع ذلك وصلوا قائدها وجرحوه، حتى لا يحسم العرب الأعداء معركتهم، وهم كادوا يصلوا المدفعية ويحوزوها. نهض الفرسان العرب عماد الفوج، وقاموا بهجوم مضاد، هاجموا العدو المقبل غير المدبر البداية جاءت من قوة المطاردة الافريقية، وتبعتم قوة السبايسية، استعملوا بنادقهم الجديدة، وبدأوا بعلاج المناطق الرخوة عند العرب الأعداء.

هذه الملحمة يصفها العقيد تريمليت: « الفرسان الأعداء لم يتراجعوا، يمسكون بنادقهم يفرغون ما بها من بارود، يواجهون التشكيلات بكل قوة واندفاع، تساقط فرسان الفوج عن أحصنتهم، وبات الجميع يشاهد السروج الخالية من فرسانها. المنظر المروع الجثث تملأ المكان بل وتعيق الحركة، العرب الأعداء يندفعون ولا يتراجعون، قرروا أن يحسموا المعركة لصالحهم، القادة الثلاث يرقبون عملية الاقتحام، ويرتبون المداخل الجديدة كل قائد من المتمردين يجمع حوله فرسانه ومشاته، ويمدهم بالتعليمات، ويصدر الأوامر في هذه اللحظة سي لعلا يصدر الأمر الأخير، بالهجوم ضد التشكيل القتالي الذي أبقى على وضعية المربعات المتحركة، وجاء الالتحام الكبير. العرب الأعداء يواجهون المربع من جميع الوجوه، لم يبق أمام الفوج من خلاص إلا أن تدخل المدفعية، وشرعت ترمي الكتل المتحركة للأعداء، وتسقط المجاميع المرة الواحدة، هؤلاء العرب الأعداء لم يتراجعوا زاد حماسهم، الفوج قاب قوسين أو أدنى أن يتهالك ثم شاهد الجميع المفاجأة العظمى، عاصفة البرد إلا أن هذه المرة الكرات ليست من الثلج، بل من مقذوفات نحاسية تخترق البرانس والعمائم، ما تصيب الفارس أو الماشي حتى يسقط أرضا ما تفعل بنادق الرش ؟ وما تفعل الخناجر و السيوف ؟ وما تفعل الشجاعة ؟ تراجع العرب ناحية قصر عين

ماضي، إلا أن المدفعية لم تبخل عليهم رمتهم بقذائف متتابعة، لتسقط الرجال عن صهوات خيولهم.

لم يتراجع الجميع من بقي فيه نفس ثبت، وواجه هذا الفوج المتحرك على شكل مربعات يتحرك في صمت رهيب، وبين الحين والآخر يخرج لأعدائه المفاجآت المتتالية من حسم معركتنا هذه هي الأسلحة الجديدة التي لم يعرفها، ولم يسمع بها العرب الأعداء من قبل بدأ صوت سي لعلا يخف ويقل، وتراجع صدى صوته هو بالكاد يسمع، الفوج واصل القصف المدفعي ووسع عاصفة البرد، شظايا النحاس تتطاير، الفرسان الأعداء يبحثون لهم عن مواقع حماية بين الانكسارات والثنايا الصخرية.»

يواصل العقيد تريمليت حكايته: « الساحة العاشرة ونصف، بدأت نيران العدو تخف على ثلاثة وجوه، وبقي الوجه الرابع يقف أمام حماسة واندفاع المتمردين، السبب أن الوجه الرابع واقع على منطقة صخرية فيها انكسارات وثنايا، والعرب يحسنون استخدام هذه الجغرافية الصخرية. استطاعوا أن يعيدوا توازن المعركة، ولأن المقدم دو نسيس خبر معارك العرب، ويعرف من يحسم المعركة بعد البندقية والمدفعية، وعاصفة البرد النحاسية هي المفاجأة الحاسمة غير المنتظرة. أخرج كتيبة الرماة الفوج الأول الجزائري، كان ينتظر الأمر في زمنه ولحظته في لمح البصر، الفوج الرماة الأول الجزائري يمتطي الخيول، واندفع نحو العرب الأعداء، تغطيه وتحميه عاصفة برد نحاسي ليفتك بالأعداء، وهو مثلهم يعرف أساليبهم، هكذا سطرت كتيبة الرماة لفرنسا تيجان المجد والفخار.»

ما ظهرت كتيبة الرماة والجميع يعرفها، عرف من شهد الوقيعة أن المعركة حسمت ما جاءت الساعة الحادية عشرة ونصف، العرب الأعداء هزموا وتراجعوا، تناثرت الجثث والخيول النافقة، وامتزجت رمال الصحراء بحمرة الدم القاني. ترك المتمردون سبعين

قتيلا[1] ولم يتم إحصاء من تم إخراجهم من المعركة، وعدد الجرحى هو أربعة أضعاف القتلى، لم نخسر من جنودنا ولا من ضباطنا، اثنين فقط من الضباط اصيبوا وأصيب ثمانية من الجنود، والفضل في منع الخسائر، ما منحته لنا البندقية الجديدة من مدى جديد، لم ينتظره الأعداء، ويعود الفضل كذلك للموقع الذي تواجد فيه الفوج، ولأن المقدم دو نسيس معروف بالتواضع في تقريره العسكري، لم ينسب النصر لنفسه، ولا لتشكيلاته، إنما نسبه لقوة المدفعية فقط، إلا أن من يؤرخ لهذه المعارك العظيمة، لا بد أن يعطيه حقه رجل شهد المعركة، وهو من الكتبة قال: « الفضل في حسم المعركة صنعته فوهات المدفعية، والبنادق الثمينة الغالية، وعبقرية المقدم في اختيار ساحة المعركة، وعلمه ونبوغه في معارك الصحراء. الفضل يعود لشجاعته وإقدامه، وبصره الثاقب في تصحيح الأخطاء، وقوته الفذة في رسم المعارك، وانجازها في الواقع، المقدم

[1] نحسبهم عند الله شهداء في عليين، رحم الله سي لعلا وسي قدور وسي أحمد وناصر بن الشهرة المشارك، ولم يذكره الكاتب رحم الله يني لقواط، رحم الله أولاد نايل الشجعان الأخيار، رحم الله أبطال جبل العمور، رحم الله أحرار لبيض سيدي الشيخ الذل والهوان والشنار على الخونة الأشرار، لعنة الله على كل ماسوني استباح دماء المسلمين، لعنة الله على شيوخ الماسونية في كل زمان ومكان. رحم الله سي أحمد الخليفة التجاني من فتح قصره، وأخرج رعيته للجهاد ونصرة الدين، وجاهد مع إخوانه، إذا مررت على قبور حلف الماسونية أقرأوا عليهم قوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ المنافقون الآية: 8.

يمتلك الثبات في المواقف الصعبة، وأهم خاصية يمتلكها بحق التأثير على العرب العاملين معه، ويعود له الفضل في إدخال العلوم العسكرية الجديدة إلى إفريقيا[1].»

كتب المقدم دو نوسيس: « ما أعجبني وشد انتباهي نظام الفوج، وحركته المتزنة والتزامه بالصمت والهدوء، وكيف أن كل واحد يقوم بالمهمة المكلف بها، ولم يردوا على عُواء هؤلاء البرابرة، هذا الصباح وعدوا أنفسهم أن يقوموا بمجزرة كتلك التي اقترفوها ضد مجموعة العقيد بيوبريتر Beauprêtre[2]. » ما تحقق هذا الحسم وتراجع العرب الأعداء الفوج القتالي وقف بين قصر عين ماضي والمتمردين، حتى لا يسمح لهم بالتحصن داخل القصر، يذكر المقدم هذا الحدث ويقول: « ها نحن نشاهد فرار الأعداء، وهم يبتعدون ويرتفع وراءهم الغبار المتصاعد، أراهم يجتهدون في الفرار والركض، يسارعون الخطى لإدراك الفوز والنجاة، الغريب أن سكان قصر عين ماضي، يتزاحمون لأخذ الشعير والمؤن، التي تركها المتمردون، وسمع طلق نار بل بعضهم وهو يريد اغتنام الشعير، شرع في شتم المتمردين.»

يقول المقدم: « وصلنا للتو قصر عين ماضي، نحن الآن عند أسواره، بل وصلنا معسكر سي لعلا، هذا التوقف مكن الجنود من أخذ راحة، تسمح لهم بتناول وجبة طعام هي الأولى في يومهم هذا.»

---

[1] Le colonel G. Trumelet , Histoire de l'insurrection des Oulad-Sidi- Cheikh, 2 partie, p. 394. — V, Fernand Hue, Histoire du 1er chasseurs d'Afrique.

[2] يفهم البعض أن هناك تناقض حين صرح أنه لا قتلى والآن يعترف بوقوع مجزرة بالمجمل هم لا يذكرون ولا يعترفون بالقتلى العرب، لأنهم مرتزقة تدفع لهم رواتب، هو يذكر فقط الفرنسي حتى يلحقه الشرف العسكري، كل هذه المعارك تسمى عند الكتبة الفرنسيين حرب البرانس، الادارة والتنظيم تقوم به القيادة الفرنسية، الأعمال القتالية يقوم بها الأهالي.

وصلنا قصر عين ماضي، عمه الصمت المطبق الرهيب، هذا القصر جميل الهندسة الواقع على قمة تحيطه سهول ممتدة، هو كالجزيرة الظاهرة المطلة تتوسط المحيط، قصر محاط بساتر ترابي وتحصينات صخرية، ما تدخله حتى تشاهد البيوت العربية المتناثرة، أسقفها مستقيمة ومستوية هي تحيط بالمسجد. ترى آثار أشجار ونخل زرعت منذ القدم الظاهر أنها أقدم من نخيل مدينة الأغواط، هي في هذا الجزء عاصمة في صحراء قاحلة، لم نجد كما كنا ننتظر من يبتهج لنصرنا، لم نجد الفرحين ينتظروننا أمام الأبواب، ولا فوق السطوح هذا شاهدناه في مواسم ماضية وفي أماكن متفرقة، ما نراه الآن الخوف يسكن النفوس والقلوب بلغت الحناجر، الجميع ينتظر لحظة الحساب وما يتبعها من عقاب.»

يواصل المقدم وصف حالة السقوط: « ما وصلت القصر حتى جاءني السيد أحمد التجاني برفقة أخيه سي البشير، يرافقهم عشرون يرتدون الخرق واللباس البالي، يحملون أسلحة، حضرا وقد طأ طآ رأسيهما، ظهر لي وكأنهما ينتظران العقاب، الذي سيلحقهما تظاهرا من رافقهما من المسلحين، أنهما سعداء بعمل المطارة بحق المتمردين. أظهروا وكأن لهم الفضل في القيام بهذه المهمة، أراد سي أحمد أن يبرر الفعل الذي قام به، وارتفعت الأصوات بين الحاضرين بين متهم ومدافع، كنت أنظر للجدل الحاصل وأنا صامت أرقب الأحداث، وأتأمل ما يقع في ظل احتدام النقاش، قلت للحاضرين: القرار ليس لي هناك سلطة عليا لها الحق في أخذ الإجراء المناسب[1].» ما وقع لعين ماضي أحدث ردة فعل عنيفة في مدينة الأغواط.

[1] الجدل وقع بين الشيوخ والقادة الكبار للفوج القتالي، وان اتفقوا في نصرة الصليب وقتل المسلمين واعتبار ذلك من القربات إلا أن من فيهم من كان يقر بمكانة الخليفة التجاني ومنزلته الدينية، بوصفه الوريث الشرعي لمؤسس الطريقة وهو كذلك من

تحكي زوجة المقدم عن الأزمة المتجددة في مدينة الأغواط تقول: « الفاتح من شهر فيفري يوم لا ينسى، سمعنا أخبار المدفعية وفعلها في المتمردين مع ذلك، كانت المسافة بيننا وبين عين ماضي بعيدة، عشنا اليوم كله في الخوف والهواجس. لجأت للصلاة لأخفف عن نفسي، طلبت من الرب أن يزود زوجي بالثبات والهدوء، وهو يواجه الأعداء، شعرت بالخطر العظيم الذي يهددنا، كلنا يعرف أن انتصار المتمردين يعنى نهايتنا هنا، سيغزون المدينة ولأنهم متعطشون للدماء سيقتلوننا، ويحدثوا فينا المجازر الرهيبة الليلة التالية فجرا وصلت رسالة النصر من قبل زوجي، وابلغني أنه لن يتوقف، وهو الآن يطارد المتمرد سي لعلا.»

سيلاحق المتمردين ولن يتركهم، ولا نستطيع أن نتابع فعل المطارة، لأن الأماكن مع الأيام تتباعد ما نعرفه محطاتها فقط، هو انتقل من قصر عين ماضي إلى قصر تاجرونة، ومنه إلى السلامية، ووصل قصر بريزينة.

المقدم يذكر هذه الأحداث: « خففت حمل الفوج حتى تكون حركته خفيفة، وهو يلاحق المتمردين، كنت أرقب المسرعين من الخيالة والجمالة، ولم أقحم نفسي معهم، علمت أن فوج جيري فيل هو كذلك خرج، واتجه ناحية الجنوب ليقطع الطريق على الفارين كنت أتمنى، أن أصل قصر سيدي الحاج الدين في الوقت المناسب، لأنني اعرف أن الهاربين سينزلون ناحية آبار الماء، ليأخذوا طريقهم ناحية المغرب، وأعتقد أن العدو من المستحيل، أن ينزل في منازله ليتقاسم الغنائم مع الأهل والعشيرة، وأن حظه من الراحة في ظل هذه الظروف بات مستحيلا.» ما يعيق عملنا هو أن فوج جيري فيل، يتحرك

الأشراف إلا أن القرار ستتخذه القيادة السياسية الفرنسية العليا، بما يتناسب مع المصلحة العليا لا الفردية للدولة.

ببطء وهو ما زال بعيدا من أجل ذلك، التكامل بين الفوجين أضحى مستحيلا وخاصة أنني مارست ضغطا على العدو، استمر ستة أيام.»

يقول المقدم: « لن أواصل الحركة نحو الأمام إلا في حدود ما تسمح به المؤن المتاحة هناك حدود للقوة، ونهايات حتمية لكل حركة، اليوم الخامس كتبت للعقيد كولوني Colonieu لأعلن له عن رحيلي، وأعطيه المعلومات المهمة التي يحتاجها، وأبلغته أسفي وعدم القدرة عن المواصلة، وأنني عائد لمدينة الأغواط.»

أيام قليلة جاءتنا الأخبار السارة المفرحة أن صبيحة الخامس من شهر فيفري، أغا جيري فيل الذي تربطه علاقة وثيقة بفرنسا، استفاد من غياب المتمردين من أولاد سيدي الشيخ، اقتحم مرابضهم وخيمهم الواقعة قرب وادي ـ قير، وقام بغزوة ناجحة، وسلبهم ما تبقى لهم، وأخذ منهم غنيمة عظيمة، غنم من الإبل ألفين، وأعداد وقطعان غنم كثيرة هكذا ولزمن طويل لن يفكر أولاد سيدي الشيخ بالتمرد، بعدما سلبهم الأغا ما تبقى لهم.

يوم العاشر من فيفري الفوج القتالي، يعود لعين ماضي بعد انتصارنا، الخليفة سي أحمد التجاني، طلب منا أن يرافقنا في حملتنا المتجهة ناحية الغرب، أراد أن يكفر عن ذنبه الذي اقترفه، وأراد بفعله هذا أن يخلي مسؤولية أخيه، ويحمل نفسه فقط تبعة العمل الذي اقترفه. المقدم لم يجبه وترك الصمت يخيم على المجلس، ولم يجب السيد أحمد التجاني، وتركه يغادر المكان، بعدها جمع المقدم كبار وشيوخ الأرباع، وكذلك كبار وشيوخ قصر عين ماضي، وأعلن أمام الجميع، أن المسمى سي أحمد التجاني قد خان فرنسا، وأعلن المقدم أن الخائن السيد أحمد التجاني، هو وأخيه وخمسة عشرة من مساعديه هم خونة. خانوا الدولة الفرنسية ومن أجل ذلك، سيتم اعتقالهم باسم القانون قبل أن يترك مجلسه، المقدم وصلته مراسلة من القيادة العليا للمقاطعة العسكرية، تأمره

بإطلاق سراح سي البشير، واقتياد سي أحمد التجاني لمدينة الأغواط، للتحقيق معه في الجرائم التي اقترفها[1].

اليوم الثاني عشر من شهر فيفري، وعلى الساحة الواحدة ونصف بعد منتصف النهار الفوج القتالي دخل معسكره في مدينة الأغواط، ما وصل حتى شرع في كتابة التقرير الذي طلب منه، وكتبه وهو في عجلة من أمره هو رسالة مؤرخة بتاريخ 25 فيفري موجهة للسيد دو لاتور دو بين de la Tour du Pin كتبه المقدم، وهو متوج بتاج الفخار والشجاعة، والإيمان المسيحي العميق، يكتب قائلا: « حوادث فيفري العظيمة تشرفنا، يؤسفني أن نائب الحاكم العام الذي نعرف مقدار حبه لنا، لم يقيم الأداء الذي قمنا به مع العلم، أن القاعدة العامة التي تجمعنا هي: « كل واحد يعمل بمقتضى واجبه» لما واجهنا العدو، كنا نشعر بأن وحداتنا القتالية، إن لم تنقذ هي مشرفة على الهلاك، هذا العدو المتوحش الصارخ الهائج الكانيبالي[2]، الرب حارب معنا، هؤلاء الوحوش كم كانت

---

[1] رحم الله سي أحمد التجاني المجاهد البطل ستكون له وقفات أخرى مع التاريخ ورحم الله والده الذي وقف ضد المشروع الماسوني الذي قاده الأمير عبد القادر، ونجحت دعاية الحلف الماسوني في شيطنة الزاوية التجانية وعرضها كأنها عميلة للاستعمار وسبحان مغير الأحوال الذين قاتلوا مع الصليبين تبنى لهم الأضرحة وتطلب عندها الحوائج والذين وقفوا ضد المشروع يُخَونُوا ويتغير منطق التاريخ الحاكم على الحوادث أنا أقول هذا، ولا ناقة لي ولا جمل مع الزاوية التجانية، يقول الشاعر العربي:

وشمائلٌ شَهِدَ العدوُّ بفَضْلِها والفضلُ ما شَهِدَتْ به الأعداءُ.

تم نفي السيد أحمد التجاني إلى العاصمة ثم أخذ إلى فرنسا ليقيم في مدينة بوردو.

[2] Le cannibalisme طريقة تقوم على أكل لحم البشر بطريقة جزئية أو كلية وهو لفظ من قواميس الدول المستعمرة توصف به الأقوام الهمجية البدائية والهمج عندهم كل

سعادتنا، لما قُهروا وتوقف صياحهم المزعج المرتفع من شهد الوقيعة، يرى نظامنا ويرى كذلك فوضاهم، يرى كيف تستطيع المدافع أن توقف البرابرة الهمج، وهم يتساقطون تسقطهم المدفعية، هي أجمل صور رأيتها في حياتي.»

الخطاب الطويل الذي أرسله المقدم لنائب الحاكم العام، ومنها إلى وزير الحربية ليضع نفسه موضع التقدير الذي يستحقه، بحكم الجهد الذي قام به، وليظهر ذلك يكتب المقدم: « لولا العمل والجهد الذي قمنا به، لكان الأعداء الآن يهددون الوجود الفرنسي نفسه، ولكانت القيادة العسكرية والسياسية، تقف على الكوارث العظمى.» ما خفف عن المقدم، الترحيب والاستقبال العظيم الذي وجده في عائلته الصغيرة من قبل زوجته و أهله، وكذلك الترحاب الذي وجده لما وصل لعائلته الكبيرة، أين وجد معسكره في مدينة الأغواط، ينتظره وبرحب بقدومه.

هذا الفرح والابتهاج عبرت عنه زوجة المقدم قائلا: « ما دخل الفوج الأغواط وجد الجميع ينتظرونه، عبروا عن فرحتهم بالتصفيق، وقام الضباط بتحضير احتفالية عسكرية تليق بمقام المقدم، الجميع مبتهج بالنصر الذي لولاه لكانت النتائج كارثية على الجميع، شاء الرب أن يحضر المقدم، ليسعد بولادة ابنته ماري بول فيلومين Marie -Paule- Philomène حلت بعالمنا بعد أربعة أيام، ولدت يوم 16 فيفري 1869 ميلادية، إنها الولد الثاني والأخير، الذي منحنا إياه الرب.»

مجتمع يقع بين أضراسهم وأنيابهم والمؤلف استخدم لفظ de cannibales هذا يظهر لغة الخطاب داخل القيادة العسكرية والسياسية الفرنسية لتبرير القتل.

يكتب والد المولودة الجديدة: « قمنا بتعميد المولودة الجديدة، وكرسنا معها الطقوس الإيمانية، هي قديسة تنظم لعائلتنا الصغيرة.»

الصحف الجزائرية والفرنسية، احتفت وباركت معركة عين ماضي العظيمة، وسمع الناس خبرها في الجزائر وخارجها، هذا جلب شهرة ومكانة لقائدها المقدم دو نوسيس من أجل ذلك. منحه الإمبراطور الفرنسي وسام حياة القيصر، وتم نشر خبره وإعلانه، وتم منح القائد الاعلى لمدينة الأغواط دو نوسيس، رتبة عقيد للفوج السادس قوة المطاردة، هذا التشريف وقع بتاريخ 26 فيفري سنة 1869 ميلادية.

بعد هذا النصر ما بقي من حرب أولياء الله الصالحين، وكيف جاءت نهايتهم، يقول العقيد دو نوسيس: « الأولياء الصالحين هم عرب يحسنون الدبلوماسية العربية ويعزفون معزوفتهم، لمن ناصرهم هم يفقهون التبرير ويبرروا لأنفسهم أولا، ولغيرهم أن ما حصل قد يحصل، أما نحن نستثمر ما يحصل لاحتواء البلد، ومنعه من السقوط في يد الأعداء فكرنا بتأني في عقاب الخليفة التجاني، رغم قدره ومقداره عند المريدين والمؤيدين، وهم كثر وللجرم الذي اقترفه، تم عرضه على مجلس الحرب، وتم ابعاده إلى كايا ن[1] Cayenne.»

التعب والارهاق العظيم أوقع العقيد في المرض، يكتب لأحد أصدقائه: « التعب يذهب ما يبقى، بعد هذه الحملة الشاقة النتائج التي جاءت في خدمة هذا البلد، أدعو الرب أن

---

[17] كايان مدينة فرنسية وسبب النفي مكانة الرجل والخوف من ردة فعل أتباعه فالقرار هنا سياسي، لأن الخيانة يستحق صاحبها الاعدام والسلطة الفرنسية، لا تريد أن تجعل منه بطلا.

يلهمنا الطريق الصحيح.» استطاع القائد بحيويته، أن يتجاوز المرض، التوقف عن الحيوية والنشاط يعطي للإنسان فترات توقف، تلهم الانسان ماذا يمكن أن يفعل في غد قادم يقربك من الله.

يوم 25 فيفري في رسالة كتبها السيد العقيد نقرأ: « أجد في نفسي هذا السؤال دوما: ما يجب أن أفعل ؟ أنا إرادتي بإرادة الرب وأرى أنا المكان الذي ترسلني إليه القيادة هو المكان الذي اختاره لي القدر، أنا قلبي معلق بالإله كلما عشت أكثر، تراكمت خبرتي وعلمت أنه لا حاجة لي من الدنيا، أنا باحث عن الحقيقة، نعم أجدها في أسرتي وأجدها كذلك عند أشخاص، تربطنا معهم مواثيق الصداقة والمحبة.»

نقرأ في رسالة أخرى: « أنا جاعل نفسي في خدمة الرب وكما قال الأب رافينيان de Ravignan لما نحب الرب، لا نقف عند العنق بل نرفع أيادينا ونضعها فوق رؤوسنا ومهما نحب الرب ليس في هذا كفاية، لأنني الخادم الضعيف الذي يخدم ربه، وتعلم أن فعل لا قيمة له أمام محبة الرب.»

نعم العقيد يمتلك الروح الإيمانية التي ترفعه، وهو أقرب ما يكون، لروحها وصليبها.

يوم التاسع والعشرين من شهر أفريل، العقيد شاهد زوجته وأولاده يغادرون الجزائر إلى فرنسا، ولم يستطع مرافقتهم، يقول العقيد دو نسيس: « سفر بعث في قلبي الحزن والأسى، لم أستطع مرافقة أسرتي يجب علي البقاء هنا في مدينة الأغواط حركة المتمردين مازالت مستمرة، وفعل المطارة والترقب صعب، يجعل حياتنا قاسية، ولعل العزاء الوحيد هو أن الرب هو من يجازي عباده العاملين.»

مر من الزمن القليل حتى قررت القيادة الفرنسية العليا، ارسال العقيد دو نوسيس إلى أومالي Aumale [1] يوم الوداع لف مدينة الأغواط الحزن، شاهد الجميع الحماية العسكرية داخل المدينة تودع القائد، ودعه كذلك الأهالي والقاطنين المحبين. خرج القائد وهو يودع الأغواط واحة النخل العزيزة عليه، وما خرج حتى قرأ ضباط وجنود الحماية في عيون القائد رسالة رجل خدم وطنه فرنسا، وخدم كذلك الرب الذي يعبده.

[1] المعروفة الآن بصور الغزلان مدينة جزائرية.

حكاية شغلت ساكنة الأغواط أحجية من الأحاجي وحكاية تحكى للصغار قبل النوم حكاية زواج السيد أحمد عمار[1] حفيد السيد أحمد التجاني، الخليفة الرابع الولي الصالح من الفرنسية أوريي بكار راوي الحكاية مسن شاهد على التاريخ هو ذاكرة شفوية فقدتها مدينة الأغواط، يعرف عند أهل الأغواط بًا كما ينطقها المغاربة بًا حسين أي أبي حسين، اسمه الكامل السيد برناوي الحسين وظيفته مرشد وحارس للمعالم التاريخية للزاوية التجانية بعين ماضي. يحمل الصفة الأبوية تتجلى في سلوكه وحركاته وكذلك ملامحه، أحب الزاوية التجانية وخدمها بصدق، عاش حياته في قصر كوردان شاهد ببصره فعل الجهلة المرتزقة، الذين حطموا هذا المعلم التاريخي، ونهبوا أثاره وتركوه طلل بعد عزة وأنفة وشموخ. حملة الحقائب الفرنسية بعد الاستقلال حرموه من صفة المجاهد هو يستحقها الجميع أقر بفعله الجهادي، السياسة يومها تريد أن تظهر الزاوية التجانية على أنها زاوية والت الاستعمار، وهذا كذب على الله ورسوله والمؤمنين. بًا حسين يرسل رسالة مفتوحة لرئيس الجمهورية، يريد الاعتراف به كرجل وطني جاهد وناصر قضيته، ما يخفف الألم أنه لم يكن الوحيد الذي غيب عن التاريخ، رحمه الله وتقبل الله جهاده ونصرته لدينه ووطنه.

تقول الحكاية أن سيدي أحمد عمار لقي قبولا عند الناس، قذف الله في قلوب خلقه محبته ومن عرفه، يقول صدق فيه قوله تعالى في نبيه موسى ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ الأمة في ايامه تتفيأ ظلال سيدي أحمد التجاني، وتذكر سيرته العطرة الزكية، السيد أحمد ساد بشخصه وقوة رأيه ونفاذ بصيرته، انضوت تحت عباءته القبائل والعروش، ولم تستطع فرنسا تدجينه من لا يعرف السيد أحمد عمار والده السيد مُحَمَّد الحبيب، اسم والدته السيدة عافية، خدمت والده بداية ثم تزوجها. ولد السيد أحمد بن عمار سنة 1266 هجرية 1849 ميلادية بناحية من نواحي قسنطينة

[1] هو من تعرفنا عليه في معركة عين ماضي العظيمة، ونفيه كان بسبب حربه على فرنسا كما ذكرنا.

تسمى كاملة، بعد وفاة والده عادت الأسرة لتسكن مدينة عين ماضي، ويظهر من السير الشفوية أن السيدة عافية جعلت لها مكانة وحظوة عند زوجها فحسدها الأقارب والأباعد، وأنها فرت وهي حامل لناحية من نواحي عنابة. تقول الرواية الشفوية أنها عادت هي وابنها عمار لبيت زوجها في ناحية كاملة بعد وفاته، تقول الروايات كذلك أن الابن عمار رفض العودة لعين ماضي، ويظهر من الروايات ومن الصور أن الابن أخذ الصفات الخلقية لوالدته، ولم يأخذ صفات والده. لذلك من لا يعرفه تُعرفه صوره المنشورة، هو رجل قوي غليظ معتدل القامة، أسود البشرة مربوع، أخذ صفات أمه بالتمام والكمال.

الظاهر والله اعلم أن مصدر الخلاف هو العرق والجنس، ولأن ثقافة العصر في زمان السيد أحمد عمار ثقافة طبقية يتمايز فيها الناس بالعرق، ولون البشرة والله المستعان تتواتر السير أن الصبي أحمد عمار أبى الرجوع وفضل البقاء، وأنه يعرف ما يمكن أن يلاقيه من أهله وقرابته في عين ماضي، وأنه سيعير بأمه وجنسه ولون بشرته السوداء. استعانت أمه بقرابتها وخلصاء زوجها، لتقنع ولدها بضرورة الرجوع، ولما عجزوا اعتمدوا معه الحيل، تقول الروايات أنهم أظهروا للطفل أنه يقوم بخوارق، تؤكد صلته بمقامات العارفين والأولياء. الغريب أن هذه الخوارق تظهر في مسالك القوة والبطش المهم أن الطفل اقتنع أنه ليس كغيره من الأطفال، فهو من سلالة الأولياء، وما يؤكد ذلك فعل الخوارق التي أقنع نفسه بأنه يقوم بها. لذلك ما عاد لعين ماضي حتى شرع في استظهار قوته المادية أولا ثم قوته المعنوية ثانيا، تذكر وفهم أنه السيد أحمد بن عمار والده السيد مُحَّد الحبيب ابن سيدي أحمد التجاني، الآن هو وأخيه الأصغر سيدي البشير هما الآن في قمة الهرم، الأب واحد وان اختلفت الأم.

ذكرنا أن أحمد بن عمار أمه السيدة عافية أما السيد البشير أمه السيدة فريحة، الرواية الشفوية تذكر أن الشاب الأسود سليل الأولياء، تزوج من بنت عمه السيدة رقية بنت سيدي مُحَّد الكبير، الشاب ظهر ثائرا حاملا لواء التمرد في بداية صباه، ظهرت ثورته في كلامه، ثم تجلت في خطابه وأخيرا في سلوكه.

ظهر ناقما على كل شيء غير راض عما يشاهد من فعل، يقوم به أهل بيته وقرابته وكيف أن مظهر الاحترام، يأخذ أحيانا مسار العبودية والاستعباد، بدأ يصغي إليه أقرانه في السن يستمعون لكلامه ورفضه للاستعمار منددا بما يفعل، بدأ كلامه ينتشر انتشار النار في الهشيم، المنتفعون من أهل بيته غضبوا وأظهروا غضبهم، إلا أن طبع الشاب جاء شديدا. أبى غضبهم وغضب لنفسه وأهله من المقهورين الضائعين، يرى أمة مقهورة ممزقة قهرها الاستعمار ومزقتها الخرافات والاساطير وذكر الخوارق، هنا قرر أن ينتقل من القوة إلى الفعل، رفع صوته عاليا وجاهر بدعوته، عيون المحتل داخل العائلة وخارجها كانت ترصده وتبلغ عليه، وتنذر بأن حفيد الولي الصالح سيدي أحد التجاني هو يصنع ثورة، ويحضر ثوارا، وأنه قاب قوسين أو أدنى من إعلانها والتبشير بوقوعها، ولأن الشاب عالي الهمة قليل الخبرة عاجلته فرنسا وأمرت بنفيه بعد الحوادث التي ذكرناها مفصلة في معركة عين ماضي، هي تعلم أن العُقاب لا يحلق إلا في سمائه، وأن الحوت الحر لا يسبح إلا في بحاره.

حمل عنوة وأرسل بداية للعاصمة، ثم أرسل لمدينة بوردو الفرنسية منفيا، لم يكن الهدف النفي فقط، بل الهدف التدجين وقتل الرجولة فيه، هذا الشاب الأسود لو قدر له الفعل والتصرف لأحدث ثورة دينية، كما أحدثها جده السيد أحمد التجاني، بل سيحدث ما هو أعظم وأجل ثورة في المغرب العربي وافريقيا، وتجري الرياح بما لا تشتهي السفن، لان ظلال التجانية تغطي هذا العالم، وتتجاوزه لعوالم اخرى. قبل أن ينقل الشاب الثائر إلى المنفى الفرنسي، وضع موضع الاعتقال بمدينة الجزائر، مكث بها سنة كاملة معزولا عن تلامذته، ومريدي الطريقة التجانية، ومن يعرف من الأقارب والأباعد، بُعده وسَجنه أثار الناس، فأظهروا نقمتهم ورفعوا اصواتهم، وجهروا بعدائهم وطالبوا بإطلاق سراح الشاب الثائر سليل الأولياء ناصر المقهورين والضعفاء.

ظهر لفرنسا أن تبعده وتعالج أمره بالحكمة، واستقر الرأي أن يكون المنفى مدينة بوردو يومها فرنسا تعيش حرب 1870 ميلادية، تسمى الحرب البروسية الفرنسية، ويسميها البعض الحرب السبعينية، حرب نشبت بين فرنسا ومقاطعة بروسيا في ألمانيا، حربا

خاطفة وقصيرة الأمد، مقارنة مع الحروب التي عرفتها أوروبا. وصل الشاب المنفى ثم لحقه أخوه السيد البشير.

بدأ الشاب السيد احمد عمار البالغ من العمر بضعة وعشرين سنة حياة جديدة، تجربته في الحياة محدودة وثقافته البسيطة، لا تسعفه في التعايش مع هذا المجتمع الجديد، ومع ذلك أبقى نفسه محافظا متثبتا من هويته، محبا عاشقا لدينه متصلا بعروبته، جسمه هنا وروحه وعقله هناك. تعرف على منفاه الجديد، تعرف على أبنيته وعرف أهله وناسه أحمد عمار في يوم في جولة من جولاته، قدر الله أن يمر على فتاة تحمل بين ذراعيها وتضم إلى صدرها سرب حمام، تلاعبهم وتمرر يداها لتذهب الشوائب عن أجنحة الحمام وريشه هي ليست غريبة عنه، هي ووالدها يسكنان الفندق الذي يسكنه. وقف وهو يرقب عملها ويتعجب من فعلها، كيف تحن وتلاطف سرب الحمام، رغم كثرة السرب وبعثرته تلمه وتسعفه، حتى يجد بين ذراعيها متسعا ومستراحا، بقي ناظرا إليها وهي لا تدري، ما أخرجه من ذهوله واستغرابه سلوك الفتاة، ما شعرت به حتى التفتت لترى عجبا، شاب لا كشباب مدينة بوردو، لا يشبههم ولا يلبس لباسهم، شاب أسود بالكاد دخل العقد الثاني، لم يتجاوز العشرين إلا قليلا، جلد قوي ثاقب النظر، يظهر عليه الحياء، يضع عمامة يرخي بعضها، ويشد بعضها الآخر، يرتدي برنسا، يضع تحته عباءة منفرجة بيضاء. برنسه جُمل بخيوط ذهبية وفضية في منتصفه، انتعل حذاء عربيا من الجلد الأحمر، قبل لبسه لبس خفين أحمرين، انحنى قليلا ليسلم على الفتاة، خافت في البداية، وكادت أن تشتمه وترده، ظنا منها أن مثله مثل شباب مدينة بوردو، ثم ارتاحت ونظرت إليه واجمة تسأله السبب في وجوده، هذا ذكرني بأبيات لجميل بثينة أحفظها منذ الصغر:

وأول ما قاد المودّة بيننا بوادي بغيض يا بثين سباب

وقلنا لها قولا فجاءت بمثله لكلّ كلام يا بثين جــواب

الجميلة هذه تسمى أوربي بيكارد فرنسية ولدت في 12 من شهر جوان 1849 ميلادية في مدينة مونتاني لو رووا Montigny-le-Roi والدها عمل في جهاز الدرك الفرنسي خدم في الجزائر في جوقة الشرف من يعرفه، يقول انه يفتخر بأنه من الجنود الذين

أسقطوا عاصمة الأمير عبد القادر المعروفة باسم الزمالة سنة 1843 ميلادية، والد الجميلة حافظ على عاداته التي اكتسبها من عمله في الجزائر، يكلم ابنته عن حبه للخيل ويذكرها بجمال الخيالة والفنون التي ترافقهم. كلمها عن الأمير عبد القادر وخيالته، كلمها عن العرب وعاداتهم، هذا الكلام عادة يحدث لما ترافقه في نزهات تركب ووالدها الخيل يذكرها بما مضى وفات، لا يتردد ويكلم ابنته عن الجزائر عن السهول والصحاري، عن جمال الغرب وجلال الشرق، وروعة الوسط والامتداد في الصحراء. لما بلغت الفتاة الثامنة عشرة سنة عملت بائعة في متجر، لأن عائلتها تعرف حاجة وعوز، تعرفت على السيدة ستيناكر Steenakers زوجة الحاكم للمدينة، لتعمل عندها خادمة. السيدة وزوجها سكنا الفندق الكبير في مدينة بوردو هو الفندق نفسه الذي سكنه الشاب المنفي المبعد عن وطنه، الظاهر من سياق الحدث أن الفتاة بلغت الواحد والعشرين سنة.

سيدة البيت من الطبقة الراقية في المجتمع، هذا سمح للشابة أوريي أن تتعلم الفنون تعلمت العزف على البيانو، وآلة موسيقية تسمى الصولفاج سيدة البيت رُقّي زوجها من حاكم المدينة، ومدير عام البريد إلى وزير للبريد. فرنسا يومها في حالة حرب مع ألمانيا استطاع الألمان البروسيين، بروسيا هذه مقاطعة في ألمانيا، قطع أسلاك المورس أيامها هي تقنية بسيطة وبدائية في المواصلات والتواصل، فتم الرجوع للطريقة الأولى وهي اعتماد الحمام الزاجل من أجل التواصل. الظاهر أن وزير البريد استعان بالفتاة أوريي في هذه المهمة من أجل تحضير واعداد بعض الحمام، ليتدرب على القيام بهذه المهمة العاجلة التي اقتضتها تغيرات الحرب.

الفندق يضم الجميع السيدة وزوجها، والشاب وأخيه البشير، ومن يزر ويسكن الفندق من الزائرين بدأت علاقة تعارف تنشأ وتمتد، حاول الشاب الصغير كذا مرة أن يحيي الشابة الفرنسية، إلا ان الدين والخلق أبى عليه ذلك، فقرر أن يفعل فعل الرجال ويأتي البيوت من أبوابها، جاء في نفسه أن يخطب المرأة من أهلها. ما علم والد الفتاة وسمع الخبر وكان يومها خارج المدينة، حتى استشاط غضبا، وعاد ليحذر ابنته من عواقب فعلها وحذرها من فعل العرب بالنساء، وأن أعراف العرب وتقاليدهم تهين المرأة وتحقرها

وهذا الشاب أسود أمه أمة سوداء، ولا يشفع له إلا فعل جده أحمد التجاني صاحب الطريقة التجانية ومؤسسها.

والد الفتاة لم يفلح في ثني ابنته عن مشروع الزواج، هنا يتدخل صديق العائلة وهو السيد وزير البريد الذي عملت الفتاة في بيته، رأيه أن مشروع الزواج مثمر، وأن الشابة سيكون لها الشرف أن تقترن بشاب هو الآن خليفة المسلمين، ورئيس أقوى تيار قوي متدفق تمثله مجاميع بشرية منتشرة في أصقاع الأرض. مشروع المؤسس أحمد التجاني رضي الله عنه مشروع وحد بين العرقين العربي الخالص والعرق الافريقي السيد مؤسس الطريقة وأبناؤه صاهروا هذا العرق، فجاء منهم الأبناء والأحفاد، هذا المسلك أخذ به أبناء الشيخ، ورفعوا من أراد الله رفعه، لأن حاملي البشرة الزنج في القاموس اللغوي هم الرجال العبيد والنساء الاماء، هذا العقل الذكي المؤسس وأعني هنا السيد أحمد التجاني أعاد المسار البشري إلى وضعه الأول، الذي وضع قواعده نبي الرحمة والاسلام مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام، كما جاء في محكم التنزيل قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ مع ذلك طلب السيد الوزير من الفتاة أن تفكر مليا في الأمر، الفتاة اقتنعت واقتنع معها الوالد وتم اللقاء بين الشاب ووالد العروس.

بدأ الحديث في التفاصيل، إذا تم فيها التوافق تكون هناك أسرة واحدة ولما لا يكون هناك شعبا واحدا، لقاء والد العروس أثلج صدر الشاب واندفع في الكلام، وهو يجمع بين الحقيقة والخيال وبين الصدق والمبالغة، لحظة الفرح أضاعت منه منطق الكلام ومسار الحدث، قال الشاب لولي الزوجة : المهر 400 ناقة و 2000 معزة ونزنها إن شاءت ذهبا وفضة، نشوة الحدث أنسته منطق الحديث الوالد فهم الموقف هو في كل الأحوال لا يبيع ابنته، بل يبحث لها عن زوج يصلح لها، الشاب الذكي عرف خطأه وأدرك تسرعه وأراد أن يصلح أمره عاد إلى هدوئه ورزانته، وتحلى بأخلاق أبائه قال له : عفوا سيدي كريمتك ستكون من حياتي وجزء من مملكتي، مملكة الفضل والتقى والعفو سيرفع على رأسها تاج البركة، بركة سيدي أحمد التجاني. نحن ينضوي تحت عباءتنا بدو صحراء الجزائر والمغرب وأشراف تونس ومصر، وأمم الساحل الافريقي وجمع المؤمنين في مشارق الأرض ومغاربها، نحن لا نرهب الناس بسيف ورمح تجمعهم رحمتنا ومحبتنا لنبي

الاسلام وصحبه وآل بيته هكذا نحن، هكذا كنا وهكذا سنكون هي سنن الأنبياء ومن حمل رايتهم من أهل التقى الأولياء ثم حدثه، أنه سيبدأ مع كريمته حياة جديدة، إذا قدر الله له الرجوع إلى مدينته عين ماضي، وذكره أن دين الاسلام دين لا اكراه فيه، ان شاءت بقيت على ملتها وان شرح الله قلبها للإسلام فهي من أمة المسلمين، ونحن نهتدي بهدي نبينا ورسوله وجدنا سيدي أحمد من العترة الطيبين الطاهرين. هكذا تم العقد ووقع التوافق بين الأسرتين، استقرت الأوضاع لفرنسا ورفع عن الشاب النفي والاقامة الجبرية، من يحكي الحكاية يقول أن عائلة الزوجة اشترطت، أن يتم عقد الزواج بمقتضى شرائع المسيحية ليبارك الرب وتبارك الكنيسة فعلها، لأن الزوجة ولغاية اللحظة كانت على دينها النصرانية، الزواج لم يلق الرضى من الادارة الفرنسية، ورفضته بالمطلق، اعترض عليه قاض الجزائر، رُفض الزواج بحجة عدم التوافق بين الزوجين.

المهم بعد جهد ولأي تم التوافق على حل ينهي الخلاف بين الأسرتين، مراسيم الزواج وطقوسه تباركه الكنيسة، تبارك زواج الزوجة، أشرف على طقوسه ومراسيمه وساهم في حل الخلاف والاعتراض الصادر عن الادارة الفرنسية هو المبشر المعروف لا فيجري وحل الاشكال الذي وضعه قاضي الجزائر. مقدم الطريقة التجانية، تكفل هو بالعقد الشرعي المعروف بالفاتحة، هذا الحدث يقع تاريخه 29 جويلية 1871 ميلادية، وبعدها مباشرة تم توثيق العقد اداريا، نزولا على رغبة والد الزوجة ووليها. تم التهيؤ للانتقال لمدينة عين ماضي، أُحضر للعروس الهودج والقافلة التي ترافقها ليحملها وجدت الرعاية والعناية من الأقارب والخدم، ومن كلف بخدمة العروس، المسير والوصول لمدينة عين ماضي يحتاج زمنا، بعد عشرين يوما من التنقل والترحال الطرق صعبة عصية والمسالك وعرة، ما أرهق الابل الحركة في السهول الطينية، والأرض المغمورة بالحصى والحجارة تجربة الهودج قاسية على العروس لم تعهد حركة الابل وتمايلها، زمن قصير من السفر حتى أخبرت الزوجة زوجها أن لا طاقة لها لتركب هودجا يحمله جمل، وذكرته أنها خيالة تحسن ركوب الخيل.

يقع الزوج في الاحراج، ولم يجد بد من الاستجابة لمطلبها من بد، وافق وجهز لها حصانا عربيا تركبه، شاهد الجميع السيد رفقة زوجته يمتطيان الأحصنة العربية الشريفة

يمشيان أحيانا ويتسابقان أحيانا أخرى، زمن وكانت القافلة تترك التل، وتدخل الهضاب العليا هي مناطق موحشة، تتسع وتمتد السيد أحمد كان يرقب المشهد ويخفف الحمل والعبء على زوجته، كانت تبثه مخاوفها وهواجسها تقول له سيدي أحمد : ترى أنا وحيدة فرنسية بين عرب، ما يخيفني ما أخاف أن أجده في عين ماضي، أنا أعرف النساء ومكرهن، لك زوجات سابقات وعائلة من الصعب أن تقبل وجودي، لا أعرف بأية لغة أكلمهم بها، السيد أحمد يبتسم يخفف هواجسها، يقول لها أنت لا تسكني في عين ماضي فندقا ولا بيتا، أنت تسكني الزاوية وأنت سيدتها، أهلي هم أهلك وناسي هم ناسك، لما الخوف ولما الوجل، بعد جهد ولأي وصل الموكب إلى حدود عين ماضي.
العلامة على الوصول إلى المدينة صوت قراء القرآن والطلبة، صوت لا ينقطع مع تعاقب الليل والنهار، العروس لم تعهد هذا، ولم تسمع من قبل هذه الأصوات الندية، التي ترسل سلاسل الآيات متناثرة في هذا الكون الفسيح، الرجال سارعن لتحية الشاب خليفة الطريقة، النساء أسرعن لرؤية العروس والنظر لجمالها والتمتع بما لبست، قبل ذلك من قاسم العروس الرحلة، ما شاهدوا قصر عين ماضي يلوح عن بعد حتى صاح النساء والرجال ونطقوا كلمة واحدة: ها هي عين ماضي، ها هي عين ماضي، زمن قصير ودخل الموكب القصر. لم تستطع العروس أن تمنع نفسها من الخوف وهي تجد نفسها في عالم آخر لم تعهده ولم تألفه مع الزمن، تبددت وغابت عنها المخاوف والهواجس، بدأت حياة جديدة، عالم آخر لم تعرفه من قبل يغمره الغموض والتداخل في كل شيء، ظاهره الصمت وباطنه الشك والترقب، عرفت الوافدة الجديدة عالم نسائي جديد، له قواعده وخصائصه الفريدة، النسوة في الزاوية لم يرضهن، أن تنافسهن امرأة تأتي من أرض الروم، السيد طلق نساءه وأبعدهن، وترك القادمة من فرنسا، كي تكون هي سيدة البيت.
الجدران المرتفعة وغلق الأبواب والنوافذ، ووضع الحرس لحراسة الحريم، أثقل الحياة على العروس وجعلها ثقيلة، السيد أراد أن يخفف عن زوجه عبء الحياة، فقرر أن تكون له صاحبة في ترحاله وتنقلاته بين العروش والقبائل، تحضر معه المواسم والأعراس، وتجد سعادتها لما تتنقل بين واحات النخل، هذه المرحلة جعلتها تشعر أن العالم أكبر مما كانت

تظن، وأن البشر أكثر تنوعا مما كانت تعتقد، وأن الحياة ليست بالبساطة واليسر، ولا يمكن تصور العالم دون هذا الامتداد، الحياة هنا عالم غير لا يماثل بحياة فرنسا أو من عاش في مدينة من مدنها كمدينة بوردو مثلا. هناك عائق وكان عليها تجاوزه هو عائق اللغة، بدأت بالتعرف على اللغة العربية مع تعرفها على السيد أحمد، بدأت تنصت لمن يكلمها وتفرز الكلمات التي تفهمها مع الزمن وشيئا فشيئا، أتقنت لغة الخطاب وأحسنت استعمالها، ما تعلمت لغة ولسان الخطاب، حتى شُغفت باللغة العربية وجمالها وقررت أن تتعلمها.

لغاية الآن السيدة معرفتها عن الاسلام بسيطة، بساطة معرفتها الدينية الأولى هي من عائلة مسيحية تنضوي تحت الكنيسة الكاثوليكية، ولا يعرف في هذه المرحلة إن كانت السيدة على دين المسيحية، أم على ملة الاسلام، والظاهر والله أعلم أنها كانت بين منزلة بين المنزلتين، الانقلاب حصل لما أحسنت اللغة العربية خطابا ثم قراءة وكتابة هنا تُفتح أمامها مكتبة الزاوية، وتقف على ميراث المسلمين الديني والعربي، والثقافي في كليته. لم تكن بحاجة لتتعلم قراءة القرآن كتاب الله يتلى آناء الليل وأطراف النهار، حملة الكتاب والقراء والحفاظ ملأوا المكان، تراتيلهم تملأ الأرجاء والأنحاء السيدة تقتبس من أنوارهم وتأخذ من تجلياتهم ويحيطها نورهم.

بدأت حياتها تعرف تغيرا جوهريا ظهر في حياتها وبرز في سلوكها، تغيرت عاداتها تبدل نمط حياتها، خصت نفسها بالقراءة وقراءة القرآن خاصة، بدأ عطفها يشمل الجميع الصوفية من مصطلحهم القطب، من معانيه الانسان الكامل بأوصاف الحقيقة المحمدية الجامع للشمائل ومكارم نبي الاسلام، العامل بعمله المتخلق بخلقه، لم تكن السيدة قطبا من أقطاب الصوفية، إنما كانت قطبا في حياتها ومجتمعها، قطب إيمان ممغنطا له وجهان وجه يجذب الخير ويقربه، ووجه يُنَفر الشر ويبعده.

بدأ حب السيدة يملأ القلوب من أحبها كان يناديها لا لا يمينة، تيمنا بأم النبي مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام، ولا لا في اللسان المحلي تعني السيدة الفاضلة المفضلة بالنسب والعلم سكنها الحزن، ما رأت من فقر وعوز وجهل يعم الناس، تذكرت قول السيد المسيح عليه السلام ليس بالخبز وحده يعيش الانسان، لا يمكن أن تبقى الزاوية مجرد ملجأ

للجوعى والأيتام والأرامل، وليست وظيفتها فقط اطعام الطعام وكسوة العاري، نعم هذا من وظائفها المقدسة، إلا أن هناك وظيفة أهم وأعظم أن تكون للزاوية سياسة اجتماعية تحافظ على بقاء المجتمع وتحفظ وجوده، من أجل ذلك، تعجل السيد أحمد أمره وقرر أن يدخل تعديلات وتحويرات جديدة. لن تكن الزاوية منذ اليوم والقادم من الأيام مرتعا للنوم والكسل، ولا مكان لسجالات النساء وصراعهن على الحظوة والمرتبة، ولن تكون الزاوية ملجأ أيتام فقط، ستكون مساحة عمل وعلم وأخذ وعطاء.

بدأ السيد في ترتيب ميزانية الزاوية بعدما كانت همل وسوق مفتوحة، وطالب بترشيد الصدقات ومال الزكاة، وجعلها تخدم البائس والفقير، وتذهب إلى المحتاج، عوض أن يأتيها هو ويطلبها. تم تفعيل الفروع في القرى والمداشر والمدن وفتح المحاضر في البدو والحضر، وأن تكون الزاوية وسط بين الدولة الحاكمة القاهرة وبين الناس، وأن تسعى في مصالح الناس قدر الاستطاعة.

وظيفة الزاوية أن تعلم أبناءهم، وترشد شبابهم للعمل الصالح، عمل الدنيا والآخرة السيدة تُكلم زوجها عن تفشي الأمراض والأوبئة بين الأهالي، وأن الوسائل المعمول بها في التمريض والعلاج قديمة لا تصلح، اقترحت عليه الاستعانة بالعاملين في الحقل الخيري من نصارى ومسلمين، العاملين في مدينة الجزائر لمد يد العون والمساعدة. تردد السيد في قبول مشورتها، وأعلمها أن العاملين في هذا الحقل الخيري هم عادة المبشرون على شاكلة لا فيجري والراهبات، أخبرته أن العجائز في عين ماضي يقولون الهالك يأكل الجيفة والقاص يشرب الخمر، والجميع يعرف أن الأهالي محصنون بالفطرة، وأن عقيدتهم راسخة لا تتغير ولا تتبدل، بعد نقاش طويل تم التوافق على حل وسط يخفف عن الأهالي، ويبعدهم عن أخطار التبشير. تم احضار أدوية ومسعفون، وتم فتح مصحات ومراكز للعناية بالصحة وبدأ الأهالي يتعرفون على الطب الحديث، وأدواته التي كانوا يجهلونها، لعل من أهمها الأخذ بالقواعد العامة في النظافة، وتطهير المكان والعناية بصحة الأطفال والنساء، وحتى تكتمل الصورة العاملين في الزاوية، فتحوا مركزا استشفائيا يسد حاجة المحتاجين للشفاء والعلاج.

نجح هذا المسعى ورغم بساطته، إلا أنه حقق غاياته الفعلية، السيدة يمينة لم تقف عند هذا الحد أرادت أن يتوسع مشروعها، وأن يكتمل بفتح مدارس حديثة تعلم الأطفال علوم العصر، سنة 1882 ميلادية فتحت أول مدرسة، واشترطت تعليم البنين والبنات، وبناء ثقافة عملية تخرج الصغار من التخلف والاندثار إلى العلوم والانتصار على الجهل، كلها مساعي حثيثة تسعى في نهضة المجتمع ورفعه من درجات الركود والانقياد إلى الجهل إلى درجة العلم والعطاء.

لالا يمينة تعودت على الخروج في فسح وتنزه، كلما استقر الجو واعتدل المناخ في إحدى الجولات ركبت فرسا شاهدت عن بعد شجرة فستق، أرادت أن تجعلها لها ولزوجها ظلا، ما اقتربت منها حتى أبصرت عين ماء صغيرة، تذوقت ماءها وجدت عذبا زلالا أمسكت كفيها وملأتها ماء وقالت لزوجها أشرب، السيد سمى الله ثم شرب حتى ارتوى، حمد الله ونظر لزوجته قائلا : ما أعذبه، حينها شجرة الفستق ترسل ظلالها صمتت ثم قالت : السيد أحمد أحلم أن نبني هنا بيتا نسكنه الصمت يخيم على المكان لا يقطعه إلا صوت الطيور، ثم استرسلت في كلامها : أدعو الله ربي أن يجعله سكن رحمة يجمعنا نحن والأهل وأهل الزاوية كلها، سيكون بإذن الله تعالى مزرعة غناء نسكنها نحن والطيور، قال لها السيد أحمد : نحن المسلمون والآن أنت منهم نحب الماء ونعشقه ونبحث عنه، وأين وجدناه نسكن عنده، الله وعدنا بجنة تجري من تحتها الأنهار، أخبر والدي مُحَمَّد الحبيب أن الجنة درجات أعلاها الفردوس الأعلى، وهو تحت عرش الرحمن جل وعلا، تخرج أنهار الجنة الأربعة وهي نهر اللبن ونهر العسل ونهر الخمر ونهر الماء.

ما انتهى اليوم وجاء المساء حتى كان مشروع شجرة الفستق، يكبر وينجلي في الأفهام على عجل قرر السيد أحمد، أن يشيد بيتا يسكنه هو وأهله، ويكون ملاذا للعاجز والمحتاج ومرتعا للخير وأهله ومقرا لأهل القرآن وناسه. ما هو إلا زمن حتى تم تشييد البيت، وجاء آية في جماله وتناسقه بالرغم من بساطته، هو بيت فسيح واسعة أرجاؤه ممتد في أفق بعيد توقفه جدرانه، لا ترى سقفه إلا إذا رفعت رأسك عاليا في عمومه، هو مكون من طابقين أرضي وعلوي، ما أكثر ساحاته تكسوها الخضرة ترتفع أشجار الفستق تظلل أنحاؤه. ما تدخل أبوابه حتى تغمرك الخشية والخشوع وخوف الماضي وجلاله يقف

أمامك كل شيء في القصر يكلمك، جدره وأبوابه نوافذه والمفاتيح وأقفاله كل شيء ينطق الرمل والحصى، وذر الغبار يسافر في الجو، ينساب خيوط ضياء، تماوجها يحدث ألوان متعاقبة مع منافذ القصر.
هندسة البناء إسلامية مغربية أندلسية، تذكر بقصور غرناطة واشبيلية، فيها مسحة من هندسة اليونان، يظهر أثرها في الزوائد الجمالية التي أضيفت لأعمدة السقف، البناء في كليته يتكون كما قلنا من طابقين طابق أرضي، وطابق أول هو سلسلة غرف، لكل غرفة شرفة تطل على ساحة القصر، سلسلة الغرف نهايتها دائما موصلة للسطح. استعان السيد بزوجته من أجل تأثيث القصر هناك رسالة موثقة صادرة عن مكتب العرب الخاضع للإدارة الفرنسية، عبارة عن تصريح صيغته : " السيدة حرم التجاني تذهب للجزائر للتزود بالحاجات الضرورية الخاصة بالزاوية، هي تبحث التأثيث بالخشب مما يسمح ببناء قصر كوردان من أجل هذه الغاية تحتاج من الجمال خمسون ينتظرونها عند منطقة ثنية الحد هي نفسها ستكون المرافق وهي تمتطي فرسا".
ما انتهى البناء والتأثيث حتى أضحى البيت المفضل للخليفة الرابع للطريقة التجانية المؤرخون يثبتون حياة الخليفة زوج السيدة بين سنتي 1850 و 1897 ميلادية، أما الأحداث ومسارها الزمني من الصعب أن يدعي أحد إمكانية توثيقها زمنيا، المهم أن القصر توسع وأضيفت له مساحة زراعية مستصلحة، تقدر بحوالي ستمائة هكتار سمح للفقراء والمحتاجين من الانتفاع بها، هكذا مع الزمن، تحول المكان إلى قرية تعرف مرحلة النشوء والتأسيس. تضاعفت الآبار المحفورة وكانت مغمورة بالمياه، تزود بالمياه الباطنية من عيون جبال العمور، القصر والمكان أخذ مسمى هو كوردان، تم نحت الكلمة من المركب اللفظي الفرنسي court dame ترجمتها الحرفية ساحة النساء، هناك من يعيد بداية بنائه لسنة 1870 ميلادية، سبب التضارب في تثبيت تاريخ البناء مرده لتقدير زمن التفكير فيه كمشروع، أو الشروع في بنائه، أو جعله مسكنا مستقلا عن الزاوية
كلها فرضيات قابلة للاحتمال، المهم قبل أو بعد سنة 1883 ميلادية أنا أرجح أن القصر وساحاته وحدائقه وبساتينه، لم يتهيأ إلا بعد سقوط مدينة الأغواط 4 ديسمبر 1852 وقتل أهلها والتنكيل بهم، والظاهر أن البناء وتوسعته، جاء ليأوي الضائعين والمشردين

ومن يؤرخ للحقبة يقدر عدد العائلات الساكنة جوار القصر بعدد يفوق 200 نسمة. الظاهر أن العدد يحصي العائلات لا الأفراد، وهو يقترب من عدد الناجين من محرقة السلاح الكيميائي، وفعل الخونة والغادرين في ساكنة الأغواط وأهلها، فعل البناء تحديا جغرافيا وتاريخيا، نفهم من سياق الأحداث، أن السيدة أرادته أن يكون امتداد لقصر عين ماضي، وأن يجمع الناس وخاصة الضائعين والهائمين والفقراء المحتاجين. همة السيد أحمد خليفة الطريقة عظيمة في لم الشمل وإغاثة الملهوف، هناك قراءة خاطئة روج لها الاستعمار وأذنابه لما صوروا بناء القصر أنه جاء لهوى وحب، وأن السيد أراد أن يرضي زوجته، هذا جزء من الحقيقة، لأن الحقيقة الكاملة تقول أن البناء، جاء ليسكن الألم ويداويه، ويعالجه معالجة واقعية.

كما قلت وأكرر، أن ميراث السيد أحمد التجاني وأبناؤه تعرض للعبث، فتم العبث بالميراث العلمي، وتم تزويره واختراقه بدس النصوص الكاذبة، وقولوها لصانع الطريقة أو اعتماد القراءة الخاطئة للأحداث، وإخراجها من سياقها التاريخي والجغرافي العام، كما فعلوا مع تفسيرهم لبناء القصر وأظهروا السيد أحمد رجل هوى يتبع هوى زوجته، تحول القصر إلى مزارا يأتيه الكبراء والمسؤولون من أهل السياسة والفن، القصر استقبل الحاكم العام للجزائر، كبار موظفي الإدارة الفرنسية، كبار الضباط وقادة الجيش الفرنسي المكتشفون والباحثون، أعلام الصحافة. زار القصر فنانون وغيرهم كثير مع الزمن أضحى للقصر أدوار اجتماعية وسياسية، يقوم بها وكان له دور كبير في حل كثير من المشاكل بمنطق الواقعية والتعامل مع الأحداث بحكمة، لأن الواقع له أحكام تنظمه، عاد للزاوية دورها الاجتماعي إلا أن الأيام يصدق عليها قول المتنبي:

قـد كانَ شاهَدَ دَفني قَبلَ قولِهِمِ جَماعَةٌ ثمّ ماتُوا قبلَ مَن دَفَنوا

مَا كلُّ ما يَتَمَنّى المَرْءُ يُدْرِكُهُ تجرِي الرّياحُ بمَا لا تَشتَهي السّفُنُ

تأتي سنة 1897 ميلادية حزينة، الموت يخطف السيد أحمد خليفة التجانية، ولم يكمل العقد الرابع من حياته، ترك فراغا عظيما ولكي تواصل مهام زوجها وتكمل رسالته، قررت أن تقترن بالسيد البشير خليفة السيد أحمد، وهذا عرف يعمل به من أجل جمع العائلة القبيلة والعرش، وهو لا يناقض الدين بل الدين يحث عليه. السيدة لم تعد بالمرأة

الصغيرة هي كبيرة، تلقى الاحترام والتقدير من الجميع، وهذا جاء لأن العائلة التجانية علماء وخاصة رأوا مصلحة في أن تبقي على وظائفها خدمة للجميع، اشترطت شرطا بسيطا وهو أن يسمح لها وتزر بلدها الأصلي، منذ اليوم الذي حملت فيه إلى عين ماضي، لم تزر أهلها ولم تلقهم.

أُذن لها في زيارة سريعة ذهبت وعادت مسرعة، عاشت بعد ذلك زمنا توفيت يوم 28 أوت سنة 1933 ميلادية، هناك من يقدر سنها يوم وفاتها بأربعة وثمانين سنة رحمها الله رحمة واسعة، صلي عليها صلاة الجنازة ودفنت بمقابر المسلمين قرب قصرها كوردان.

بعد وفاتها تفرق الجمع وانطفأت شموع القصر سنة 1949 ميلادية يزور الرحالة فيرسون روش Frison-Roche قصر كوردان بعد ستة عشر سنة، ليكتشف أن القصر يسكنه الصمت الرهيب ورياح الصحراء تقطنه، الحدائق مهملة سكنها غرباء ما تركوا جميلا إلا أبعدوه وأزاحوه، عاد قصر فناء السيدات مقرا ومستقرا للضائعين والناهبين.

ما أبقاه البشر اقتلعته رياح وعواصف الزمن، القصر لم يسكنه الغبار والتراب فقط سكنته الحكايات والأساطير، تقول الأسطورة أن الإنس لما غفلوا عن القصر وتركوه غضبت الجن وسكنته، وأن الصلاة تقام فيه وأن الجن لهم امام يؤم الصلاة يرتل القرآن ترتيلا[1]، وأن أصواتا ترتفع بين الحين والآخر ترتل آيات الذكر الحكيم، وأن نفس السيد أحمد وأبناؤه عالقة بالتربة يجد رائحتها وعبقها من ذكر الله كثيرا. يقال كذلك إذا دخلت الريح القصر يسمع صوت نسائي هو صوت لا لا يمينه، يرتفع أحيانا ويخفت أحيانا تطالب الخدم والعاملين أن يطعموا الجائعين، ويسعفوا المرضى العاجزين، قبل أن أتوقف عن السرد أشكر أخي وصديق العمر الحاج علي دمقرة، لولاه ما كتبت هذا الفصل وأشكر والدته الكريمة أمنا، كل هؤلاء وغيرهم ساعدونا في كتابة هذه الكلمات، بما اختزنت ذاكرتهم من حكايات جميلة عن زمن جميل، أحمد الله أن هؤلاء الكرام الذين رووا الحكاية ووثقوها كذاكرة شفوية هي مزج بين حقيقة وخيال. قلوبهم وأنفسهم عامرة بالحب والإيمان يحبون الناس كل الناس. البعض يجد سعادته في الكره والانتقام من البشر دون سبب، فيشكك في دين الناس ويطعن في إيمانهم واعتقادهم، هي عقول

[1] Roger FRISON-ROCHE Djebel Amour

مبرمجة على الكراهية، يقرأون القراءة التاريخية الخاطئة ويصدقونها. يصدق فيهم قوله تعالى: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾.

المراجع العربية:

1. الأغا عودة المزاري تحقيق ودراسة الدكتور يحيى بوعزيز طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر دار الغرب الاسلامي لبنان الجزء الأول والثاني.
2. الشيخ العلامة مُحَمَّد بن يوسف الزياني دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار وهران تحقيق وتقديم الشيخ المهدي البوعبدلي اعتنى به عبد الرحمن رويب عالم المعرفة للنشر والتوزيع.
3. أحمد بن هطال التلمساني تحقيق وتقديم مُحَمَّد بن عبد الكريم الناشر عالم الكتب القاهرة.
4. برونو إيتين ترجمة ميشيل خوري عبد القادر الجزائري دار عطية للنشر لبنان الطبعة الأولى 1997.
5. شارل هنري تشرشل ترجمه وقدم له وعلق عليه الدكتور أبو القاسم سعد الله حياة الأمير عبد القادر الدار التونسية للنشر.
6. د . العربي دحو جمع تحقيق ـ شرح وتقديم ديوان الشاعر الأمير عب القادر 1807 ـ 1883 ميلادية منشورات ثالة 2007.
7. بومداني مصطفى الجفر في الشعر الشعبي الجزائري أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه علوم في الأدب الشعبي جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان السنة الجامعية: 2015/ 2016 ميلادية.
8. زرت مدينة الأغواط الكابتن ديوراند ـ دولاكر Delacre ـ Durand رئيس مكتب شؤون العرب ترجمة كزواي الحاج العربي مطبعة دالي الأغواط.
9. أ . مونجان ترجمة كزواي الحاج العربي معلومات حول تاريخ الأغواط مطبعة دالي الأغواط
10. تاريخ بني لقواط لم يطبع.

11. نور الدين بودربالة عابد سلطانة عائلة البحايثية ودورها القيادي في مخزن وهران من خلال كتاب طلوع سعد السعود للآغا بن عودة المزاري مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية المجلد: 8 العدد: 1 جوان 2017

المراجع الفرنسية:

1. Le Général de Sonis, d'après ses papiers et sa correspondance par Mgr Baunard - [1] RECTEUR DES FACULTÉS CATHOLIQUES DE LILLE - PARIS LIBRAIRIE CHARLES POUSSIELGUE RUE CASSETTE, 15 - 1891 TRENTIÈME ÉDITION.
2. Roger FRISON-ROCHE Djebel Amour
3. Dix ans a travers l'islam, 1834-1844 - Roches Leon - Hachette
4. Arnaud Interprète militaire Siege D'ain Madi. Par El-Hadj Abd-el-Kader b. mo hie Eddine I et 2
5. Le Sahara algérien : études géographiques, statistiques et historiques sur la région au sud des établissements français en Algérie De Eugène Daumas Hachette BNF

6. Le Sahara algérien : études géographiques, statistiques et historiques sur la région au sud des établissements français en Algérie De Eugène Daumas Hachette BNF

7. RECTEUR DES FACULTÉS CATHOLIQUES DE LILLE **-** PARIS LIBRAIRIE CHARLES POUSSIELGUE RUE CASSETTE, 15 **-** 1891 TRENTIÈME ÉDITION.